سلسلة
فى
تاريخ العرب والإسلام

صلاح الدين والصليبيون

تاريخ الدولة الأيوبية

تأليف
الدكتور أحمد الشامى
أستاذ التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية
كلية الآداب - جامعة الزقازيق

الطبعة الأولى
١٩٩١

يطلب من
مكتبة النهضة العربية
٣٢ شارع عبدالخالق ثروت - القاهرة



سلسلة
فى
تاريخ العرب والإسلام

صلاح الدين والصليبيون

تاريخ الدولة الأيوبية

تأليف
الدكتور أحمد الشامى
أستاذ التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية
كلية الآداب ــ جامعة الزقازيق

الطبعة الأولى

١٩٩١

يطلب من
مكتبة النهضة العربية
٣٢ شارع عبدالخالق ثروت ــ القاهرة

الإهـــداء

الى شعوب الامة الاسلامية على اختلاف اسمائها ، وتعدد دولها ، اهدى هذا الكتاب ليذكرهم بامجاد دينهم ، ويعطيهم صورة عن عظمة اجدادهم ، فيعودوا كما كانوا ، وكما اراد الله لهم امة واحدة (وهذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاعبدون) ...

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــــدمة

الحمـد لله رب العـالمين ، والصلاة والسـلام على سيدنا محمد ﷺ
امـا بعـــد :

فان التاريخ معلم الشعوب ، وهو المرآة الناصعة التى تنعكس عليهـا صور القـادة وأفكارهم واعمالهم حتى يكونوا نبراسا وقدوة لشعوبهم فى حياتهم وبعد موتهم .

وموضوع هذا الكتاب صورة صادقة وحية ومضيئة لفترة من اهم فترات تاريخ الشرق الأدنى فى العصور الوسطى الاسلامية ، وهى فترة الصراع بين الصليبيين الأوربيين والمسلمين فى المشرق الاسلامى ، ذلك الصراع الذى اتخذ من مصر والشام مسرحا لأحداثه التاريخية ، رايت ان أقدمه للمشتغلين بعلم التاريخ ودارسيه فى الوطن العربى ليذكرهم بان الأمة الاسلامية الواحدة ، التى يجمع بينها وحدة الدين واللغة والعادات والتقاليد والتاريخ (وهـذه أمتكم أمة واحدة) قد نجحت فى عصورها الأولى ، كما نجحت فى عصورها الوسطى نتيجة لوحدتها وتوحدها وينبغى ان تنجح هذه الأمة فى عصورها المعاصرة كما نجحت من قبل ، ولن يتاتى لها ذلك الا اذا درست وفهمت واستقر فى وجدان شعوبها جميعا ان عزتهـا وقوتهـا ومجدها متوقف على وحدتها التى جاءت على صورتها يوم أراد الله لها ان تبسط عدلها ، وتنشر رايتها على العـالم آنذاك .

ومن حسن الطالع ان يظهر هـذا الكتاب فى هـذه الأيام على وجـه الخصوص حيث يعيش العالم اجمع الحالة التى استيقظت فيها شعوب شرق اوربا من نومها العميق ، وافاقت من كبوتها واستعادت حياتها وانتفضت شعوبها بكل قوتها تحطم النظريات السياسية التى انتشرت بعد الحـرب العالمية الثانية ، تلك النظريات التى ضللت هذه الشعوب ، وسيطرت على

افكار المثقفين فيها ، ثم احتوت وضمت زعماءها وقياداتها عن طريق شعارات ومبادىء ووعود خادعة زائفة ، فاستمرت على هذه الأحوال المظلمة السيئة ما يزيد عن أربعين سنة حتى اذا انكشف التضليل ، وانفضح المستور ، انقلبت هذه الشعوب وثارت على زعمائها ، لتدفع عنها ما أصابها من ضر ، وتنزع عنها أحزان هذه المبادىء الهدامة ، وتشفى نفسها من سمومها وامراضها ، فهبت هبة رجل واحد تعمل بكل ما فى استطاعتها وقدرتها لتعود الى وحدتها مع أمهات أوطانها التى انتزعت من بين أحضانها ، وأقصد بها عالم الوحدة والحرية والديموقراطية فى الغرب الأوربى ·

فاذا كان هذا ما حدث فى بعض شعوب أوربا بعد أقل من نصف قرن أو ليس من الأجدر والأعظم بمن ينتسبون الى دين العزة والكرامة ، دين الوحدة والمساواة والعدالة والسماحة ، الدين الذى يدعو الى خير البشرية جميعا ، ولا يفرق بين جنس وجنس ، ولا بين أبيض واسود (كلكم لآدم وآدم من تراب) (لا فرق بين عربى واعجمى ولا بين ابيض وأسود الا بالتقوى) · أو ليس من الأجدر والأعظم أن يبادر زعماء الأمة الاسلامية على اختلاف دولها وتعدد أسمائها الى العمل على وحدة هذه الأمة كما كانت يوم نشأتها ، ويوم أعادها صلاح الدين الأيوبى الى ما كانت عليه كما أراد الاسلام لها أن تكون ·

واذا لم يكن للدين من وازع فى قلوب البعض ، فهل انعدم العقل ، وتبلد الاحساس ، ومات الشعور ، وأصبح هذا البعض لا يتعظ بما سطره التاريخ فى عصوره السابقة ، ولا بما يحدث لقادة الشعوب التى انتفضت فى أيامنا هذه ، ولا بماذا عاقبت هذه الشعوب زعماءها ورؤساءها الذين أضلوهم السبيل ، وأذلوهم طوال أعوام تمسكوا فيها بنظريات كاذبة خادعة ، ليعيشوا هم فوق مستوى الأباطرة ويتركون شعوبهم يطحنها الفقر والذل والمرض · ان هذه تذكرة فمن شاء ذكره ، ومن شاء أعرض ، وما يوم الحساب ببعيد ·

والحقيقة ان صلاح الدين الأيوبى لم يات من فراغ ، كما انه لم ينشا فى أمة ميتة فاحياها ، لأن التاريخ كان لايزال ، وسوف يظل ، يحتفظ للأمة الاسلامية بجانب من أعظم انجازاتها الحضارية والانسانية والعسكرية ، فالدور الذى قام به صلاح الدين الأيوبى كان امتدادا واستمرارا لدور القائد المسلم الفذ الذى غرس نواة تكوين الجبهة الاسلامية المتحدة ، لمجابهة العدو الصليبى ، ونعنى به عماد الدين زنكى بن اقسنقر ، ثم دور ابنه نور الدين محمود الذى سقى هذه البذرة فنبتت واخضر عودها واستقام فى عهده ، حتى اذا تولى صلاح الدين الأيوبى القيادة ازهرت وأعطت ثمارها بفضل عبقريته السياسية والعسكرية وشخصيته الفذة وعقليته المدبرة . لأن مما لاشك فيه أن صلاح الدين الأيوبى أوقف حياته ، وكرس مواهبه وعبقريته العسكرية والسياسية لخدمة أهداف الأمة الاسلامية التى كانت تتطلع اليها ، وتنتظر الظروف الطيبة التى تقدم لهذه الأمة هذا القائد الفذ والزعيم الملهم ، الذى كانت صفاته وسجاياه الشخصية رائعة بدرجة جعلت منه زعيما مثاليا للأمة الاسلامية .

ذلك لأن صلاح الدين الأيوبى كان تجسيدا لأمانى المسلمين وآمالهم ، كما كان رمزا حيا للأخلاق الاسلامية ، ونبراسا يحتذى به أمراء المسلمين وحكامهم فى قوة عزيمته وصلابة عزمه على الجهاد ، واستخلاص بلاد المسلمين من ايدى الفرنجة . وقد ساعده على ذلك تحرره من الوهم ، واحساس داخلى بانه يمتلك القدرة دائما على استمراره فى الجهاد ، وتحمله كل المصاعب والمشاق حتى يعيد للأمة الاسلامية ما فقدته من مجد وكرامة بعدما سلبت منها بعض اراضيها وخاصة بيت المقدس .

ففى سبيل تحقيق الوحدة السياسية والمعنوية برهن صلاح الدين على ان التصميم الأخلاقى ، ووحدة الهدف ووضوح رؤيته يكونان القوة التى يمكن بها التغلب على جميع الصعوبات ، وتخطى كل العقبات(١) . بالاضافة

(١) سير هاميلتون جب : صلاح الدين ، بيروت ١٩٧٣ ، ص ١١٨ (بتصرف) .

الى ذلك تكييفه للمواد الموجودة تحت يده وحسن استخدامها بطريقة ممتازة تزيد من قدرته للتغلب على الصعوبات التى أوجدتها الظـروف السياسـية لعصره(١) ، وبذلك أوجدت هذه الظروف وحدة معنوية قوية بين شعوب الأمة الاسلامية ، فساعدته على الوقوف فى وجه التحدى أيا كان مصدره .

والى جانب ذلك فقد امتلك صلاح الدين الأيوبى عناصر (صفات) اخرى غذت دائما هذين العنصرين ، فمن أهم هذه العناصر استقامته مـع التقنينات الشرعية كما ينبغى أن تكون عليه سلوكيات الفرد المؤمن الذى يتحلى بالايمان والشجاعة وحسن السياسة والصبر والحلم والعفة والمروءة . مما جعل اعماله تجىء على مستوى اخلاقى ارفع وأميز من أعمال سابقيه ومن جاءوا بعـده .

ومن ناحية اخرى فقد كان دور صلاح الدين الأيوبى استجابة للرأى العـام فى المجتمع الاسلامى ، حيث كان يبحث عن زعيم يتوفر فيه صفات البطولة وعزم القيادة ، وتنسجم شخصيته وأعماله مع الظروف والمنهج المتبع فى العصور الوسطى (عصور الايمان) ليتولى قيادة الأمة الاسلامية فى حركة الجهاد ضد الصليبيين ، لاسيما بعد أن اكتشف المسلمون مدى فداحـة الخطر الصليبى ، وتواجد هؤلاء الصليبيين بينهم وفى بلادهم ، والذين كان همهم الأول ، وهدفهم الأسمى هو القضاء على الأمة الاسلامية ، وبالتالى على دين الاسـلام .

وقد اشتملت هذه الدراسة على عشرة فصول ، عنى كل فصل منها بجـانب أو اكثر من جوانب الموضـوع . حيث تعرضت فى **الفصـل الأول**

---

(١) يحضرنى فى هذا المقـام ما قامت به القيـادة المصرية فى حرب رمضان/اكتوبر ١٩٧٣ واستخدام ما عندها من عتاد وأسلحة احسن استخدام ، وكان هذا العتاد قليل جدا بالنسبة لمـا عند العدو الصهيونى ، وقد ادى ذلك الى انتصار مصر فى هذه الحرب ، انتصارا مكنها من الدخول فى المفاوضات وهى على جانب من القوة لمواجهة الصلف والكبرياء الاسرائيلى .

الى أحوال الشرق الأدنى السياسية قبل مجىء الحملات الصليبية اليه ، فقد ظهر على مسرح الاحداث التاريخية فى هذه المنطقة ثلاث قوى رئيسية متصارعة ومتناحرة هى الخلافة العباسية السنية فى بغداد ، والخلافة الفاطمية الشيعية فى مصر ، وفى محيط هاتين القوتين تم ظهور دويلات اسلامية كان لها اثرها المباشر فى اضعافهما ، ومن أهمها ظهور الاتراك السلاجقة ، والآراء التى قيلت عن أصولهم ، والدور الذى قاموا به فى تقوية الخلافة العباسية حتى بدت وكانها دولة قوية من جديد ، خصوصا بعد القضاء على البويهيين ، وقد ترتب على ذلك اعلان السلاجقة لموقفهم العدائى بصراحة ضد الخلافة الفاطمية ، مما دفع الخليفة العباسى على تشجيعهم واقرارهم على ما فتحوه من بلدان ومدن ، ثم اعترف بدولتهم السلجوقية تحت راية الخلافة العباسية . هذا بالاضافة الى وجود طائفة الاسماعيلية الباطنية (الحشاشين) التى كانت معول هدم فى كيان الخلافتين الاسلاميتين حيث استخدم الصليبيون هذه الطائفة أسوأ استخدام ضد القوى الاسلامية بصفة عامة ، وضد صلاح الدين الأيوبى بعد ذلك بصفة خاصة .

والحقيقة أن ظهور الأتراك السلاجقة فى تلك الفترة على مسرح الأحداث التاريخية فى منطقة الشرق الأدنى كان من حسن حظ العالم الاسلامى ، لأنها كانت اسبق فى الظهور من القوى الصليبية القادمة من الغرب الأوربى ، مما يجعل الصدام الحربى بين الجانبين أمرا محتما ، كما كان الصدام بينهم (السلاجقة) وبين الامبراطورية البيزنطية قائما يشهد بذلك ما انزلوه من هزيمة منكرة بالبيزنطيين عند ملاذكرد (مانزيكرت) سنة ١٠٧١ م ، وما ترتب على هذه الموقعة من نتائج .

وعندما ضعفت دولة الأتراك السلاجقة قامت على اكتافها دولة الأتابكة وقد أشرت الى أهم الأتابكيات التى كان لها دور بارز فى سياسة وتاريخ هذه المنطقة فى فترة العصور الوسطى ، مثل أتابكية الموصل ودمشق وغيرهما .

ثم تعرضت بالدراسة الى الحالة التى كانت عليها الخلافة الفاطمية فى مصر ، وما انتهى اليه أمرها نتيجة للانقسامات المذهبية بينها وبين الخلافة العباسية فى بغداد .

وفى هذا الفصل كذلك تناولت الدراسة الامبراطورية البيزنطية باعتبارها القوى المسيحية فى الشرق ، والدور الذى لعبته فى تاريخ منطقة الشرق الأدنى فى العصور الوسطى ، وخصوصا العلاقات بينها وبين المسلمين من جانب ، ثم بينها وبين المسيحيين الاوربيين (الصليبيين) من جانب آخر ، مع ذكر الأسباب والعوامل التى أحاطت بعلاقات كل مجموعة من هذه القوى الثلاث .

أما فى القسم الثالث من هذا الفصل (الأول) فقد عالجت الدراسة موضوع الحملات الصليبية وأسبابها والدوافع اليها بايجاز ، نظرا لما يتناوله الكتاب من الحملات الصليبية المتعلقة بموضوع الدراسة بين فصوله .

وفى **الفصل الثانى** انتقلت الدراسة الى مصر والصراع عليها بين نور الدين محمود والصليبيين ، وبينت فى هذا الفصل جهاد نور الدين محمود ضد الصليبيين استمرارا لخطة والده عماد الدين زنكى ، والحملات النورية الثلاث التى أرسلها بقيادة أسد الدين شيركوه ، الذى صحب معه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبى ، وكان الهدف من حملات نور الدين على مصر ضمها الى جبهة الموصل وحلب ودمشق حتى يكتمل له استكمال تكوين الجبهة الاسلامية التى غرس بذرتها والده ، والتى رعاها بنفسه حتى اخضرت واستقام عودها ، ليتمكن من مواصلة جهاده ضد الصليبيين وطردهم من الأراضى الاسلامية واستخلاص القدس الشريف من أيديهم .

وفى **الفصل الثالث** انصبت الدراسة على بطل هذه الحقبة التاريخية وهو صلاح الدين الأيوبى من حيث نشأته ، ثم الظروف السياسية فى مصر والتى دفعت به الى أن يكون وزيرا فى الخلافة الفاطمية ، ونهاية هذه

الخلافة ، ونشاة الدولة الأيوبية ، وما تلا ذلك من غزو بلاد النوبة وفتح بلاد اليمن والأسباب التى دعت الى عملية هذه الفتوحات ، ثم العقبات التى واجهت صلاح الدين فى مصر واسبابها ، وتغلبه عليها ٠ وما كاد صلاح الدين الأيوبى يقضى على هذه العقبات حتى نشا بينه وبين نور الدين محمود خلاف عرف فى المصادر التاريخية باسم (الوحشة) ولولا أن القدر عجل بموت نور الدين محمود فى هذه الفترة الحرجة فربما تغير مجرى الأحداث التاريخية فى مصر بالنسبة للقائد البطل صلاح الدين ٠

اما الفصل الرابع فقد اشتمل على موقف صلاح الدين من استكمال تكوين الجبهة الاسلامية ، والضرورات التى الجاته الى الاستيلاء على ممتلكات البيت النورى ، فضم اليه دمشق وحماه وحارم وذلك بعد ان قام بعديد من الاصلاحات الداخلية فى مصر ، حتى تكون الجبهة الداخلية التى يستند عليها قوية صلبة ، فانشأ مؤسسات عسكرية ، ومدارس سنية ، ومستشفيات استعدادا للمواجهة الكبرى ضد الصليبيين ٠

وفى الفصل الخامس تعرضت الدراسة الى جهاد صلاح الدين الأيوبى ضد الصليبيين ، وكان لزاما التعرض للحالة التى كانت عليها الامارات الصليبية بعد ان تمكن صلاح الدين من تسوية مشكلة الحكم مع خلفاء نور الدين محمود وورثته ٠ وكانت النتيجة الطبيعية لشعور صلاح الدين بقوته بعد استكمال استعداداته ان جرّ الصليبيين للدخول فى موقعة حطين ، وتم له فتح طبرية وانزال اسوأ واقسى هزيمة بالصليبيين ثم استولى بعد ذلك على مدن الساحل واسترد بيت المقدس ، وتم له النصر بعقد الصلح مع الصليبيين وشروط تسليم القدس الشريف ٠

امـا الفصل السادس فقد تناول دراسة رد الفعل فى الغرب الأوربى ، ومجىء الحملة الصليبية الثالثة وما نتج عنها حيث سقطت عكا فى ايدى الصليبيين (٥٨٨هـ/١١٩٢م) وعقد الصلح بين الفريقين ، وقد اشارت الدراسة فى هذا الفصل الى الموقف المؤسف الذى وقفه خليفة المغرب المنصور ابو يوسف يعقوب حيث رفض ان يمد يد العون والمساعدة للقائد صلاح الدين

الأيوبى عندما استنجد به ، مما الجأ صلاح الدين الى تدبير استحكامات المدن الساحلية حتى لا تقع فى أيدى الصليبيين . وقد وقفت الدراسة فى هذا الفصل عند صلح الرملة (سبتمبر ١١٩٢) والشروط التى تمت بمقتضاه .

وكان الفصل السابع خاصا بالحالة التى أصبح الأيوبيون عليها بعد وفاة صلاح الدين ، والصراع الذى استشرى فى البيت الأيوبى بين العادل وأبناء صلاح الدين واستمرار هذا الصراع الى أن يتمكن العادل من توحيد البيت الأيوبى ويستولى على السلطة فى مصر والشام . ولم تغفل الدراسة فى هذا الفصل جهاد الملك العادل ضد الصليبيين .

ذلك الجهاد الذى تميز بالسلبية والضعف أيام كثرة الاغارات الصليبية ، لأن الصليبيين كانوا قد انتهزوا فرصة الهدنة التى أمدها العزيز عثمان ، وأعادوا ترتيب صفوفهم ، وتدفق الصليبيون من الغرب الأوربى الى المدن الصليبية على الساحل ، وكان من حسن حظ الملك العادل أن الحملة الصليبية الرابعة قد توجهت الى القسطنطينية وكونت دولة لاتينية بها بعد أن سقطت عاصمة الامبراطورية البيزنطية . وقد نتج عن سقوط الدولة البيزنطية أن دورها فى حراسة أوربا من البوابة الشرقية قد انتهى ، كما اجتذبت الدولة اللاتينية كثيرا من العناصر الصليبية فى الشام فرحلوا اليها والى بلاد اليونان ، مما دفع ملك بيت المقدس الصليبى الى طلب تجديد الهدنة من الملك العادل ١٢١٠م .

ومع سياسة الملاينة التى لجأ العادل اليها ، فقد دأب الصليبيون على مواصلة غاراتهم على بعض المدن الاسلامية مما اضطره فى نهاية الأمر الى الخروج بعساكره حيث هاجم حصن الأكراد وأنزل هزيمة شديدة بالاسبتارية ، كما هاجم طرابلس وأصاب من بها من الصليبيين بأضرار شديدة ، وأجبرهم على الصلح ، وقد شغلت هذه الدراسة الفصل الثامن كله .

أما الفصل التاسع فقد تناول الحملة الصليبية الخامسة ، والأسباب التى أدت الى مجيئها الى مصر ، وما أنزلته هذه الحملة من ضربات موجعة

بالمسلمين حتى استسلمت دمياط بعد صمود بطولى من أهلها ، وبعد حصار دام حوالى ١٧ شهرا . ومع ذلك فقد تمكن المصريون من استعادة المدينة من ايدى الصليبيين بعد ان اصيبوا بهزائم متلاحقة فى البر والبحر ، واضطروا ان يطلبوا الصلح وتم عقد الهدنة بين الجانبين لمدة ثمانى سنوات .

كان رد الفعل فى المجتمعات الصليبية فى المشرق الاسلامى والغرب الاوربى كبيرا نتيجة لهذه الهزيمة المرة التى أصابت الحملة الخامسة ، ففكروا فى مجىء حملة جديدة ، منتهزين فرصة الخلاف الذى استجد بين امراء البيت الأيوبى بعد الانتهاء من الحملة الخامسة . وانتهز فردريك الثانى هذه الظروف واراد ان يسترضى البابوية عليه ، فقرر الخروج بحملة الى الأراضى المقدسة فى الشام ، واستغل فردريك ما بينه وبين الملك الكامل محمد من صداقة ، واخذت الرسل والمكاتبات تصل بين الرجلين الى ان نجح فردريك فى اقناع الملك الكامل بالتنازل له عن بيت المقدس وبعض المدن الساحلية ، وعقد هدنة بين الجانبين لمدة عشر سنين وستة شهور ، مما اثار المسلمين على الملك الكامل .

وعلى الرغم من سياسة اللين والمسالمة التى اتبعها الملك الكامل مع فردريك الا انه نجح فى رأب الصدع الذى أصاب الدولة الأيوبية فاستولى على دمشق وتوفى بها بعد ذلك .

وفى الفصل العاشر والأخير تناولت الدراسة ما اصاب الدولة الأيوبية من ضعف وتم[illegible] بابه ، وللدوافع التى دفعت الملك الناصر داود الى الاستيلاء على بيت المقدس واسترداده من أيدى الصليبيين سنة ١٢٤٠م ، واستيلاء الصالح ايوب على الحكم فى مصر ، واهم اعماله بها ، والنزاع الذى دب بينه وبين الملك الصالح اسماعيل - صاحب دمشق - الذى طلب المساعدة من الصليبيين ضده وضد الملك الناصر داود فى الأردن ، واعطاهم وعدا باعطائهم بيت المقدس واعادة المملكة الصليبية الى ما كانت عليه ، وكان رد الصالح ايوب على هذه الخيانة أن هاجم الصليبيين ومن تحالف

معهم من أمراء البيت الأيوبى وهزمهم عند غزة هزيمة مرة ، مما أعانه بعد ذلك الى توحيد الدولة الأيوبية مرة أخرى ٠

كانت هزيمة الصليبيين عند غزة السبب المباشر لمجىء الحملة السابعة الى مصر بقيادة الملك لويس التاسع ملك فرنسا ، وتمكنت من احتلال دمياط والبقاء فيها حوالى ستة شهور ، دار خلالها معارك ضارية بين الصليبيين والمسلمين عند المنصورة أصيب المسلمون فيها بخسائر جسيمة ، ولكن مع ذلك أمكن لهم انزال هزيمة اشد وانكى بالصليبيين ، وأسروا لويس التاسع نفسه ومعه كبار قواده ورجال حاشيته ، مما أجبرهم على طلب الصلح وقبولهم دفع فدية مالية كبيرة لاطلاق سراح الملك لويس التاسع ، وقد انتهت الدراسة بمقتل توران شاه بن الصالح أيوب ، وتولى شجر الدر سلطة مصر وفشل الحملة الصليبية السابعة التى ظل الغرب الاوربى يعد لها ثلاث سنوات على أمل اخضاع مصر وانزال الهزيمة بها حتى يتمكنوا من استعادة بيت المقدس ، ولكن لم ينجح تخطيطهم ، وانتهى بالفشل الذريع هدفهم ، وخاب قصدهم ٠ وهكذا تظل مصر على مر العصور مقبرة للغزاة ٠

وفى ختام هذه المقدمة أرجو أن يكون هذا الكتاب بصيصا من ضوء ينير الطريق للوصول الى أمل منشود وهو وحدة الأمة الاسلامية أو توحدها فى مواجهة التطورات السياسية الجبارة والسريعة فى عصرنا هذا ، كما ارجو أن يكون الله قد وفقنى فيما هدفت اليه فهو ولينا فى الدنيا والآخرة وهو حسبنا ونعم الوكيل ،،،

مدينة المهندسين/العجوزة
٢٥ ديسمبر ١٩٨٩

المؤلف
دكتور / احمد الشامى

الفصل الأول

احوال الشرق الأدنى السياسية
قبل الحملات الصليبية

تعرضت منطقة الشرق الأدنى خلال القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) الى عدة ظواهر سياسية كان لها اثر كبير فى تاريخها ، فقد تحكمت فى تاريخ هذه المنطقة وأثرت فى العلاقات بين بلدانها ثلاث قوى رئيسية هى :

اولا - القوى الاسلامية :

وتتمثل فى الخلافة العباسية فى بغداد ، وظهور دويلات اسلامية قوية فى المشرق مثل الدولة السامانية ، والدولة الغزنوية ، والدولة البويهية ، وظهور الأتراك السلاجقة الذين لعبوا دورا بارزا فى تاريخ هذه المنطقة وتاريخ العلاقات بين دولها وبين الامبراطورية البيزنطية من جانب ، وبين الغرب المسيحى من جانب آخر . وفى أعقاب الأتراك السلاجقة تظهر دولة الأتابكة على مسرح الأحداث التاريخية والسياسية فى هذه المنطقة ، ومن خلال دولة الأتابكة يظهر صلاح الدين الأيوبى على المسرح التاريخى ، حيث تصل العلاقات بين المسلمين والصليبيين الى نقطة حاسمة هى استرجاع المسلمين لبيت المقدس من أيدى الصليبيين ، فتكون بداية النهاية لهذه العلاقات التى ستنتهى تماما فى أواخر عصر دولة المماليك فى مصر .

بالاضافة الى ذلك كانت هناك خلافة فاطمية شيعية فى مصر ، يمتد ملكها الى أجزاء من مدن الشام ، وقد أدى اختلاف المذاهب الدينية بين الخلافتين العباسية والفاطمية الى وجود بعض الجماعات المتطرفة ، مثل طائفة الاسماعيلية الباطنية ، التى لعبت دورا يكاد يكون مستترا وخطيرا فى تاريخ العلاقات بين المسلمين والصليبيين فى تلك الفترة ، وبالتالى أدى الى

انحدار فى العلاقات بين الدول الاسلامية ، وكان عاملا من عوامل الضعف والاضمحلال الذى أصابها .

ثانيا — القوى المسيحية فى الشرق :

ونعنى بها الامبراطورية البيزنطية والصراع المستمر بينها وبين القوى الاسلامية للحفاظ على نفوذها ، وتوكيد سلطانها على المناطق التى كانت بأيدى المسلمين ، والتى كانت تحيط بحدود الامبراطورية أو بممتلكاتها ، سواء من جانب الخلافة العباسية فى أعالى ما بين النهرين (الجزيرة) ، أو من جانب الخلافة الفاطمية فى مصر وممتلكاتها فى الشام .

ثالثا — القوى المسيحية فى الغرب الأوربى :

وهذه قد اندفعت الى الشرق الاسلامى بحملاتها الصليبية لأسباب ودوافع متعددة ، ونجحت فى الاستقرار فى هذه المنطقة ، وكونت لنفسها أربع امارات هى الرها وانطاكية وطرابلس وبيت المقدس . وقد أدى وجود القوى الصليبية هذه الى ازدياد حدة الصراع ، وتذبذب العلاقات وتشابكها من جوانب متعددة ، مما كان له أثره البارز فى تاريخ العلاقات بين المسلمين وبين المسيحيين شرقيين وغربيين .

فاذا ما تناولنا الظاهرة الأولى وهى القوى الاسلامية بالدراسة نجد ان الخلافة العباسية كانت فى مرحلة من الضعف ظاهرة ، وأصبح الخلفاء العباسيون ألعوبة فى أيدى الأمراء من البويهيين ومن الأتراك السلاجقة ، وكثرت الثورات وتعددت فى مناطق مختلفة فى الدولة ، وانتشرت حركات مذهبية متباينة فى اتجاهاتها الدينية بسبب جذورها الفارسية أو للاختلاف السياسى فيما بينها ، مما سبب القلق والاضطراب ، وأصبح من أهم أسباب ضعف الدولة الاسلامية ، ونتج عن ذلك ظهور وحدات سياسية مستقلة على حساب وحدة الدولة وتماسكها ، ففى المشرق ظهرت الدولة الطاهرية فى

خراسان(١) ، ثم الدولة الصفارية(٢) ، والدولة السامانية(٣) ، والدولة الغزنوية(٤) ، وفى المغرب ظهرت دولة الادارسة ، ثم دولة الاغالبة فى تونس(٥) ، كما استقلت مصر عن الخلافة العباسية فى عهد الطولونيين(٦) ، ووقع الخلفاء العباسيون تحت سيطرة الأتراك الذين كان لهم النفوذ الفعلى فى الدولة بفعل هيمنتهم على قيادة الجيش ، وادارة الدولة ، واحاطتهم بالخلفاء .

وزاد امور الدولة سوءا أن تدخلت بعض النساء التركيات فى تصريف شئونها ، مثل أم الخليفة المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠هـ / ٩٠٧ - ٩٣٢م) التى سميت بالسيدة لسطوتها وسيطرتها على شئون الحكم ، لدرجة أن عينت قهرمانتها - وصيفتها - (ثومال) صاحبة للمظالم ، فكانت تجلس فى الرصافة ، وتنظر فى رقاع الناس كل جمعة ، وتحضر الأعيان والقضاة فى مجلسها ، وتوقع هى على المظالم ، فاستهتر العامة من الشعب بالخلافة ، ونظروا الى تلك الأحكام نظرة احتقار وازدراء ، وقد سجل لنا ابن طباطبا(٧) ذلك فى قوله : « واعلم أن دولة المقتدر كانت دولة ذات تخليط كثير لصغر سنه ، ولاستيلاء نسائه عليه ، فكانت دولته تدور أمورها على

---

(١) نسبة الى مؤسسها طاهر بن الحسين ، وكانت بدايتها سنة ٢٠٥هـ/٨٢٠م وبقيت الى سنة ٢٥٩هـ/٨٧٣م .

(٢) أسسها يعقوب بن الليث الصفار ، وخلفت الدولة الطاهرية سنة ٢٥٩هـ/٨٧٣م وظلت حتى سنة ٢٩٠هـ/٩٠٢م .

(٣) نسبة الى سامان ، وهو نبيل فارسى انحدر من بهرام جوبين ، وبقيت من سنة ٢٦١هـ/٨٧٤م الى ٣٨٩هـ/٩٩٩م .

(٤) اسسها محمود الغزنوى ، وقد استمرت هذه الدولة من سنة ٣٦٦هـ/٩٧٦م الى سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م .

(٥) ينسبون الى الأغلب بن سالم بن عقال ، راجع دائرة المعارف ، جـ ٣ ص ٧٩٣ .

(٦) نسبة الى أحمد بن طولون (٢٥٤-٢٩٢هـ/٨٦٨-٩٠٥م) .

(٧) الفخرى ، ص ٢٤٠ .

تبير النساء ، فخربت الدنيا أيامه ، وخلت بيوت الأموال ، واختلفت الكلمة ، ثم اعيد ، ثم قتل » .

وكان لظهور البويهيين اثره فى اضعاف الخلافة العباسية ، فقد استاثروا بالنفوذ والسلطة دون الخليفة العباسى ، منذ أن تولى عماد الدولة على بن بويه الحكم فى بغداد سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م(١) ، وظلوا يسيطرون على مقدرات الدولة ، ويتصرفون فى شئونها ، فامير الأمراء فى العصر البويهيى كان يتحمل كل المسئولية ، والخليفة لم يكن مسئولا قط عن الخزانة ، ولا عن الادارة المالية ، ولا عن الجند ، ولا عن السياسة ، وانما هو الذى يعطى كل تصرفات البويهيين صفتها الشرعية ، حتى ظهروا وكأنهم أوصياء على الخلفاء العباسيين ، واضحى الخليفة رمزا لا يتولى من حقيقة السلطان شيئا قابلا لأن ينازعه أحد عليه .

ومن الدلائل على عجز الخليفة العباسى ، وعدم قدرته على الحفاظ على وحدة الدولة الاسلامية أن أهل البصرة ثاروا ، وأخرجوا منها نواب بهاء الدولة البويهى ، وكان للأتراك دور كبير فى تحريك هذه الفتنة واشعال الثورة ، وتمكن الأتراك بزعامة قائدهم يشكرستان أن يستقلوا بالبصرة ، وأن يقتلوا من أهلها الكثير ، وأن يسلبوهم كثيرا من أموالهم . وعلى الرغم من محاولة بهاء الدولة البويهى اخماد هذه الفتنة ، الا أن الدلائل تشير الى ضعف الدولة العباسية ، وقصور قوتها العسكرية عن حفظ وحدتها ، وعجزها عن استتباب الأمن فيها(٢) .

كذلك ثار أهل الموصل وتمكن المقلد العقيلى(٣) من استمالة البويهيين (الديلم) ، وكاتب بهاء الدولة على أن يضمن له البلد بالفى دينار ، ورغم

(١) ابن خلدون : تاريخ ، جـ ٣ ص ٣٩٥-٣٩٦ .
(٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ص ١٢٦ وما بعدها .
(٣) كان فاطميا شيعيا ، أظهر الدولة العلوية بالكوفة والموصل والأنبار ، راجع ابن خلدون ، تاريخ ، جـ ٣ ص ٤٤٢ .

ذلك فان رجال المقلد العقيلى أغاروا على بغداد ، وطلب بهاء الدولة الصلح مع المقلد العقيلى بشرط أن يدفع له عشرة آلاف دينار ، وقبل العقيلى ذلك فى مقابل أن يُقطع الموصل والكوفة ، وأن يُخلع عليه ، ويلقب بحسام الدولة ، وبعد أن تم الصلح لم يف بشىء من ذلك .

كما شهدت بغداد عاصمة الخلافة ألوانا من الفتن بين أهل السنة والشيعة الذين قويت شوكتهم وناصروا الفاطميين ، ففى عام (٣٩١هـ/١٠٠٠م) ثار الأتراك على أبى نصر سابور نائب السلطان فهرب منهم ، ووقعت الفتنة بين الأتراك والعامة من أهل الكرخ ، فساعد السنيون اخوانهم الأتراك على أهل الكرخ فقتلوا منهم خلقا كثيرا(١) . ثم تجددت هذه الفتن سنة (٤٢٢هـ/١٠٣٠م) فى عهد القائم بأمر الله ، وانتهت بقتل جموع من أهل الكرخ ، وخربت أسواق العروس والصفارين والنماط والدقاقين وأحرقت(٢) .

ولم تكن هذه الفتن وهذه الثورات تحدث فيما بين السنة والشيعة فقط ، بل حدثت كذلك فيما بين الشيعة وأنفسهم ، وعانت بغداد الكثير من جراء هذه الصراعات ، فبعد موت بهاء الدولة السويهى خلفه سلطان الدولة شجاع فاسند ولاية البصرة الى أخيه جلال الدولة أبى طاهر ، ويبدو أن بنى بويه لم يستريحوا الى شخصية سلطان الدولة ، فاوقعوا بين الاخوة ، وزادت حدة الصراع عندما دخل الأخ الثالث قوام الدولة أبو الفوارس فى دائرة هذا الصراع(٣) . وكان من نتيجته أن ضعفت دولة بنى بويه ، وتمزقت أوصال الجيش الاسلامى ، وانشغل الجنود بالحروب الداخلية التى هدت كيان الدولة ، ونخرت عظام الجيش ، وأصابت الجنود باليأس والضعف ، لدرجة أن أطفال بنى بويه تولوا عرش السلطنة فى بغداد .

وبلغت درجة الضعف التى وصل اليها الخلفاء العباسيون فى هذه الفترة

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ص ١٦٨ .
(٢) ابن الأثير : نفسه ، ص ٤١٨-٤١٩ .
(٣) ابن خلدون : تاريخ ، جـ ٣ ص ٤٤٣ .

ان الخليفة القـــادر بالله حلف لوزيره بهـــاء الدولة البويهى على الوفاء الاخلاص ، وأشهد على نفسه انه قلده ما وراء بابه(١) ، اى فوضه فى الحكم . كل ذلك مقابل ان بهاء الدولة حلف للخليفة الذى ولاه الوزارة على الطاعة ، والقيام بشروط البيعة ، وهذا أمر يتحتم عى كل وزير أو أمير فى الدولة أن يعمل بهما ، كما تنص على ذلك التشريعات الفقهية ، والنظم الاسلامية ، ومن ثم ازداد نفوذ بهاء الدولة ، فاستبد بالسلطة ، واستشعر الناس نفوذه وسطوته ، لأنه هو الذى أجلس الخليفة فى دست الخلافة ، ولذلك حلف الخليفة له على الولاء والاخلاص .

ولم يكتف سلاطين بنى بويه بمثل هذه السيطرة واتساع نفوذهم الى هذا الحد ، بل تمادوا فى اساءتهم للخلفاء ، فقد كانوا يحددون للخليفـة راتبا يسلم له يوميا يسمى (مياومة) كما لو كان عاملا أو أجيرا ، ومـع كل ذلك فلم يسلم الخليفة فى بعض الأحيان من مصادرة ممتلكاته ، وكانت تسلب داره ، ويؤخذ ما فيها من نفائس(٢) . وهذا يفسر لنا الى أى حـد وصل ضعف الخلفاء العباسيين ، والى أى مدى وصلت سيطرة بنى بويه عليهم وتحكمهم فى أمورهم وأمور الدولة معا ، ويعبر ابن خلدون(٣) عن استبداد بنى بويه بالسلطة والنفوذ فى عهد العباسيين فيقول : « ولم يزل نطاق الدولة العباسية يتضايق شيئا فشيئا وأهل الدولة يستبدون واحدا بعـد واحد الى أن أحاطوا ببغـداد ، وصـاروا ولاة متعددين ، وكان من اقرب المستبدين الى مقر الخلافة بنو بويه بأصبهان وفارس والموصل والجزيرة ، ولم يبق للخلفاء الا بغداد ونواحيها ما بين دجلة والفرات » .

والحقيقة ان آراء المؤرخين تختلف فى تبيان العلاقة ما بين بنى بويه ، وبين الخلفاء العباسيين ، فأكثر المؤرخين يميلون الى القول بان البويهيين

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حـ ٩ ص ٨١ .
(٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٨ ص ١٦١ .
(٣) تاريخ ، حـ ٣ ص ٤١٩ وما بعدها .

أذلوا الخلفاء بسبب اختلاف المذهب الدينى ، فالعباسيون سنيون ، بينما البويهيون شيعة علويون . وانهم سلبوهم سلطانهم وجعلوا منهم ألعوبة فى ايديهم ، يجلسونهم على عرش الخلافة متى شاءوا ، ويعزلونهم متى أرادوا . ففى عام ٣٨١هـ/٩٩١م قبض بهاء الدولة البويهى على الخليفة العباسى الطائع لله وخلعه من الخلافة ، وبايع للقادر بالله ، وسلمه الخليفة المعزول (الطائع) ، فانزله القادر بالله حجرة خاصة ، ووكل به بعض خدمه ممن يثق فيهم ليقوموا على خدمته ، وأحسن ضيافته(١) . وهكذا لم يترك بنو بويه للخلفاء العباسيين سوى ذكر أسمائهم فى الخطبة ، ونقش أسمائهم على السكة كرمز للخلافة .

ويحاول نفر من المؤرخين تبرئة البويهيين والتماس الأعذار لهم ، باعتبار أنهم ورثوا ذلك الوضع الذى كانت عليه الخلافة العباسية ممن سبقوهم ، ولم يكن لهم يد فيما وصلت اليه أمور الخلافة فى بغداد(٢) ، وكل الذى زاد عليهم هو لقب شاهنشاه أو (ملك) الذى اضفوه على أنفسهم ، ويبدو أن جلال الدولة البويهى أراد أن يحصل على فتوى تجيز للبويهيين أن يتلقبوا بهذا اللقب (شاهنشاه = ملك الملوك) وطلب ذلك من الفقيه الشافعى الماوردى – صاحب كتاب الأحكام السلطانية – فرفض اصدار مثل هذه الفتوى ، وأفتى ضد هذا اللقب ، ولكن جلال الدولة حصل على الفتوى من فقهاء آخرين(٣) .

ويستند أصحاب هذا الرأى الى ان الخليفة العباسى الراضى قد الجاته الضرورة الى انشاء منصب أمير الأمراء عندما ارتبكت أحوال الخلافة فى عهده ، وكتب الى أبى محمد بن رائق وهو بواسط بموافقته على ما تقدم

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ص ٩٢ ، ٩٤ .
(٢) حسن محمود : العالم الاسلامى ، ص ٥١٨–٥٢١ .
(٣) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ص ٤٥٩ .

به اليه من دفع النفقات وأرزاق الجند ببغداد(١) ، ومن الطبيعى كانت فرصة لابن رائق أن يسيطر على أمور الدولة ، فتوجه الى الخليفة الراضى فى احتفال كبير ، ورحب الخليفة به ، وقلده امارة الجيش ، وجعله أمير الأمراء ، فأخذ ابن رائق يصرف شئون الدولة كلها هو وكاتبه ، وتوقف عمل الوزارة ، وبطلت الدواوين ، وصارت الأموال تحمل الى خزائنهم فيتصرفون فيها كما يريدون ، ويطلقون للخليفة ما يرون ، وبطلت بيوت المـــال .

والحقيقة التى نراها أن البويهيين أمسكوا بالعصا من منتصفها ـ كما يقول المثل ـ فهم انتزعوا كل سلطات الخليفة ، وتسلطوا على شئون الدولة ، ولكنهم تظاهروا باحترامه أمام عامة المسلمين وقد مكنتهم سياستهم هـذه من أن يعلنوا مذهبهم الشيعى الزيدى الذى يعتنقونه ، بينما هم يعيشون فى ظلال دولة سنية المذهب ، وتم لهم ذلك على يد بهاء الدولة البويهى سنة (٣٩٨هـ/١٠٠٨م)(٢) .

ويرى أصحاب هذا الرأى أن البويهيين هم الطائفة الشيعية الوحيدة التى واءمت نفسـها لتعيش مع أهل السـنة فى سـلام ، وبدون نزاع مذهبى ، ويستدلون على ذلك برسائل الصاحب ابن عبـاد(٣) ، وبمعايشة المذهب الشيعى الزيدى ، مع المذهب السنى أصبح الخليفة العباسى خليفة لأهل السنة وأصحاب المذهب الشيعى على حد سواء .

ولكن ينبغى ألا ننسى أن البويهيين كثيرا ما كانوا يحدثون الشغب ، ويحركون الفتن ، بدليل ما تذكره المصادر التاريخية « ... فشغب الجنـد فى هذا الوقت ، وتجددت الفتن ، وغلت الأسعار ببغداد ، وتعرض القضاة

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٨ ص ١١٢ .
(٢) Arnold; The Caliphate, p. 68.
(٣) راجع الرسالة الخامسة من الباب السادس ص ٩١ ، الرسـالة السادسة ص ٩٢–٩٤ .

ورجال الدولة للسجن والاهانة والتعريض بهم ، وزالت هيبة السلطنة ، واحترقت المحال ، واستمر الفساد »(١) ، ومن الراجح أن البويهيين شغبوا نظرا لاشتداد سطوة الأتراك وزيادة نفوذهم وتسلطهم فى بغداد لدرجة أنهم ثاروا على جلال الدولة البويهى وعزلوه سنة (٤٢٦هـ/١٠٣٤م) ، وأسقطوا اسمه من الخطبة ، واستدعوا أبا كاليمار ليتولى السلطنة فى بغداد ، ولكنه رفض ، فاعادوا جلال الدولة البويهى الى منصبه(٢) ، وكان من الطبيعى ان يعمل جلال الدولة على المحافظة على مركزه فى السلطنة ، فلجأ الى عزل الوزراء البويهيين بعد فترات قصيرة كما حدث مع أبى القاسم بن ماكولا ، واعتزال ابى سعيد بن عبد الرحيم وغيرهما ٠ وتلك دلائل صريحة على تخبط سياسة البويهيين ، وعجز الخليفة العباسى عن اتخاذ موقف حازم ينهى به العنف والفوضى اللذين أشاعهما البويهيون فى بغداد ٠

واستعمل البويهيون البساسيرى(٣) على بغداد ، ليقضى على الفوضى التى انتشرت فى المدينة ، ولكنه لم يتمكن من ذلك ، بل ازدادت الفوضى وخرج الجنود سنة (٤٢٦هـ/١٠٣٤م) يعيثون فسادا فى القرى المجاورة للمدينة ، ينهبون ويحرقون ويسلبون كل ما وجدوه فى طريقهم من مال ومتاع(٤) ٠ ولم يكتف هؤلاء الجنود بذلك ، بل ساعدوا العيارين حتى استفحل أمرهم ، وأخذوا يستولون على الأموال ليلا ونهارا ، ووقفوا ضد السلطان البويهى ونوابه ، وعجز السلطان عن التصدى لهم ، كما انتشر

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ص ٩١ ٠

(٢) ابن خلدون : تاريخ ، جـ ٣ ص ٤٤٨ ٠

(٣) هو الأمير المظفر أبو الحارث أرسلان بن عبد الله ، مقدم الأتراك فى بغداد ، راجع القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٨٧ ، وكذلك ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ٥ ص ٥ ٠

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حـ ٩ ص ٤٤٠ ، ابن خلدون : نفسه ص ٤٥٨-٤٦٠ ٠

الأعراب فى البلاد فنهبوا النواحى ، وقطعوا الطرق ، وبلغوا أطراف بغداد حتى وصلوا الى جامع المنصور وسلبوا النساء ملابسهن فى المقابر(١) ٠

واصل البويهيون مسيرتهم فى شئون الدولة على هذا النمط الى أن ضعف البيت البويهى لعدم احتفاظهم بتضامنهم الذى كانوا عليه ، فنزع الى الاستقلال كل فرد منهم ممن آل اليه جزء من هذا الملك ، واعتبر أن ما بيده ملكا خاصا موروثا ، فتهدمت أركان المصلحة العامة للدولة ، وتفسخت أعمدة التضامن التى قام عليها حكم أسرة بنى بويه ٠ فبعد وفاة جلال الدولة البويهى سنة (٤٣٥هـ/١٠٤٤م) أخذ النفوذ الديلمى فى الانحسار ، فقد تولى ابنه الملك العزيز بعده ، ولكنه عجز عن دفع رواتب الجند ومال البيعة ، فسحب الجنود تاييدهم له ، واستدعوا أبا كاليجار الذى ولى سلطنة بغداد سنة (٤٣٦هـ/١٠٤٥م) ، ولكن حكمه لم يدم طويلا ، فخلفه ابنه أبو نصر ابراهيم الملقب بالملك الرحيم(٢) ، فكان آخر سلاطين البويهيين ، حيث دخل السلاجقة بغداد فى عهده سنة (٤٤٧هـ/١٠٥٥م) ٠

---

(١) ابن خلدون : تاريخ ، حـ ٣ ص ٤٦٤ ٠

(٢) يذكره البعض أبو نصر خسرو ، وفيروز - راجع عاشور : الحركة الصليبية حـ ١ ص ٨٠-٨١ ٠

ظهـــور الأتراك السلاجقة

ينتسب السلاجقة الى قبيلة (قنق) وهى احـدى القبـــائل الأربع والعشرون التى تمثل قبائل التركمان المعروفة باسم (الغـز)(١) . وينكر الدواداری(٢) عليهم هذا النسب ، ويقـول انهم من السامانية ، وترجـع أصولهم الى الفرس ملوك العجم ، ونحن نرجح القول الأول . كانوا يسكنون السهوب الممتدة من شواطىء بحر الخزر الى الصين . وقد اكتسب السلاجقة اسمهم عندما ظهر سلجوق(٣) بن دقاق(٤) فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) وعمل على توحيد هذا الفرع من الغز ، ونجح فى ذلك فانتسبوا اليه(٥) ، وسموا أنفسهم السلاجقة . ثم رحلوا من موطنهم الأصلى الى بلاد ما وراء النهر فى بداية الربع الأخير من القـرن الرابع الهجرى (حوالى ٩٨٥م)(٦) .

وفى بلاد ما وراء النهر (على حدود نهر سيحون) اعتنق السلاجقـة الاسلام(٧) على مذهب أبى حنيفة النعمان ، ويبدو أنهم تأثروا فى ذلك بجيرانهم السامانيين . وكان سلجوق شديد الغيرة على الاســلام ، فاندفع يحمى المسلمين من القبائل التركية غير المسلمة فى المناطق المجاورة له ، فذاع صيته ، وكثر أتباعه ، وازدادت قوته بشكل ظاهر ، مما لفت نظـر

---

(١) الحسينى : أخبار الدولة السلجوقية ، ص ٢-٣ .
(٢) ابن أيبك الدواداری : الدر المطلوب فى أخبار ملوك بنى أيوب ، ص ٢٠-٢١ .
(٣) سلجوق : ومعناها قائد الجيش ، وهو لقب سياسى ، توفى بجند وعمره ١٠٧ سنة .
(٤) دقاق ، تقاق : ومعناه القوس الجديد ، وأبناء سلجوق ثلاثة هم : أرسلان وميكائيل وموسى ، وأبنـاء ميكائيل ثلاثة هم : بيجو ، طغـرل محمد ، وجفرى داود .
(٥) دائرة المعارف (مادة سلجوق) ؛
Lewis; The Arabs in History, p. 147.
(٦) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٤٥ وما بعدها .
(٧) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ص ٤٧٤ .

السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوى ، فخشى على نفسه وعلى نفوذه ، فبدأ يعد العدة للتخلص من هذه القوة المنافسة له ، ولكنه توفى ، وترك لابنه السلطان مسعود القيام بهذه المهمة ، ويبدو ان السلاجقة شعروا بما تدبره لهم الدولة الغزنوية فرحلوا الى اقليم بخارى ، وظلوا تابعين للغزنويين(١) ، ولكنها كانت تبعية غامضة ، الى ان ثاروا عليهم بقيادة زعيمهم طغرلبك محمد ، الذى أنزل بجيش مسعود الغزنوى هزيمة منكرة ، ولم يلبث السلاجقة أن استولوا على نيسابور ومرو وسرخس بعد معركة (دندانقان) سنة ٤٣١هـ/١٠٣٩م(٢) ، وتقلص نفوذ الغزنويين واصبح قاصرا على افغانستان . وقد ساعد السلاجقة على هذه الانتصارات انشغال الغزنويين بفتوحاتهم الجديدة فى الهند(٣) ، الى جانب شدتهم فى الحرب .

واصل السلاجقة - بعدما قضوا على الغزنويين - توسعهم ، وتوغلوا فى ايران للقضاء على نفوذ بنى بويه (الديلم) فيها ، ونجحوا فى الاستيلاء على عدة مدن من ضمنها اصبهان ، التى اتخذها طغرلبك عاصمة له سنة (٤٤٣هـ/١٠٥١م)(٤) ، وفى خلال أربع سنوات تمكن السلاجقة من بسط نفوذهم على بلاد الفرس ، وأصبحوا على أهبة الاستعداد لدخول العراق(٥) .

تفاقم الموقف بين آخر ملوك البويهيين فى بغداد ، وهو الملقب بالملك الرحيم ، وبين السلاجقة سنة (٤٤٧هـ/١٠٨٤م) ، ولم يجد السلاجقة الا أن يقضوا على ما بقى من الوجود البويهى فى بغداد ، ونجحوا فى ذلك بعد حكم استمر خمسا وعشرين ومائة سنة للبويهيين . وبدخول السلاجقة بغداد

---

(١) ابن الاثير : نفسه ، جـ ٩ ص ٤٨٢ - ٤٨٣ ، عاشور : العلاقات ص ٣٥ .
(٢) البيهقى : تاريخ ، ص ٦٨٩-٦٩٠ .
(٣) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ص ٤٨٥ .
(٤) ابن الجوزى : المنتظم ، حـ ٨ ص ١٥١ ، الذهبى : دول الاسلام ، حـ ١ ص ٢٦١ .
(٥) أبو الفداء : المختصر ، حـ ٢ ص ١٧٦ .

بعد أن قضوا على قوة البويهيين التى كان لها وزنها وتاثيرها فى توجيه دفة الحكم والسياسة ، ليس فى العراق فحسب ، بل فى منطقة الشرق الأدنى فى تلك الفترة من العصور الوسطى ، تغير ميزان القوى تغييرا جذريا ، وبدأت مرحلة جديدة فى تاريخ العالم الاسلامى بصفة عامة ، وتاريخ الدولة العباسية بصفة خاصة ، حيث يصبح السلاجقة قوة تستند اليها الخلافة العباسية ، لأنهم يعتنقون المذهب السنى ، نفس مذهب العباسيين ، وسوف يكون لهذه القوة الجديدة تأثيرها وأثرها فى مجرى الأحداث التاريخية والسياسية فى المحيط الدولى ٠

واصل طغرلبك سيره لاخضاع ما تبقى من معاقل تابعة للبويهيين ، فاغتنم البساسيرى هذه الفرصة ودبر مؤامرة مع الخليفة الفاطمى المستنصر بالله ، واستولى على بغداد سنة (٤٥٠هـ/١٠٥٨م) ورفع الأعلام الفاطمية بهـا ، وخطب للمستنصر فى مساجد بغداد ، فاستنجد الخليفة العباسى القائم بأمر الله بالسلاجقة ضد البساسيرى ، فعادوا الى بغـداد ودخلوها سنـة (٤٥١هـ/١٠٥٩م)(١) ، وقضوا على هذه الفتنة ، وقتل البساسيرى حيث ضربت عنقه بعدما أعيد الخليفة العباسى الى بغداد(٢) بعد عام من حـكم البساسيرى لها ٠

بعد أن استقرت الأمور فى بغداد عاود طغرلبك قتال بقايا البويهيين فقضى عليهم وعلى دولتهم ، وأعلن السلاجقة طاعتهم وولاءهم الكامل للخليفة العباسى القائم بأمر الله ، وعبروا بصراحة عن موقفهم العدائى من الخلافة الفاطمية فى مصر ، فتوثقت صلاتهم بالخليفة ، وأخذ يعمل على تأييدهم ، ويقرهم على كل ما فتحوه من بلدان ، واعترف بدولتهم لأنهم كانوا سنيين مثله ، وتبادل الجانبان الصلات الودية والهدايا ، وأمر الخليفة بذكر اسـم طغرلبك بعد اسمه فى خطبة الجمعة على منابر بغداد ، ونقش اسمه على

---

(١) ابن الجوزى : المنتظم ، حـ ٨ ص ١٦٤ ٠
(٢) الفارقى : تاريخ ، ص ١٥٦-١٥٧ ٠

السكة(١) . وبذلك حل السلاجقة محل البويهيين واصبحوا كما لو كانوا أوصياء على الخلافة العباسية ، فدفعهم هذا الى أن يضموا اليهم بلاد الفرس ، والجزيرة ، وآسيا الصغرى ، ومناطق كثيرة فى الشام التى كانت تابعة للخلافة الفاطمية فى مصر . ومن ثم بدت الدولة العباسية فى عهد السلاجقة وكأنها دولة قوية موحدة الأملاك من جديد ، وسوف يكون لذلك أثره فى التغييرات السياسية والعلاقات الدولية التى حدثت نتيجة لظهور السلاجقة ودخولهم بغداد .

الدولة البيزنطية والأتراك السلاجقة

والحقيقة ان ظهور الأتراك السلاجقة ـ فى تلك الفترة ـ على مسرح الأحداث التاريخية كان فاتحة عصر جديد ، ليس فى التاريخ الاسلامى فحسب ، بل فى تاريخ العلاقات بين المسلمين والمسيحيين بوجه عام(٢) ، أو بتعبير أدق تاريخ العلاقات بين الشرق الاسلامى والغرب المسيحى ، ومن الواضح ان ظهور الأتراك السلاجقة فى تلك الفترة كان من حسن حظ العالم الاسلامى ، لأنهم كانوا أسبق فى الظهور من قوة أخرى ، سوف تظهر وتسيطر هى الأخرى على اجزاء كثيرة من بلدان هذه المنطقة ، وسوف يتصدى الأتراك السلاجقة لهذه القوى ، ونعنى بها قوى الصليبين الذين اتجهوا بحملاتهم صوب الشرق الأدنى ، ومن الراجح أنه لو قدر للصليبيين أن يتقدموا فى الظهور على السلاجقة لتغير وجه التاريخ .

واصل السلاجقة توسعاتهم خلال النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) فضموا اليهم ما تبقى من اراضى فارس ، وتوغلوا الى بلاد ما بين النهرين (٣) حتى وصلوا الى حدود الأفغان شرقا ،

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حـ ٩ ص ٦٤٠ ، الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٦٩ .

(٣) Cam. Med. — Hist. Vol. IV, p. 299.

(٢) ابن خلدون : تاريخ ، حـ ٣ ص ٤٥٢-٤٥٣ .

وحدود الامبراطورية البيزنطية والدولة الفاطمية غربا ، وقد برز من سلاطين السلاجقة الأول ثلاثة عظام هم : طغرلبك محمد ، والب أرسلان ، وملكشاه ، وهؤلاء اتبعوا فى سياستهم الخارجية اسلوب القوة القائم على الحرب ، وخاصة مع الامبراطورية البيزنطية ، التى احرزوا عليها كثيرا من الانتصارات الحربية ، ومن أهمها النصر الذى أحرزه الب ارسلان على الامبراطور البيزنطى رومانوس دايوجينس الرابع فى الموقعة الفاصلة عند ملاذكرد (مانزيكرت) سنة (٤٦٤هـ / اغسطس ١٠٧١م)(١) .

وترجع أسبابها الى ان الامبراطور رومانوس الرابع كان قد خرج سنة (٤٦٢هـ/١٠٦٩م) الى بلاد الشام فى عسكر كثيف ، ونزل على منبج ونهبها ، وقتل من أهلها خلقا كثيرا ، وتصدت له جموع العرب فى الشام فهزمهم ، وضرب على المدينة الحصار ، فطالت مدته ، وقلت الأقوات عند البيزنطيين ، فرجع الى القسطنطينية ، وحشد جنوده حتى بلغت مائتى الف جندى من الزنج والروم والروس والبجناك والكرخ والفرنج ، وغيرهم ، وخرج فى احتفال مهيب الى خلاط ، ومنها وصل الى ملاذكرد (مانزيكرت) . وكان السلطان الب ارسلان بمدينة خوى من أذربيجان بعد عودته من حلب ، فارسل أهل بيته مع وزيره نظام الملك الى همذان ، وسار على عجل فى جيش لم يزد تعداده عن خمسة عشر الف جندى(٢) ، والتقت مقدمة جيشه عند خلاط بجزء من جيش رومانوس ، وكانوا عشرة آلاف جندى من الروس ، فاصيبوا بالهزيمة ، ووقع أميرهم أسيرا ، فامر الب أرسلان بحبسه .

وصل الب ارسلان بجيشه الى مانزيكرت يدفعه حرارة وحماس النصر الذى احرزه عند خلاط ، ولكنه عندما رأى الأعداد الرهيبة فى جيش رومانوس

---

(١) Cam. Med. — Hist. Vol. IV, pp. 306-7. وتقع مانزيكرت الى الشمال من بحيرة فان Van ، وهى مدينة من أعمال خلاط .

(٢) ابن خلدون : تاريخ ، جـ ٣ ص ٤٧٠–٤٧١ .

لجا الى طلب الصلح ، فابى الامبراطور البيزنطى وأصر على القتال ، فثارت حمية ألب أرسلان ، وبث فى جنوده روح الاستماتة فى القتال وشجعهم على الصمود ، ودارت رحى الحرب بين الفريقين شديدة صارمة ، وسقطت الالوف من الروم قتلى حتى امتلات الارض بجثثهم(١) ، كما استشهد عدد كبير من المسلمين ، ووقع الامبراطور رومانس الرابع نفسه اسيرا ، فوجه ألب أرسلان اليه التانيب والتوبيخ ، ولكنه قبل الفدية الكبيرة التى افتدى الامبراطور رومانوس نفسه من الأسر بها ، بعد أن اشترط عليه اطلاق جميع أسرى المسلمين الموجودين فى بلاد الروم(٢) ٠

النتائج التى ترتبت على موقعة مانزيكرت :

تعتبر موقعة مانزيكرت نقطة تحول خطيرة فى التاريخ البيزنطى ، حيث ترتب عليها ضياع الأجزاء الشرقية من الامبراطورية البيزنطية ٠ وعدم قدرتها على الصمود أمام التوسع السلجوقى فى آسيا الصغرى ٠ ويرجع السبب فى ذلك الى أن جيش الامبراطورية البيزنطية كان فى معظمه من الجنود المرتزقة ، الذين يحاربون لمغانمهم ولمصلحتهم الشخصية بغض النظر عن مصلحة الدولة البيزنطية ٠ وليس أدل على ذلك من أن كتيبة الجنود الاتراك فى الجيش البيزنطى حينما رأوا أن القتال مع صالح الاتراك السلاجقة انحازوا اليهم بدافع عصبية الدم(٣) ، وتركوا مواقعهم فى الجيش البيزنطى مما سبب الارتباك ، وكان من عوامل الهزيمة ٠

وتعتبر موقعة مانزيكرت سنة ١٠٧١م دليلا على نهاية الدور الذى كانت تقوم به الدولة البيزنطية لحماية المسيحية من ضغط المسلمين ، وحراسة المدخل الشرقى لأوربا من غزوات الاسيويين ، وبذلك أصبح الغرب الأوربى

---

(١) ابن الاثير : الكامل ، جـ ١٠ ص ٦٥-٦٦ ٠

(٢) عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ١ ص ٨٨ ، توفيق : الدولة البيزنطية ، ص ٧٤ ٠

(٣) عاشور : العلاقات ، ص ٤٤ ،

Vasiliev; A History of the Byzantine Empire, vol. I, p. 356.

ملزما بان يقوم بدوره فى هذا المضمار ، بدلا من اعتماده حتى ذلك الوقت على الامبراطورية البيزنطية(١) ، وهكذا نجد أن السلاجقة نفخوا فى العالم الاسلامى بمنطقة الشرق الأدنى روحا جديدة مكنت الخلافة العباسية من الصمود فى وجه الروم ، بل مهاجمتهم فى عقر دارهم ، وقد عبر ابن الاثير(٢) عن ذلك بقوله : « فلما ملك السلجقية جددوا من هيبة الخلافة ما كان قد درس ، لاسيما فى وزارة نظام الملك(٣) ، فانه أعاد الناموس والهيبة الى أحسن حالاتها » ومن نتائجها كذلك تقلص ممتلكات الامبراطورية البيزنطية فى جنوب ايطاليا ، فقد وجد النورمان الذين استقروا فى المدن البيزنطية بجنوب ايطاليا منذ أواسط القرن الحادى عشر الميلادى الفرصة متاحة لهم للاستيلاء على هذه المدن ، فتحالفوا مع البابوية ، وتمكنوا بقيادة (روبرت جيسكارد) من وضع أيديهم على ممتلكات الدولة البيزنطية فى ايطاليا ، ولم تنجح محاولات جورج ماتياكس الحاكم البيزنطى فى ايطاليا فى وقف هذا التقدم النورمانى ، وكانت مدينة بارى الواقعة فى أقصى جنوب شبه الجزيرة الايطالية آخر المدن ، التى استولى النورمان عليها ، وتم لهم ذلك فى نفس الوقت الذى أصيبت فيه جيوش بيزنطة بالهزيمة المرة فى ملاذكرد سنة ١٠٧١م ٠

وبعد موت ألب أرسلان سنة (٤٦٥هـ/١٠٧٢م)(٤) ، تولى أخوه ملكشاه الحكم (٤٦٥هـ - ٤٨٥هـ / ١٠٧٢ - ١٠٩٢م) فاستغل فرصة الارتباك والفوضى اللتان غرقت فيهما الدولة البيزنطية نتيجة لهزيمتها فى موقعة

---

(١) عاشور : نفسه ص ٤٥ ٠

(٢) الباهر ، ص ٥١ ٠

(٣) هو أبو الحسن بن اسحق الطوسى ، كان سنيا متشددا ، يميل الى العدل والنصفة والاحسان الى أهل الدين ، والفقهاء ، وحفظة القرآن ، والعلماء ، مما أغضب الشيعة فقتلوه فى خريف عام ٤٨٥هـ/١٠٩٢م ، راجع ابن القلانس : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢١ ، وكذلك ابن العبرى : مختصر ، ص ١٩٢ ٠

(٤) قتل ألب ارسلان أثناء هروبه من بلاد ما وراء النهر (جيحون) ٠

مانزيكرت واللتان استمرتا حتى اعتلاء الكسيوس كومنين عرش الامبراطورية سنة ١٠٨١م(١) ، وأخذ ملكشاه يتوسع فى آسيا الصغرى دون أن يجد مقاومة تذكر ٠

ومن الطبيعى أن تغرى حالة الفوضى التى كانت عليها الدولة البيزنطية الجنود السلاجقة الى أن يعيثوا فسادا فى المدن البيزنطية ، فعبثوا بها ، ونهبوها وأحرقوا بعضها ، ودمروا البعض الآخر ، وقد بلغ من قوة الأتراك السلاجقة ونفوذهم أن استعان بهم نقفور الثالث حاكم اقليم نيقيه ضد الامبراطور ميخائيل السابع ، وتمكن السلاجقة من الاستيلاء على كثير من المدن مثل نيقيه ونيقوميديا وخلقدونيا والبسفور ، وبذلك غدا السلاجقة هم السادة الحقيقيون فى آسيا الصغرى حيث امتد ملكهم من الفرات شرقا الى بحر مرمرة غربا ٠

ولكن بعد موت السلطان ملكشاه سنة (٤٨٥هـ/١٠٩٢م) دب النزاع بين أولاده بركياروق(٢) ومحمود وسنجر ومحمد على السلطة وبدت دولة السلاجقة فى حالة من الفوضى والاضطراب السياسى والانقسام الأسرى ، وشرعت تتفتت الى وحدات سياسية صغيرة ، بسبب الصراع الذى دب بين أبنائه على السلطة ، وتكفى الاشارة الى أن الحروب التى نشبت بين بوكياروق وأخيه محمد استمرت حتى سنة (٤٩٨هـ/١١٠٤م) ٠

ومن ناحية أخرى فقد طمع عمه تتش فى أن يكون له حكم الشام كلها ، ولم يقبل أن يكون آقسنقر البرسقى حاجب ملكشاه أميرا على حلب ويقاسمه حكم الشام ، وكان السلطان ملكشاه قد منحه تلك الامارة قبل وفاته ، ولذلك أسرع تتش بالاستيلاء على بعض مدن الشام ، وانضم اليه آقسنقر نفسه ودخل فى طاعته وسلمه حلب ، وكتب الى ياغى سيان أمير انطاكية ، والى

(١) توفيق : الدولة البيزنطية ، ص ١٧٣ ٠
(٢) ابن الاثير : الكامل ، جـ ١٠ ص ٢١٤-٢١٦ ٠

بوزان صاحب الرها وحران ورغبهما فى الدخول فى طاعة تاج الدولة تتش ، لأن الصراع كان لايزال مستمرا بين ابناء ملكشاه ، ولكن تتش لم يلبث ان قتل فى الحرب التى دارت بينه وبين بركياروق(١) . وبعد أن توفى بركياروق استقرت أمور السلطنة لأخيه محمد بن ملكشاه(٢) . ولكن الضعف أخذ يدب فى أوصال الدولة السلجوقية ، فانقسمت بعـــد وفاته الى خمس دويلات صغيرة هى : سلطنة فارس (اصبهان) وكانت لبركياروق اكبر ابناء ملكشاه ، وسلطنة خراسان وما وراء النهر ، وكانت لأبى الحارث سنجر ، ومملكة حلب ، وكانت لرضوان بن تتش ، وسلطنة دمشق ، وكانت لشمس الملوك دقاق أخى رضوان ، وأخيرا سلطنة سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى ، وكانت لتاج ارسلان بن سليمان بن تتش(٣) ، والحقيقة أن ضعف دولة الســلاجقة واضمحلالها ، كان ضعفا للدولة العباسية وبداية لنهايتها ، وبالتالى كان من الأسباب التى مهدت لنجاح الصليبيين فى حملتهم الاولى .

---

(١) ابن النديم : زبدة الحلب ، حـ ٣ ص ١١٩ ، ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٠ .
(٢) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٢ ، ابو شامة : الروضتين ، جـ ١ ص ٦٠ .
(٣) عاشور : الحركة الصليبية ، حـ ١ ص ١١٤ ، الشيخ : الجهاد ، ص ٣٦ .

ظهـــــور دولـة الأتابكـة

كلمة (اتابك) تركية الأصل ، وهى مركبة من لفظين ، (أتا) بمعنى مربى (وبك) بمعنى أمير ، ومعناهما معا مربى الأمـــير ، أو الأمير الوالد(١) . وكان لقبا يطلق على الأمراء والقواد العسكريين الذين يعهد اليهم بتربية أبناء سلاطين السلاجقة ، وتعليمهم وتدريبهم على شئون الحكم وفنون الحرب ، وأول من تلقب بهذا اللقب الوزير نظام الملك(٢) ، عندما فوض اليــــه السلطـــــان ملكشـــــاه بن ألب أرســـــلان تدبير المملكة سنة (٤٦٥هـ/١٠٧٢م) .

ويرجع السبب فى ظهور الأتابكيات الى وجود بعض الأمراء صـــغار السن من السلاجقة الذين أسندت اليهم امارة الدويلات السلجوقية فى أواخر عصرها ، وكان من الطبيعى أن يكون مع كل أمير من هؤلاء اتابكا يرعى شئونه ، لأنهم كانوا بمثابة الأوصياء أو المشرفين على مصالح هؤلاء الأمراء وانتهز هؤلاء الأتابكة فرصة ضعف الدولة السلجوقية وتفككها ، واستبدوا بحكم هذه الدويلات وكونوا لأنفسهم جيوشا لحماية أتابكياتهم ، واستعانوا بالقبائل ، فلما أخذت هذه الأتابكيات صفة الدوام ، استقلوا بها ، فتكونت أتابكيات كثيرة بداية من أواخر القــرن الخامس وخـلال القــرن السادس الهجريين (الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين) ، وقد ترتب على ظهور الأتابكيات أنه أصـــبح عاملا من العـوامل التى أدت الى نهـــاية الدولة السلجوقيه(٣) .

---

(١) راجع دائرة المعارف الاسلامية مادة (أتابك) ، وشس الدين سامى : قاموس الأعلام (تركى) جـ ١ ص ٤٧٤ـ٤٧٥ ، وكذلك :
Persian English Dictionsry p. 18.

(٢) ابن الاثير : الكامل ، جـ ١ ص ٨٠ ، القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ١ ص ١٦٧ ، جـ ٤ ص ١٨ .

(٣) ابن الاثير : الكامل ، جـ ١٠ ص ١٦٠ـ١٦١ .

من أهم هذه الأتابكيات أتابكية دمشق (١) ، وتنسب الى ظهير الدين طغتكين ، الذى كان احد قواد الجيش السلجوقى ، ومملوك السلطان تتش ، وبعد مقتل تتش أصبح طغتكين اتابكا لولده شمس الملوك دقاق بن تتش ، وبعد وفاة دقاق سنة (٤٩٧هـ/١١٠٣-١١٠٤م) عهد الى طغتكين بأتابكية دمشق والوصاية على ابن دقاق ويسمى تتش (الصغير) ، وقد استمرت أتابكية دمشق تحت نفوذ أسرة طغتكين حتى سنة (٥٤٩هـ/١١٥٤م) عندما استولى عليها نور الدين محمود زنكى من صاحبها مجير الدين محمد بن بورى ابن طغتكين .

وأتابكية الموصل : وتنسب الى عماد الدين زنكى بن آقسنقر ، وقد أسندت اليه فى رمضان سنة (٥٢١هـ/١١٢٧م)(٢) كما ضمت اليه الجزيرة (العراق) ونصيبين ، وما لبث عماد الدين أن وسع ملكه فضم اليه سنجار والخابور وحران ، وكانت الرها وسروج ومدن أخرى من ديار الجزيرة فى أيدى الصليبيين الذين ساموا أهل هذه المدن الكثير من العذاب ، فلما سمعوا بمقدم عماد الدين زنكى ، قويت نفوسهم ، وراسلوه بالطاعة ، واستحثوه على سرعة الوصول اليهم ، فجد عماد الدين فى السير ونزل بساحتهم . وقد بقيت هذه الأتابكية الى حوالى منتصف القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) ، وسوف يلعب كل من عماد الدين زنكى ، وابنه نور الدين محمود دورا كبيرا وخطيرا على مسرح الأحداث التاريخية للمشرق الاسلامى والغرب المسيحى فى منطقة الشرق الأدنى فى تلك الفترة التى شهدت مقدم الفرنجة وحملاتهم الصليبية على الشام .

ومن الأتابكيات المهمة كذلك أتابكية فارس(٣) ، وأتابكية خوارزم(٤) ،

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٤ ، حلمى : السلاجقة ، ص ١٨٤ .

(٢) ابن الاثير : الباهر ص ١٢٤ ، ابن الجوزى : المنتظم ، جـ ١٠ ص ٥ .

(٣) تنسب أتابكية فارس الى سلفر قائد احدى قبائل التركمان التى هاجرت الى خراسان ، وانضمت الى طغرلبك ، فعين سلفر فى بلاطه ، ثم =

وأتابكية أرمينية(١) ، وقد كثرت هذه الأتابكيات وانتشرت بعد وفاة السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م(٢) نتيجة لانقسام السلاجقة على أنفسهم ، وتصدع الدولة السلجوقية ، فاستقل كل أمير بمقاطعته (أتابكيته) وعمل كل واحد منهم على توسيع منطقة نفوذه على حساب القوى المجاورة وضمها الى بلاده حتى أصبحت مظهرا من مظاهر الحكم السلجوقي ، وعنصرا هاما من نظمهم السياسية والاجتماعية(٣) .

=
استولى أحد خلفائه وهو سنقر بن مودود على اقليم فارس سنة ٤٥٣هـ/١٠٦١م ، فوسع بلاده ، ومد نفوذه الى كرمان ، واتخذ شيراز حاضرة له ، وقد خضعت هذه الأتابكية لجنكيزخان ثم لهولاكو عندما اجتاح المغول الأراضي الاسلامية . راجع حمدى : الشرق الاسلامى ، ص ١٠٩-١١٠ ، وكذلك الجميلى : دولة الأتابكة ص ٣٠ هـ ٣ .

(٤) تنسب أتابكية خوارزم الى محمد خوارزم شاه بن أنوشتكين وكان أنوشتكين ساقيا فى بلاط السلطان ملك شاه ، ثم تدرج فى مناصب الدولة . وكان ابنه محمد (علاء الدين) اكتسب شهرة واسعة فى الآداب والعلوم ، فعينه السلطان بركياروق بن ملك شاه حاكما على اقليم خوارزم ، ومنحه لقب شاه (ملك) ، وقد اتسعت هذه الأتابكية وشملت العراق الفارسى بعد هزيمة طغرلبك آخر سلاطين السلاجقة بالعراق سنة ٥٩٠هـ/١١٩٤م ، وزاد اتساعها فى عهد علاء الدين محمد خوارزم شاه (٥٩٦ - ٦١٧هـ / ١١٩٩ - ١٢٢٠م) فشملت بلاد ما وراء النهر ، وسيطرت على الأقاليم المطلة على المحيط الهندى ، ثم على البلاد الواقعة غربى نهر السند بعد الاستيلاء على غزنة سنة ٦١٢هـ/١٢١٥م ، وقد سقطت هذه الأتابكية فى أيدى المغول بعد أن قتل جلال الدين منكبرتى سنة ٦٢٨هـ/١٢٣١م بجبال كردستان . راجع الذهبى : تاريخ ، حـ ٢ ص ١٠١ ، وحسين أمين : العراق ، ص ٢٦٨-٢٦٩ ، الجميلى : دولة الأتابكة ٢٩ هـ ٢ ، وابن الاثير : الكامل ، حـ ١٠ ص ٢٦٧-٢٦٨ .

(١) أسسها سقمان القطبى مملوك قطب الدين اسماعيل الحاكم السلجوقى فى مدينة مرثد احدى مدن أذربيجان ، ثم استولى سقمان على خلاط فى سنة ٤٩٣هـ/١١٠٠م راجع ابن الاثير : الكامل ، جـ ١٠ حوادث ٤٩٢هـ .

(٢) كان آقسنقر الحاجب جد نور الدين محمود زنكى أتابكا للسلطان ملكشاه ، تربى معه ، وترقى فى خدمته حتى أصبح من أكابر أمرائه ، واعتمد عليه فى أموره كلها حتى لقبه قسيم الدولة . راجع ابن واصل : مفرج ، جـ ٢ ص ١١ .

(٣) حسين أمين : العراق ، ص ٢٠٩ ، حمدى : الشرق الاسلامى ص ٩٤ .

الخـــلافة الفاطميـــة

لم تكن الخلافة الفاطمية فى مصر احسن حالا من الخلافة العباسية فى بغـداد ، فقد بلغت هى الأخرى درجة كبيرة من الضعف ، فانسلخت عنها اقاليم كثيرة فى الشـــام ، ففى عهد الحـــاكم بامر الله (٣٨٦ - ٤١١هـ / ٩٩٦ - ١٠٢٠م) عصى أهل صور وامروا عليهم رجلا ملاحا ، وعصى كذلك المفرج بن دغفل بن الجراح ونزل الرملة وعاث فى البلاد فسادا ، كما اصيبت البلاد بالكوارث والنكبات الاقتصادية وسوء الحكم واضطراب الأمـــور بسبب صراع الوزراء على الحكم (١) ، وتعدد عناصر الجيش الفاطمى ، وكثرة الحروب بين هذه الفرق المتصارعة ، وكانت بداية هـذا الضعف فى عهـــد الخليفة الفاطمى المستنصر بالله (٤٢٧ - ٤٨٧هـ / ١٠٣٥ - ١٠٩٤م) حيث صادفت الدولة الفاطمية أخطر العقبات فى تاريخها ، وهى الأزمة الاقتصادية العارمة التى وصفها المؤرخون بسنوات الشـدة ، وأطلقـوا عليها سنوات الغمـة(٢) ، لدرجة أن الخليفة المستنصر بالله باع محتويات قصره من ذخائر واثاث وسلاح ، وجلس على الحصير ، وتعطلت الدواوين فى عهده ، ولجأ الخليفة الى أمير الجيوش بدر الجمالى لينقذ الدولة مما تردت فيه ، وبدأ بدر الجمالى وزارته بمواجهة ساخنة وحاسمة لمشـــكلات مصر الاقتصادية والسياسية . ويعبر المقريزى(٣) على تلك الحالة السيئة بقوله : « والرخاء قد آيس منه ، والصلاح لا مطمع فيه ، ولواته(٤) قد امتلكت الريف والصعيد بايدى العبيد ، والطرقات قد انقطعت برا وبحرا الا بالخفارة الثقيلة ، فلما قتل فى بلدة كوشن(٥) ناصر الدولة ابن حمدان ، كتب المستنصر اليه -

---

(١) الشيال : مصر الاسلامية ، حـ ١ ص ٢٤٣ .
(٢) راجع المقريزى : اغاثة الامة بكشف الغمة (تحقيق الشيال) .
(٣) الخطط ، جـ ١ ص ٣٨١-٣٨٢ .
(٤) اسم قبيلة عربية .
(٥) كوشن : من قرى فلسطين . راجع البغدادى : مراصد الاطلاع ، حـ ٣ ص ١١٨٦ .

يعنى بدر الجمالى - ليستدعيه من عكا ، ليكون المستولى لتدبير دولته »
فلما ولى بدر الجمالى الوزارة الى جانب امارة الجيوش تحكم فى أمور الدولة كلها ، واستبد بالحكم ، ولم يبق للخليفة المستنصر معه شىء من الحكم .

ومع كل محاولات أمير الجيوش بدر الجمالى لاخراج الدولة الفاطمية فى مصر من موقف الضعف الذى أصابها فانه لم ينجح ،وحتى اذا صادف نجاحا فى أول الأمر وامتلك مدينة أو حصنا ، لا يلبث أهل هذه المدينة أو جنود هذا الحصن أن يعلنوا ثورتهم ، ويدخلون فى صراع وقتال حتى يجلوا الفاطمين من عندهم ، تكرر هذا على عهد الخليفة المستنصر بالله . ففى ربيع الآخر سنة (٤٥٦هـ/١٠٦٣م) تمكن أمير الجيوش بدر الجمالى من أن يضم دمشق الى الخليفة الفاطمى فى مصر ، ولكن جند دمشق ثاروا عليه ، وانضمت العامة الى الجند ، فضعف أمر الفاطميين واضطروا الى الجلاء عن دمشق فى شهر رجب(١) . ومن الغريب أن بدر الجمالى يكرر المحاولة فى سنة (٤٧٨هـ/١٠٨٧م) ، ويضرب الحصار على دمشق ، وكان عليها تاج الدولة تتش السلجوقى ، وشدد الجمالى الحصار على دمشق ، وضيق الخناق على أهلها ، ودخل فى قتال شديد مع جنودها ، ولكنه لم يحرز النصر المنشود ، فعاد الى مصر بعسكره(٢) .

وفى سنة (٤٦٢هـ/١٠٧٠م) سار أمير الجيوش بدر الجمالى من مصر على راس جيش كبير العدد واتجه الى مدينة صور ، وضرب عليها الحصار ، وكانت فى يد القاضى عين الدولة بن ابى عقيل ، الذى استغاث بالسلاجقة المقيمين بالشام ، فقاموا بنجدته وفكوا حصار الجيش الفاطمى عن صور . ولكن ما لبث أن عاود بدر الجمالى ضرب الحصار عليها ، وظل محاصرا لها فى هذه المرة برا وبحرا قرابة عام ، ولكنه لم يحظ من صور بطائل لمناعتها ، فانصرف عنها ورحل .

---

(١) ابن الاثير : الكامل ، ج ١٠ ص ٣٠ .
(٢) ابن الاثير : نفسه ص ١٤٥ .

وكان من الطبيعى وبسبب كثرة ما أنفق على الاعداد لهـذه الغزوات أن ازدادت حدة الغلاء الفاحش فى مصر والذى استمر سبع سنوات وانتشرت مجاعة كبيرة ، حتى أكل الناس الجيفة ، وفارق كثير منهم البلاد واتجهوا الى بغداد هربا من شدة الجـوع ، وكان من بينهم أم المستنصر وبناته(١) وبعض التجار ، الذين كانوا يحملون بعض ثياب الخليفة الفاطمى المستنصر ، وبعض أمتعته التى نهبت من داره ، وقد وجد من بينها بعض الأشياء التى كانت قد نهبت من دار الخلافة العباسية ببغداد ، وبعض الأشياء التى كانت قد نهبت من دار البساسيرى ٠ ونتيجة لهذه الصورة القاتمة تشجع أهل مكة المكرمة فاسقطوا اسم الخليفة الفاطمى المستنصر من الخطبة ، وذكروا اسم الخليفة القائم بأمر الله ، والسلطان السلجوقى الب أرسلان ، وتبعهم فى ذلك أمير حلب محمود بن صالح بن مرداس ، فاسقط اسم الخليفة الفاطمى من الخطبة فى السـنة التالية (٤٦٣هـ/١٠٧١م) وجعلها للخليفة العباسى والسلطان السلجوقى(٢) ٠

وكان لتدخل المرأة فى شئون الدولة ، وسيطرتها على مقاليد الحكم فى الدولة الفاطمية أثره البارز فى ضعفها ، واضمحلالها ، فقد تغلبت أم الخليفة المستنصر الفاطمى على أمور الدولة ، فقد عينت لها وزيرا (كمستشار) يهوديا هو أبا سعيد ابراهيم التسترى ، الذى اشار عليها بتعيين أبى نصر الفلاحى فى الوزارة ، فعينته ، وصارت الأمور بين الرجلين على وفاق ، ولكن أبا نصر الفلاحى ما لبث أن انفرد بالحكم ، وحدثت بينهما فجوة ، خاف من أجلها الفلاحى ، وتوقع أن يفسد التسترى أمره مع أم الخليفة ، فلجأ الى اصطناع الغلمان الأتراك واستمالهم الى جانبه ، وأكثر لهم العطاء ، حتى وثق منهم ، فاوعز اليهم بقتل التسترى مستشار أم الخليفة ، ففعلوا ذلك

---

(١) راجع تفصيل ذلك فى ابن تغر ىبردى : النجوم ، جـ ٥ ص ٢ وما بعدها ٠ وقد استمرت المجاعة من ٤٥٧ الى ٤٦٤هـ ٠

(٢) ابن الاثير : الكامل ، جـ ١٠ ص ٦١-٦٣ ٠

وقتلوه ، فعظم ذلك على أم المستنصر ، ودفعت ابنها الخليفة فقبض على الفلاحى ، وأودعه السجن ، فارسلت هى من قتله فى نفس الليلة .

عينت أم الخليفة المستنصر أبا البركات حسن بن محمد فى الوزارة بعد التسترى ، ثم ما لبث أن عزلته لعدم استجابته لما أمرته به من تحريض العبيد على الأتراك الذين قتلوا وزيرها ومستشارها . فلما ولى ابو محمد اليازورى — من اهل الرملة بفلسطين — الوزارة ، أمرته بنفس الشىء ، فلم يفعل ، وأخذ يناصحها لعله يصلح أمر الدولة ، ولكنه قتل . فلما وزر ابو عبد الله الحسين البابلى وأفضت اليه برغبتها ، نفذ لها ما تريد ، فكان ذلك من أسباب قيام الفتن والحروب بين العبيد والأتراك التى انتهت بانهيار الدولة الفاطمية[1] .

فقد ترتب على اندلاع هذه الفتن والحروب أن تكرر ظهور المجاعات فى مصر ، فغلت الأسعار بدرجة جنونية ، وامتدت أيدى الجنود الى النهب والقتل ، واشتد الجوع على الأهالى وكثر الموت فيهم بسببه ، وبسبب الوباء الذى انتشر وعظم أمره ، لدرجة أن أهل البيت الواحد كانوا يموتون كلهم فى ليلة واحدة .

شجعت هذه الأحوال المضطربة فى مصر ناصر الدولة بن حمدان ، الذى كان طامعا فيها ، فاكثر من اغاراته على مدنها ، وقام بنهبها ، وأحرق كثيرا من أطرافها ، ثم أسقط اسم الخليفة المستنصر من الخطبة على منابر الاسكندرية ودمياط وفى قرى كثيرة من ريف مصر ، وارسل الى الخليفة القائم بأمر الله العباسى يطلب منه الخلع ليخطب له فى مصر . ويبدو أن القائم بأمر الله تباطأ فى اجابة مطلب ابن حمدان ، فارسل رجلا من اتباعه الى المستنصر الفاطمى يطلب منه أموالا ، فلما وصل الرجل وجد المستنصر جالسا على حصير ، وليس حوله غير ثلاثة من الخدم ، فلما أبلغه بمطلب ابن حمدان

---

(١) ابن الاثير : الكامل ، حـ ١٠ ص ٨٠—٨٢ .

قال له : أما يكفى ناصر الدولة بن حمدان ان اجلس فى مثل هذا البيت على مثل هذا الحصير ؟ فبكى الرسول ، وعاد الى ناصر الدولة ابن حمدان وأبلغه بما رأى وسمع ، فقرر للمستنصر مائة دينار فى كل يوم ، وعاد الى القاهرة وحكمها واذل من بها من الحكام ، وكان ابن حمدان يميل الى المذهب السنى ، وانحاز المغاربة الموجودون فى مصر اليه ، فقوى أمره وقبض على ام المستنصر ، وصادر أموالها ، ولم تكن تزيد على خمسين الف دينار ، وتفرق عن الخليفة المستنصر الفاطمى أهله وأتباعه وأولاده ، واتجهوا الى المغرب وتفرقوا فى البلاد ، ومات الكثير منهم جوعا(١) .

ومع كل ما أصاب الدولة الفاطمية فى مصر من ضعف وتفكك ، فقد اتاح لها النزاع الدائر بين افراد البيت السلجوقى ، والحروب المشتعلة بينهم من أجل السلطة ، والتى كانت بداية لنهاية الدولة السلجوقية ، اتاح لها ان تستعيد شيئا من انفاسها ، وتسترد بعضا من مظاهر قوتها – ولو لوقت غير طويل – فقد تمكنت من ضم بعض مدن الشام الساحلية ، ففى سنة (٤٨١هـ/١٠٨٨م) خرجت العساكر الفاطمية من مصر بقيادة أمير الجيوش بدر الجمالى ، فوصلت الى مدينة صور وضربت عليها الحصار ، وكان صاحبها القاضى عين الدولة بن أبى عقيل ، وكانت صور قد امتنعت على القاطميين من قبل ، فلما توفى ابن عقيل ، ووليها أولاده ، عاود جيش مصر الفاطمى الكرة وضرب على صور الحصار ، فاستسلم ابناء عين الدولة ، وسلموا المدينة الى بدر الجمالى ، ثم واصل الجيش الفاطمى مسيره الى مدينة صيدا وضرب عليها حصارا سريعا انتهى باستيلائه عليها . ومنها توجه الى مدينة عكا ، وحاصرها وشدد الخناق على أهلها ، فاستسلموا الى الفاطميين وسلموهم المدينة . ثم واصلوا تقدمهم الى مدينة جبيل فملكوها كذلك . ووضع أمير الجيوش بدر الجمالى فى كل بلد من يتولى أمرها ، ويحفظ الأمن والنظام بها ، ثم عاد ببقية جنوده الى مصر (٢) .

---

(١) ابن الاثير : الكامل ، حـ ١٠ ص ٨٥–٨٦ .
(٢) ابن الاثير : الكامل ، جـ ١٠ ص ١٧٦ .

كان امير الجيوش بدر الجمالى قد عين الأمير منير الدولة الجيوشى على مدينة صور ، ولما استقرت امورها أعلن الخروج على الخليفة المستنصر وعلى أمير الجيوش بدر الجمالى ، فارسل بدر الجمالى جيشا من مصر الى صور وصلها فى جمادى الآخرة سنة (٤٨٦هـ/١٠٩٣م) فاضرب الحصار عليها ، فثار اهلها على منير الدولة الجيوشى ، ونادوا بشعار الخليفة الفاطمى ، فدخل جنوده المدينة اثناء هذه الاضطرابات ، وقبضوا على الجيوشى ومعاونيه ، وسيقوا الى مصر حيث ضربت اعناقهم جميعا(١) .

وبعد بدر الجمالى تولى الوزارة ابنه الافضل شاهنشاه فى عهد الخليفة المستعلى بالله بن المستنصر ، ولم يسلم المستعلى من الثورات والفتن ، ففى ربيع سنة (٤٩٠هـ/١٠٩٧م) اظهر كثيلة ، الوالى الفاطمى على صور ، الخروج على المستعلى ، فسير اليه الافضل جيشا كثير العدد حاصر المدينة ، وقاتل أهلها بضراوة وفتحها عنوة ، وقبض على كثيلة اسيرا ، وأرسل الى مصر حيث ضربت عنقه .

وزادت الحرب الأهلية التى نشبت فى مصر بين (المستعلية) انصار الخليفة المستعلى ، وبين (النزارية) أنصار أخيه نزار ، الذى كان والده الخليفة المستنصر قد عهد بالامامة (الخلافة) اليه من بعده ، ولكن أخاه المستعلى نزعها منه ، واضطر نزار الى الهرب فى الاسكندرية وتحصن بها ، وساعده قاضيها جلال الدولة بن عمار ، ولكن المستعلى حاربه فى الاسكندرية وقبض عليه وعلى مؤيديه فقتلهم وأمر ببناء حائط على أخيه فمات(٢) .
وقد لعب الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى دورا بارزا فى هذه الحرب ، مما زاد فى سلطانه وتسلطه على أمور الدولة ، وبلغ فى ذلك شاوا كبيرا اكثر مما كان لأبيه وتلك اشارة واضحة تدل على ما وصل اليه الخلفاء الفاطميون فى أواخر حكمهم من ضعف ، وعدم قدرة على تسيير شئون الدولة .

---

(١) ابن خلدون : تاريخ ، جـ ٤ ص ٦٥–٦٦ .
(٢) ابن الاثير : الكامل ، جـ ١٠ ص ٢٣٨ .

وقد ترتب على هذه الفتن وهذه الحروب أن ازدادت مصر والخلافة الفاطمية ضعفا على ضعفها ، فقد قتل خلق كثير ، وضاعت أموال عظيمة ، ولم ينته الصراع بين أنصار المستعلية والنزارية واتباعهما ، مما أحدث شرخا عميقا فى صلب الدعوة الفاطمية الشيعية التى انقسمت على نفسها ، فقد خرج أتباع نزار من مصر بعد قتله ، واتجهوا الى قلعة الموت فى ايران(١) ، حيث استقروا بها ، اما المستعلية فقد ظلوا على ولائهم وتاييدهم للخليفة المستعلى حتى قدم الصليبيون الى المشرق الاسلامى ، وكونوا اماراتهم الصليبية فى الشام .

وكان للانقسام المذهبى دوره الفعال فى ازدياد ضعف الدولة الفاطمية ، ذلك لانها تعرضت لهذا الانقسام فى فترتين متقاربتين ، فعقب وفاة المستنصر بالله سنة (٤٨٧هـ/١٠٩٤م) حدث الانقسام الأول (مستعلية ، نزارية) وعقب وفاة الآمر باحكام الله سنة (٥٢٤هـ/١١٣٠م) حدث الانقسام الثانى ، فقد انقسمت الشيعة الاسماعيلية الى حافظية وطيبية (نسبة الى الحافظ ابن عم الخليفة الآمر باحكام الله ، والى الطيب بن الآمر باحكام الله) ، وقد ادى هذا الانقسام الى اتساع الشقة بين اتباع المذهب الفاطمى نفسه . وقد سبق أن حاول السلاجقة طرد الفاطميين نهائيا من الشام ، بل فكروا فى غزو مصر ، والقضاء على المذهب الشيعى ، فقد أمر السلطان ملكشاه قسيم الدولة آقسنقر البرسقى — صاحب حلب — أن ينضم بعساكره الى بوران — صاحب الرها — ويسير الجميع مع تاج الدولة تتش — صاحب دمشق — للاستيلاء على ممتلكات الخليفة الفاطمى المستنصر بسواحل الشام ، ثم الى مصر لامتلاكها(٢) .

---

(١) شيد هذه القلعة حسن الصباح زعيم الشيعة الاسماعيلية فى الشام ، وكانت موقعا استراتيجيا هاما ومركزا شيعيا خطيرا ، لعب دورا بارزا فى الصراع مع أهل السنة ، ابن الاثير : الكامل ، جـ ١٠ ص ٥٢٧—٥٢٨ .

(٢) ابن الاثير : الكامل ، جـ ١٠ ص ٢٠٢ ، وكذلك :
Cam. Med. Hist. vol. V, p. 60.

ولم يكن هذا الخلاف المذهبى قاصرا على داخلية الدولة الفاطمية ، ولكنه كان قائما بين الدولتين الاسلاميتين ، العباسية فى بغداد ، والفاطمية فى مصر ، وقد نتج عنه ضعفهما واضمحلالهما وتفككهما ، لأن انشقاق المسلمين على انفسهم ، ووجود مذهب سنى فى بغداد ، وآخر شيعى فى مصر(١) ، زاد من حدة الصراع بينهما ، خاصة عندما تآمر بنو بويه مع الخليفة الفاطمى المستنصر بالله للقضاء على الخلافة العباسية ، وضم بغداد الى الدولة الفاطمية فى مصر ، واضطر الخليفة العباسى القائم بأمر الله (٤٢٢-٤٦٧هـ/١٠٣١-١٠٧٥م) الى الاستنجاد بالسلاجقة(٢) ، لكى يساعدوه فى الدفاع عن المذهب السنى ، الذى كانوا قد اعتنقوه عند اسلامهم ، وبذلك قضى السلاجقة على مخطط الفاطميين ، وفشلت تلك المؤامرة ، وكانت النتيجة أن وقف الفاطميون من السلاجقة السنيين موقفا عدائيا ، وكرهوهم ، ودفعهم هذا الكره الى الاعتقاد أن قيام دولة صليبية فى الشام سوف يكون حاجزا يحول دون زحف السلاجقة الى مصر وضمها الى ممتلكاتهم(٣) .

---

(١) من الجدير بالذكر ان المصريين فى مجموعهم ظلوا معتنقين للمذهب السنى الذى عرفوه منذ الفتح العربى لمصر ، ولم يغير وجود خلافة فاطمية شيعية فى مصر من استمساكهم بهذا المذهب السنى .

(٢) عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ١ ص ٨٠-٨١ .

(٣) العرينى : الشرق الأدنى فى العصور الوسطى ، ص ٦ .

ثانيا : القــوى المسيحية فى الشرق
الامبراطورية البيزنطيــة

اخذت الامبراطورية البيزنطية منذ منتصف القرن العاشر الميـلادى (الرابع الهجرى) تستعيد قوتها ومركزها امام القوى الاسلامية فى الشرق ، فقد تمكن الامبراطور قسطنطين السابع (٩١٣-٩٥٩م/٣٠١-٣٤٨هـ) من شن حروبه ضد المسلمين ، وكان يرنو ببصره لاسترداد الأراضى المقدسـة التى كان المسلمون قد فتحوها منذ قرون مضت ، وقد برز هذا النفوذ السياسي بشكل واضح خلال النصف الأول من عهد الأسرة المقدونية الى وفاة الامبراطور باسيل الثانى سنة (١٠٥٢م/٤٤٤هـ) ففى هذه الفترة تمكنت الامبراطورية البيزنطية من أن تصل الى درجة كبيرة من الاستقرار السياسى ، والتقـدم والازدهار الحضارى ، واصبحت عاصمة الامبراطورية واحدة من اهم المراكز الحضارية فى العالم آنذاك ، لأنها استعادت مكانتها كقوة لها وزنها الدولى امام العالمين الاسلامى والمسيحى . فقد هاجمت بيزنطة جيوش المسلمين فى ثغورهم فى آسيا الصغرى ، واستعادت مناطق كثيرة منها ، وامتدت حدودها الى شمال العراق وأرمينيا ، ووصلت الى مشارف الشـــام . ففى ســـنة (٣٣٠هـ/٩٤١م) وفى عهد الخليفة العباسى المتقى اغارت عسـاكر الدولة البيزنطية على بلاد الشام ، ووصلوا الى مشارف حلب ، وعاثوا فسادا فى القرى والمدن القريبة منها ، وسبوا ما يقرب من خمسة آلاف امرأة(١) .

ثم أخضعت الروس والبلغار ، وقويت قبضتها على ممتلكاتها فى جنوب ايطاليا(٢) . كما انها قضت على الحركات الانفصالية التى قام بها نبلاء الاقطاع فى آسيا الصغرى بسبب ما فرض عليهم من ضرائب قررها باسيل الثانى عرفت باسم (نظام اللالينجيون The Allelengyon Sestem) والتى كان من الممكن أن تؤدى الى تدمير طبقة النبلاء سياسيا وروحيا(٣) .

---

(١) ابن خلدون : تاريخ ، جـ ٣ ص ٤١٧ .
(٢) Setton: The Byzantine Empire, pp. 177-178.
(٣) Vasiliev, op. cit., pp. 345-349.

وعندما توفى قسطنطين السابع خلفه ابنه رومانوس الثانى (٩٥٩-٩٦٣م/٣٤٨-٣٥٢هـ) فارسل قائده نقفور فوكاس سنة (٩٦٠م/٣٤٩هـ) لاسترداد جزيرة كريت من أيدى المسلمين ، ونجح نقفور فوكاس فى ذلك سنة (٩٦١م/٣٥٠هـ) واستعادت الامبراطورية سيطرتها ومركزها الاستراتيجى والاقتصادى شرقى البحر الأبيض المتوسط(١) .

وكان مسلموا الأندلس قد فتحوها فى عهد ميخائيل الثانى (٨٢٠-٨٢٩م/٢٠٥-٢١٤هـ) . عندما استغلوا انشغال أساطيل الامبراطورية وجيوشها فى اخماد الحركات الثورية التى انتشرت فى ارجاء بيزنطة ، واستولوا على جزيرة كريت سنة (٨٢٥م/٢١٠هـ) ، وأسسوا بها مدينة جديدة احاطوها بخندق ، وعرفت المدينة باسم الخندق ، وأصبح علما على الجزيرة أو على أكبر مدنها(٢) ، وقد حاول الامبراطور ميخائيل الثانى استرداد كريت من أيدى المسلمين فى محاولتين بذلهما ، ولكنه فشل فيهما ، وبقيت كريت فى أيدى المسلمين مدة تزيد على قرن وربع الى أن استعادها نقفور فوكاس سنة (٩٦١م/٣٥٠هـ) . ثم أخذ نقفور بعد ذلك فى مهاجمة الحمدانيين وتمكن من استرداد بعض الحصون والقلاع الهامة فى قيليقية .

ومع أن نفوذ الامبراطورية فى تلك الفترة كان آخذا فى الازدياد ، الا أن علاقتها بالمسلمين فى شمال افريقية (الدولة الفاطمية) كانت تتارجح بين العداء والمهادنة ، ففى سنة (٣٥٠هـ/٩٦١م) طلبت الدولة البيزنطية تجديد الهدنة التى كانت بين الدولتين ، وبمقتضاها تدفع بيزنطة جزية متفق عليها للفاطميين ، ولكن عندما تولى نقفور فوكاس عرش الامبراطورية(٣) رغب

---

(١) عاشور : الحركة الصليبية ، حـ ١ ص ٤٠٩ .

(٢) Vasiliev; op. cit., Vol. I. p. 367.

وعاشور : أوروبا ، حـ ١ ص ٤٠٠ .

(٣) راجع تفاصيل هاتين المعركتين فى ابن الاثير : الكامل ، حـ ٨ ص ٥٥٥ وما بعدها .

فى عدم دفع هذه الجزية ، ولكنه عاد واقر بدفعها بعدما هزمت أساطيله فى صقلية فى موقعتى رمطة والمجاز عامى (٣٥٣-٣٥٤هـ/٩٦٤-٩٦٥م)(١) ٠

وكان المسلمون قد وجهوا اسطولهم بقيادة الأمير احمد بن على للاستيلاء على قلعة طرمين فى جزيرة صقلية ، وكانت تابعة للامبراطورية البيزنطية ، وكانت طرمين قلعة حصينة ، وتمكن المسلمون من حصارها ، وقطعوا عنها المياه ، فطلب اهلها الأمان ، فلم يجبهم قائد الأسطول الاسلامى ، فعادوا وطلبوا تامين دمائهم ، فاجابهم المسلمون على ان يكونوا رقيقا لهم ، وتكون اموالهم فيئا للمسلمين ، الذين امتلكوها واطلقوا عليها اسم قلعة المعزية ، نسبة الى المعز الفاطمى صاحب أفريقية(٢) ٠

وأراد نقفور ان يثار لما اصاب جيوشه فى صقلية فشدد ضرباته على مدينة المصيصة(٣) وحاصرها ثلاثة شهور سنة (٣٥٣هـ/٩٦٤م) ٠ ومنع عن اهلها الميرة والزاد حتى اضطروا الى اكل لحم الميتة ، فانتشرت بينهم الأوبئة ، واستسلمت المدينة اليه(٤) ، وحينما راى أهل طرسوس(٥) ما أصاب المصيصة وأهلها ، طلبوا السلامة ، وسلموا مدينتهم الى الامبراطور نقفور فوكاس ، وبذلك وضع البيزنطيون أيديهم على مداخل الشام ٠

ولم يلبث البيزنطيون ان توجوا نشاطهم الحربى ضد القوى الاسلامية فى المشرق باستيلائهم على مدينة انطاكية سنة (٣٥٩هـ/٩٧٠م) ، وكانت فى

---

(١) حكم نقفور فوكاس ست سنوات (٩٦٣-٩٦٦م) وقد تزوج من ارملة رومانوس الثانى وتسمى ثيوفانو ، وكانت وصية على ولديها الصغيرين باسل الثانى ، وقسطنطين الثامن ٠ عاشور : أوربا ، حـ ١ ص ٤١٠ ٠

(٢) ابن الاثير : نفسه ص ٥٤٣ ٠

(٣) المصيصة : على شاطىء جيمان بين انطاكيا وبلاد الروم بالقرب من طرسوس - ياقوت ، حـ ٥ ص ١٤٤-١٤٥ ٠

(٤) ابن الاثير : الكامل ، حـ ٨ ص ٥٥٢ وما بعدها ٠

(٥) طرسوس : من ثغور الشام بين أنطاكيا وحلب وبلاد الروم ٠ ياقوت ، حـ ٤ ص ٢٨ ٠

أيدى المسلمين منذ فتحوها سنة (١٤هـ/٦٣٥م) ، وبذلك حصلوا على مدينة هامة لها مكانتها الاستراتيجية باعتبارها مدخلا لبلاد الشام . ولها مركزها الاقتصادى ، لعلاقتها التجارية مع بلدان آسيا الصغرى ومدن الشام ، وجزر البحر الأبيض المتوسط ، كما أنها كانت ذات منزلة روحية عند المسيحيين ، وقد بقيت انطاكيا تابعة للامبراطورية البيزنطية الى أن استعادها الأتراك السلاجقة سنة (٤٧٧هـ/١٠٨٤م) .

وقد ترتب على سقوط مدينة الرها فى أيدى البيزنطيين أنهم ضربوا الحصار على مدينة حلب ، فاضطر حاكمها قرغوية مولى سيف الدولة الحمدانى الى اقناع سيده بدفع الجزية للبيزنطيين سنويا ، وابرمت بين الطرفين معاهدة اقرت فيها الهدنة وبقى قرغوية يحكم حلب باسم البيزنطيين ، وقد وصل ضعف الحمدانيين فى تلك الفترة الى انهم قبلوا شروطا مهينة منها : أن يعين الامبراطور البيزنطى من يشاء على المدينة بعد وفاة قرغوية وبكجور . والا يختار المسلمون حاكما منهم على المدينة ، ولا يطلبوا مساعدة من المسلمين لتغيير تلك الشروط أو تبديلها . كما حددت الاتفاقية المدن التى تدخل فى أعمال حلب ، والمدن التى تكون ملكا للامبراطورية البيزنطية(١) .

وأما فى خلال النصف الثانى من حكم الأسرة المقدونية فقد كانت الامبراطورية البيزنطية فى حالة من الاضطراب والفوضى وتفاقم المشكلات الداخلية واستمرت على هذه الحالة قرابة ربع قرن (١٠٥٦–١٠٨١م) ، وذلك لعدم وجود أباطرة أقوياء يكون لهم أثرهم فى مجريات الأحداث ، وكان للمرأة دورها فى هذا الضعف الذى أصاب الامبراطورية فى تلك الفترة فقد تآمرت ثيوثانو أرملة الامبراطور رومانوس الثانى وزوجة نقفور فوكاس مع عشيقها حنا شمشقيق(٢) (John Tzimisces) على نقفور لفظاظته مع

---

(١) راجع نص الاتفاقية كاملا فى ابن الاثير : الكامل ، حـ ٨ ص ٦٠٤ ، وكذلك توفيق : الدولة البيزنطية ص ١٤٦ وما بعدها .

(٢) لفظ أرمنى بمعنى قصير القامة ، راجع ابن العبرى : مختصر ص ٢٦٩ ، عاشور : أوروبا ، حـ ١ ص ٤١١ .

ولديهـا الصغيرين باسيل الثانى ، وقسطنطين الثامن ، اللذان كانا تحت وصايتهـا ، ونجحت المؤامرة وقتـل نقفـور فوكاس اثنـاء نومه ، وأعلن حنـا الأول امبراطورا سنة ٩٦٩م ، وبدلا من أن يتزوج حنا الأول شريكته فى المؤامرة وعشيقته يثوفانو ، أخذ يتوجس منها خيفة وخشى أن تفعل به مثلما فعلت مع نقفور فامر باعتقالها فى أحد الأديرة ، وبعد وفاة قسطنطين الثامن سنة ١٠٢٨م ترك ابنتان هما زوى وثيودورا وكان لكل منهما دورها فى اضعاف وتفكك الامبراطورية .

فقد اعتلت Zoe أرملة الامبراطور باسيل الثانى عرش الامبراطورية ، ولعبت دورا هاما وخطيرا فى تولية الأباطرة عرش البلاد ، فقد تزوجت خلال اثنتين رعشرين سنة (١٠٢٨-١٠٥٠م) ثلاث مرات ، وفى كل مرة تختار من يتزوجها ليشاركها حكم الامبراطورية ، وكانت فترة حكمها مع زوجهـا الأخـير قسطنطين التاسـع (١٠٤٢-١٠٥٤م)(١) من أحلك أيـام الامبراطورية وأشدها ضعفا ، حيث تمكن النورمان من القضاء على النفوذ البيزنطى فى ايطاليـا وازدادت روح التذمر بين الأهالى نتيجة للضرائب القاسية المفروضة عليهم ، وبعد موت زوى سنة ١٠٥٠م خلفتهـا أختهـا ثيودرا Theodora وكانت تختلف عنها ، ربما لتقدم الحياة بها ، وبحكم حياتها الطويلة فى أحد الأديرة مما اكسبها صلابة فى الرأى ، واستقامة فى الحياة ، ولكنها توفيت بعد ثلاث سنوات (١٠٥٧م) ولم تتمكن من اصلاح أى شىء . وبذلك تعرضت الدولة البيزنطية الى أخطار متعددة فى الداخل والخـارج .

ففى الداخل تعرضت حكومة الامبراطورية الى ثورة نبلاء الاقطـاع والعناصر العسكرية التى اندلعت فى الأقاليم ، والتى انتهت بانتصار الأقاليم والعناصر العسكرية ، وتوليـة الكسيوس كومنين عرش الامبراطورية سـنة

---

(١) Vasiliev; op. cit., Vol. I. p. 400.

١٠٨١م . وتكفى الاشارة الى اضطراب الأمور وعدم الاستقرار السياسى فى الدولة الى أن ستة من الأباطرة تولوا عرش بيزنطة خلال هــذه المــدة (٢٥ عاما) ، فقد اجبر البلاط الامبراطورى ثيودار على اختيار امبراطور للدولة ، فاختارت سترايثو تيكوس ميخائيل السابع . وقد توفيت ثيودورا فى عهده (١٠٥٧م) ومن بعده تولى اسحق الأول لمدة عامين (١٠٥٧ـ١٠٥٩م) ، ثم قسطنطين العاشر لمدة تزيد على ثمان سنوات (١٠٥٩ـ١٠٦٧م) ، ثم رومانوس ديوجينس الرابع (١٠٦٧ـ١٠٧١م) الذى هزم فى موقعة مانزيكرت ، ومن بعده حكم ميخائيل السابع مرة ثانية (١٠٧١ـ١٠٧٨م) ثم نقفور الثالث (١٠٧٨ـ١٠٨١م) وبوفاة نقفور الثالث تنتهى فترة الاضطرابات والفوضى التى استمرت منذ النصف الثانى من عهد الأسرة المقدونية ، حيث يتولى مسئولية الحكم فى الامبراطورية البيزنطية أسرة جديدة تبدأ بحكم الامبراطور الكسيوس كومنين ، الذى تمكن من القضاء على حالة الفوضى والاضطراب التى كانت سائدة فى الدولة .

وفى الخارج تعرضت الامبراطورية الى ضغوط من أعدائها فى الشرق والغــرب ، فانتقصوا من ممتلكاتها كمــا فعــل النورمان فى ايطاليــا ، والبجناك(١) فى الشمال ، والأتراك السلاجقة فى الشرق .

النــزاع المــذهبى :

الى جانب الفتن والثــورات والاضطرابات الداخليــة ، والضــغوط الخارجية من أعداء الامبراطورية البيزنطية كان هناك النزاع المذهبى بين الكنائس الشرقية داخل الامبراطورية وممتلكاتها ، وقد ساعد هــذا النزاع المذهبى على وقوعها تحت سيطرة الكنيسة الرومانية الغربية ، وبالتالى مهد

---

(١) أقوام من الترك بدويون اشتهروا بميلهم الشديد للحرب ، اغاروا على شمال بلغاريا ، وأصبحت منازلهم قريبة من نهر الدانوب : راجع :
Bury : Eastern Roman Empire, pp. 242-245.
والعرينى : الدولة البيزنطية ص ٣٧٦ .

لانتصار الصليبيين فى الشرق الأدنى ، وساعدهم فى تكوين دولة مواطنوها من المسيحيين الكاثوليك المعارضين للمذهب الأرثوذكسى الذى يعتنقه البيزنطيون . فقد بلغ عداء الكنائس الشرقية بين البيزنطيين والأرمن والسريان واليعاقبة اشده فى اعقاب حركة التوسع البيزنطية فى الشرق منذ القرن العاشر الميلادى ، فبعد قليل من ضم أنطاكية الى الدولة البيزنطية فى الامبراطور حنا الأول (شمشقيق) اخذ رجال الدين البيزنطيون (الأرثوذكس) يضطهدون اخوانهم رجال الدين الأرمن (الكاثوليك) ، وبعد أن اتخذ الأرمن مدينة آنى(١) عاصمة لهم ، وقع الاضطهاد على بطرس الأرمنى ، ثم على ابن اخيه جاجك الأول (٩٩٠-١٠٢٠م) بقصد اجبارهم على التسليم بمبادىء الكنيسة الأرثوذكسية التى يعتنقها البيزنطيون .

وجد الملوك الذين تنازلوا عن ممالكهم الوراثية للامبراطورية البيزنطية ، واخذوا بدلا منها اقطاعات فى كبادوكيا ، وجدوا أنفسهم فريسة لضغط الأباطرة البيزنطيين ليجبروهم على اعتناق المذهب الأرثوذكسى ، وترتب على ذلك ازدياد التصدع بين أصحاب المذهبين من المسيحيين الشرقيين ابناء الامبراطورية البيزنطية ، وعدم تماسكهم وظهور روح البغضاء لبعضهم ، وقد وضح ذلك فيما أبداه المؤرخون المعاصرون من الأرمن (مثل متى الرهاوى) من ارتياح عندما حلت الهزيمة المرة بالبيزنطيين فى مانزيكرت ، بل لقد بلغت بهم درجة تشفيهم فى اخوانهم البيزنطيين الى مديح السلطان ملكشاه السلجوقى ، والأمراء السلجوقيين لما حققوه للأرمن من هدوء وراحة بال . وقد ترتب على ذلك أن الامبراطورية البيزنطية وجهت الاتهام الى الأرمن المشتركين فى موقعة مانزيكرت بانهم تقهقروا امام السلجوقيين ، أو بمعنى آخر تشككت فى وجود تواطؤ بين الأرمن والسلاجقة .

---

(١) أول عاصمة للأرمن فى موطنهم الجديد فى جنوب شرقى آسيا الصغرى ، ثم نقلوا عاصمتهم بعد ذلك الى مدينة سيس ، راجع :
Vasiliev; op. cit., I. p. 314.

وكان من الطبيعى ان ينتقم المهاجرون الأرمن لأنفســـهم ، فانتهزوا فرصة هزيمة البيزنطيين فى مانزيكرت وصبوا جام غضبهم وشديد انتقامهم على رجال الكنيسة الأرثوذكسية فى كبادوكيا ٠ فقد قبض جاجك الثانى ملك الأرمن السابق فى آنى على مطران قيصرية الأرثوذكس وحبسه فى جــوال محكم ، ومعه كلب شرس حتى قضى نحبه(١) ، وكان رد البيزنطيين على ذلك تصديهم لجاجك الثانى وقتله سنة ١٠٩٧م ٠

ولم يكن حنق المسيحيين السريان على البيزنطيين اقل شدة من حنق الأرمن ، لاسيما بعد أن استرد البيزنطيون انطاكية والرها ٠ فقــد أســاء رجال الكنيسة الأرثوذكسية (البيزنطيون) الى رجــال الكنيسة المحليــة (الكاثوليك من السريان) ، ولذلك فعندما أصيب الامبراطور رومانوس الثالث بالهزيمة بالقرب من حلب سنة ١٠٣٠م على أيدى السلاجقة المسلمين ، عبر السريان عن فرحتهم فى البيزنطيين ، وأخذ المؤرخ ميخائيل السريانى يعبر عن تلك الفرحة فى كتاباته وأعرب عن تفضيل السريان لحكم السلاجقة على البيزنطيين ، لأن السلاجقة ينهبون ويسلبون فى الحروب ، ولكنهــم لا يتعرضون للعقيدة ، بينما اضطهاد البيزنطيين لحرية العقيدة اشــد نكاية وأســوأ أثرا(٢) ٠

وهكذا يتضــح لنــا أن ما قامت به الامبراطورية البيزنطية فى القــرن العاشر وبداية الحادى عشر لاسترداد أراضيها وتوطيد نفوذها فى شرقى آسيا الصغرى وبلاد الشام نتج عنه استياء جميع العناصر السكانية ، التى كان من الممكن أن تظل على ولائهــا للامبراطورية ضــــد المسيحيين الكاثوليك الغربيين ٠ وقد ساعد شعور الاستياء بين هذه العناصر السكانية فى تسهيل وتيسير قيام الامارات الصليبية الأربع فى المنطقة الشـــامية ، لأن الأرمن والسريان واليعاقبة لم يشعروا بالكراهية والنفور حيال الصليبيين الكاثوليك

---

(١) عاشور : العلاقات ص ٧٧ ٠

(٢) Runciman; op. cit., p. 75. وعاشور : العلاقات ص ٧٨ ٠

مثلما شعروا بها حيال البيزنطيين الأرثوذكس . وسوف تشهد فترة الحروب الصليبية تقاربا ملحوظا بين الكنيسة الارمينية والبابوية ، ونتيجة للمعاملة الطيبة التى ابداها الصليبيون للأرمن والسريان اصبح هؤلاء حلفاء لهم ، ليس ضد المسلمين فحسب ، بل ضد البيزنطيين كذلك .

وقد وصل ضعف الامبراطورية البيزنطية امام ضربات السلجوقيين وضغطهم عليها فى ممتلكاتها وتوسعهم فى آسيا الصغرى الى ان يطلب الامبراطور ميخائيل السابع (١٠٧١/١٠٧٩م) عقد اتفاقية مع سليمان بن قتلمش قائد جيش السلطان ملكشاه سنة ١٠٧٤م ، سلم فيها الامبراطور بحق السلاجقة فى حكم الأراضى التى فتحوها فعلا فى آسيا الصغرى .

ويبدو ما كان عليه سلاطين السلاجقة من قوة وسعة نفوذ ، وضغطهم الشديد على الامبراطورية البيزنطية ، ان السلطان ملكشاه كان فى اصبهان يعد العدة متجها لفتح سمرقند ، لأن اهلها استغاثوا به من ظلم حاكمهم احمد خان ، وفى اثناء تجهيز جيوشه حضر اليه باصبهان رسول الامبراطور البيزنطى يحمل اليه الجزية المقررة عليه ، فاخذه نظام الملك وزير السلطان معه ليشهد فتح ما وراء النهر ، فلما وصل السلطان والوزير والجيش الى منطقة كاشغر (١) ، اذن له نظام الملك فى الانصراف وقال : « احب أن يذكر عنا فى التواريخ ان رسول ملك الروم حمل الجزية واوصلها الى باب كاشغر لينهى الى الامبراطور اتساع دولة السلطان فيعظم خوفه منه ، ولا تحدثه نفسه بخلاف الطاعة له »(٢) . ومع ذلك استنجد الامبراطور ميخائيل السابع بالبابا جريجوى السابع (بابا روما) ووعده بانه سيعمل على ازالة الخلاف بين الكنيسة الشرقية (بيزنطة) والكنيسة الغربية (روما) فى مقابل ما يقدمه جريجورى من مساعدات لبيزنطة ضد السلاجقة ، العدو الذى ارق

---

(١) كاشغر : فى وسط بلاد الترك ، يسافر اليها من سمرقند . ياقوت جـ ٤ ص ٤٣٠ .

(٢) ابن الاثير : الكامل ، جـ ١٠ ص ١٧١ .

حكام الامبراطورية . وفعلا استجاب البابا جريجورى السابع أملا فى التقارب بين الكنيستين ، وارسل الى ملوك أوربا وأمرائها يوضح لهم حقيقة موقف المسيحية فى الشرق ، وما تعانيه الامبراطورية البيزنطية من متاعب ومصاعب وآلام ، وما تنتظره من أخطار نتيجة للتوسع الاسلامى الذى يتم على أيدى السلاجقة ، ولكن ملوك أوروبا وأمراءها أعرضوا عنه ، ويرجع السبب فى ذلك الى الصراع القائم بين البابوية فى روما وبين الامبراطور هنرى الرابع حول التقليد العلمانى ، وقد ترتب على ذلك وقوف الامبراطورية البيزنطية وحدها أمام خطر السلاجقة .

٩وحتى بعد أن عزل ميخائيل السابع سنة ١٠٧٩م ، وجلس الامبراطور نقفور الثالث على عرش الامبراطورية فان حكمه لم يدم سوى اقل من ثلاث سنوات (١٠٧٩–١٠٨١م) حيث أطاحت به ثورة الجيش ، وأعلنت تولية الكسيوس كومنين امبراطورا للدولة البيزنطية سنة ١٠٨١م .

٩ومع كل المحاولات التى قام بها الكسيوس كومنين لاصلاح الامبراطورية فلم تتوان عنها ضربات السلاجقة ، حيث زادت توسعاتهم فى آسيا الصغرى ، ولم تمنع وفاة السلطان ملكشاه سنة ١٠٩٢م ، ولا النزاع القائم بين أولاده على تقسيم الدولة فيما بينهم من استمرار قبضة الأتراك السلاجقة على أراضى الدولة البيزنطية ولم يجد الامبراطور الكسيوس كومنين وسيلة لدفع هــذا الخطر الا الالتجاء الى البابوية فى روما عدة مرات ، وأخيرا ارسل بعثــة من عنده الى البابا أوربان الثانى سنة ١٠٩٥م لشرح خطر السلاجقة على المسيحية بوجه عام ليثير الناحية الدينية فى مسيحيى أوربا ضد المسلمين فى الشرق ، مما أدى الى ارسال الحملات الصليبية ، وتكالب الصليبيين على الشرق الاسلامى .

ثالثا : الحمـــلات الصليبيـة

اما الظاهرة الثالثة والأخيرة فى تاريخ منطقة الشرق الادنى فى تلك الفترة ، فهى الحملات الصليبية التى قام بها الأوربيون فى أواخر القـرن الخامس الهجرى ، حيث بدأوا هجومهم فى سنة (٤٩٠هـ/١٠٩٥م) على المدن الواقعة على السواحل الشرقية لحوض البحر الأبيض المتوسط ، وتمكنوا بعد ذلك من اقامة أربع امارات صليبية هى امارة الرها ، وامارة انطاكية ، وامارة طرابلس ، ومملكة بيت المقدس(١) ٠

ويرى بعض المؤرخين(٢) ان سبب مجىء هذه الحملات على الشرق الأدنى يرجع الى ان امبراطور القسطنطينية الكسيوس كومنين عندما ضاقت به السبل أمـام حمـلات السلاجقة وانتصاراتهم المتكررة على الامبراطورية البيزنطية أرسل الى الكنيسة الغربية يستغيث بها وبمسيحييها ، ولكن ما نراه هو أن الأسـباب الحقيقية لهـذه الحملات تكمن فى نواحى دينية وسياسية واقتصادية(٣) ، بل هناك أسباب شخصية كذلك(٤) ، بالاضافة الى النواحى الاجتماعيــة ٠

هذه هى الظواهر الثلاث التى تحكمت فى تاريخ هذه المنطقة وأثرت فى علاقات دولها السياسية ، فى فترة من أحرج الفترات التاريخية فى تاريخ الدولة الاسلامية فى العصور الوسطى ، والتى كان من نتائجها أن استوعب المسلمون كامة واحدة الصدمة التى سببها الغزو الصليبى واستقرار الصليبيين فى اماراتهم التى أقاموها على الأراضى التى فتحها المسلمون ونشروا بهـا الاسـلام ، وبدأ رد الفعـــل من جانب المسلمين متمثلا فى تكوين الجبهـة الاسـلامية المتحـدة التى غرس بذورها عماد الدين زنكى ، ورعاها ابنـه

---

(١) Runciman; Die Kreuzzüge, S. 65.

(٢) Barker; Hist. of the Crusades, p. 16.

(٣) Runciman; op. cit., S. 72.

(٤) راجع الأسباب المتعددة للحملات الصليبية فى كتابنا (العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ٦٠ـ٦٥) ٠

(نور الدين محمود) فتحقق له ضم بلاد الشام الى ما كان له فى العراق وكان يأمل أن تكتمل هذه الجبهة بضم مصر لتكتمل له القـوة الضاربة التى يواجه بها الصليبيين ، وسوف يتم هذا العمل على يد صلاح الدين يوسف بن ايوب عندما تساعده الظروف السياسية التى دفعت به للمجىء الى مصر فى اقامة دولة أيوبية تتولى اعلان حركة الجهاد ضد الصليبيين ، ذلك الجهـاد الذى أصبح من أهم الدعائم التى قامت عليهـا دولة صلاح الدين فى مصر والشام والتى يتمكن هذا البطل عن طريقها من استرداد بيت المقدس وكثير من مدن الساحل من أيدى هؤلاء الفرنجة الدخلاء ، مما سنتعرض له بالتفصيل فى هـذه الدراسـة .

الفصل الثانى

مصر بين نور الدين محمود والصليبيين

نجح نور الدين محمود فى ان يحوط على الامارات الصليبية من الشرق (العراق) والشمال (الشام) ولم يبق أمامه سوى الجبهة الجنوبية التى تمثلها مصر ليتم له تكوين الجبهة الاسلامية المتحدة التى كان ينشدها والده عماد الدين زنكى ، والتى سعى نور الدين محمود جاهدا فى تحقيقها ٠

والحقيقة أن نور الدين محمود كان مضطرا لضم مصر اليه لاستكمال تكوين هذه الجبهة ليتصدى بها للصليبيين ، لانه كان لا يقصد ولاية أحد من المسلمين الا للضرورة ومضطرا ، واما ليستعين بها على قتال الفرنج ، أو للخوف عليها منهم(١) وهذا ما فعله مع دمشق وما سيفعله مع مصر آنذاك لانه ان نجح فى ضم مصر اليه أحاط المسلمون بالامارات الصليبية من جهات ثلاثة من البر ، وسوف يتولى الأسطول الاسلامى الجبهة الرابعة من البحر ، وبذلك يسهل طردهم من الأراضى المقدسة فى الشام ٠

ولم يكن الصليبيون اقل تطلعا من نور الدين محمود الى امتلاك مصر ٠ بل كانوا أكثر طمعا فيها ٠ والأدلة على ذلك تلك المحاولات التى قاموا بها بمجرد استقرارهم فى مملكة بيت المقدس للاستيلاء على مصر ٠ فقد وضع جودفرى دى بوايون خطة للاستيلاء على مصر (٢) ، ولكنه قتل ٠

ويبدو أن الأسباب الشخصية لعبت دورا هاما وبارزا وكانت من الأسباب الحقيقية للحملات الصليبية على منطقة الشرق الاسلامى ، فقد ذكرت بعض المراجع(٣) أن جودفرى دى بوايون وضع هذه الخطة لاحتلال مصر اشباعا

---

(١) ابو شامة : الروضتين جـ ١ ص ١٤٤ ٠
(٢) Caffari: Annali Genovesi di Caffaro e dei Suoi.
(٣) وكذلك باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٤٨ ،

لرغبته فى الانتقام بسبب ما لحقه من اهانة أثناء زيارته لمدينة بيت المقدس ، حيث صفعه أحد حراس المدينة المقدسة حينذاك ، فقد حدث ذلك فى رحلته مع صديقه الكونت روبرت الفلاندرز Robert of Flanders وبعض القادة الصليبيين حيث أبحر الجميع على السفينة الجنوية بوميلا Pomella من ميناء جنوه الى الاسكندرية ، وفى هذه الأوقات التقى جودفرى دى بويون بالخليفة الفاطمى المستعلى بالله وبوزيره الأفضل بن بدر الجمالى ، واتفق معهما على مجيء الصليبيين لمساعدة الفاطميين فى القضاء على السلاجقة السنيين الذين هددوا بغزو مصر بعد أن تملكوا الشام ، وزعزعوا نفوذ الدولة الفاطمية فى المنطقة ، وفى مقابل ذلك يحصل الصليبيون على الأجزاء الشمالية من بلاد الشام بما فى ذلك انطاكية ، ويحتفظ الفاطميون بالأجزاء الجنوبية بما فى ذلك بيت المقدس ، وتشير بعض الروايات التاريخية أن هذا الاتفاق تم أثناء حصار الصليبيين لمدينة انطاكية أوائل عام ٤٩١هـ/١٠٩٨م .

وعندما خلفه أخوه بلدوين الأول على مملكة بيت المقدس الصليبية بدأ فى تنفيذ هذه الخطة التى تهدف الى توسيع مملكة بيت المقدس نحو الجنوب ، وذلك بالاستيلاء على مصر ، ليعزلها عن بقية العالم الاسلامى وليقطع طريق التجارة بينها وبين هذه الدول ، وليضمن عدم وقوع الامارات الصليبية بين شقى الرحى ، المتمثلة فى قيام الجبهة الاسلامية المتحدة من العراق والشام ومصر ، لأن قيامها خطر على الوجود الصليبى فى منطقة الشرق الأدنى .

الاستيلاء على وادى عربة :

بدأ بلدوين بالاستيلاء على وادى عربة جنوب البحر الميت . واقام حصن الشوبك سنة ٥٠٩هـ/١١١٥م ليجعل منه ومن وادى عربة(١) مركزين متقدمين للقوات الصليبية للهجوم على مصر وللدفاع عن مملكة بيت المقدس

---

(١) وادى عزبة : موضع فى أرض فلسطين . البغدادى : مراصد الاطلاع ، جـ ٢ ص ٩٢٨ .

الصليبية • فضلا عن تهديد الحجاج المسلمين وهم فى طريقهم الى الحرمين الشريفين • ولم يلبث بعد ذلك أن سار الى أيله (ايلات)(١) على خليج العقبة ، واقام بعض المراكز العسكرية بها • ثم واصل سيره جنوبا حتى وصل مع مجموعة من فرسانه الى دير سانت كاترين فى جنوب شبه جزيرة سيناء • واراد ومن معه النزول فى الدير • فرفض رهبانه خوفا من الخليفة الفاطمى الآمر بأحكام الله بن المستعلى فى مصر فعادوا الى بيت المقدس •

العودة الى القدس وتكرار المحاولة :

لم يتخل بلدوين الأول عن تحقيق حلمه بالاستيلاء على مصر ، فخرج فى مائتى فارس قبل وفاته ببضعة شهور (١١١٨م/٥١٢هـ) وعبر الطريق الساحلى من غزة الى العريش ومنها سار الى الفرما فوصلوها يوم ٢١ مارس ١١١٨م فوجدوها خالية من أهلها • عامرة بالزاد والمؤن • لأن أهلها تركوها خوفا من الصليبيين • فدخلوها وأحرقوا المسجد الجامع بالمدينة • وخربوا مساجدها ثم واصلوا سيرهم الى مدينة تانيس على بحيرة المنزلة •

وفيها أصيب بالمرض نتيجة تناوله أكلة سمك من البحيرة • فانصرف عائدا • وقبل ان يصل الى العريش داهمه الموت • فشق أصحابه بطنه وصبروه ، ورموا بأحشائه هناك فى المكان الذى يعرف اليوم بسبخة بردويل (بحيرة البردويل) نسبة اليه • وهى على بعد ٩٠ كم شرقى بورسعيد • وسوف تظل فكرة الاستيلاء على مصر فى مخططات الصليبيين حتى تتاح لهم فرصة تنفيذها خاصة وأن طريق التوسع أمامهم فى الشام أصبح أمرا متعذرا بعدما أصبحت الشام كلها فى ايدى نور الدين محمود •

---

(١) ايلات : على ساحل بحر القلزم مما يلى الشام • وهى مدينة اليهود الذين اعتدوا فى السبت • البغدادى : مراصد ، ج ١ ص ١٣٨ ، ياقوت : ج ١ ص ٢٩٢ •

وسيجد عمورى Amalric I (١) ملك بيت المقدس الفرصة سانحة للزحف على مصر عندما يتحرك نور الدين محمود ، ويبعث بجيوشه اليها . ويرجع السبب فى ذلك الى ضعف أواخر الخلفاء الفاطميين فى مصر(٢) والنزاع الذى دب بين الوزير شاور(٣) وصاحب الباب ضرغام(٤) وفرار شاور الى نور الدين محمود فى الشام فى ٧ ربيع أول سنة ٥٥٨هـ/١١٦٣م يستنجد به ضد ضرغام الذى استولى على الوزارة منه ، وتعهد شاور لنور الدين محمود أن يدفع اليه ثلث ايراد مصر ، وأن يعلن ولاءه الى نور الدين محمود عندما تعود اليه مقاليد الحكم .

الحملة النورية الأولى ٥٥٩هـ/١١٦٣م :

وافق نور الدين محمود على هذا العرض ليحقق هدفه فى استكمال تكوين الجبهة الاسلامية المتحدة التى تمكنه من مجابهة الصليبيين . واسترجاع المدن التى احتلوها على الساحل .

وأمر بمسير جيش كبير بقيادة أسد الدين شيركوه الذى صحب معه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبى . وكان فى السابعة والعشرين من عمره . سار هذا الجيش وفى معيته الوزير الهارب شاور ، وخرج نور الدين محمود بجيش آخر الى أطراف الامارات الصليبية المجاورة لحدود بلاده ، لكى يشغل الصليبيين عن التعرض لجيش شيركوه .

سار أسد الدين شيركوه بجيشه شرقى الكرك والشوبك فوصل الى

---

(١) عمورى Amalric I : ولى الملك بعد أخيه بلدوين الثالث .

(٢) راجع ابن واصل : (مفرج ، جـ ١ ص ١٣٧-١٣٨) حيث يذكر « ... والحكم للوزراء ، من قهر بالسيف أخذها ، والخلفاء بمصر تحت قهرهم ، وكان الأمر كذلك من أيام المستنصر بالله » .

(٣) شاور : هو شاور بن مجير السعدى (أبو شجاع) ابن واصل نفس المرجع السابق .

(٤) ضرغام : هو ضرغام بن سوار وكان يلقب (بالمنصور) ابن واصل نفس المرجع .

العقبة(١) ومنها الى صدر(٢) ثم الى السويس حتى وصل الى البركة(٣) ، وعلم ضرغام فاصابه الفزع لان الجيش الفاطمى فى مصر كان على درجة كبيرة من الضعف والتفكك .

واسرع ضرغام الى الاستعانة بالصليبيين فارسل الى عمورى ملك بيت المقدس يطلب مساعدته ضد جيش نور الدين محمود . وتعهد له بدفع مبلغ كبير من المال ومن الطبيعى أن يقبل عمورى هذه الدعوة فورا ، لانها تتفق ومخططه فى التوسع جنوبا نحو مصر وامر بمسير الجيش الى مصر .

وصل شيركوه الى مصر بجيشه قبل أن تصل جنود عمورى من الصليبيين ولقى الجيش الفاطمى بقيادة ناصر الدين اخى ضرغام فى بلبيس فهزمه . وفر ناصر الدين مع فلول جيشه الى القاهرة ، وتتبعه اسد الدين شيركوه بجيشه ، ودخل القاهرة فى أواخر جمادى الأولى سنة ٥٥٩هـ/١١٦٤م حيث التقى بضرغام نفسه على رأس جيش آخر فانزل به الهزيمة . فتخلى الجنود عنه وتركه جميع أعوانه ، فقتله بالقرب من مشهد السيدة نفيسة بنت الحسن ابن زيد بن الحسن بن على ، رضى الله عنهم ، كما قتل أخاه وكثيرا من جنوده واعيد شاور الى منصبه فى الوزاره(٤) .

عسكر أسد الدين شيركوه بجيشه فى بلبيس - شرقى الدلتا - ليدفع الصليبيين عن مصر ، ولكن شاور طلب منه العودة الى الشام(٥) ، ورفض

---

(١) العقبة : كانت تسمى عقبة ايله ثم اختصر الاسم بعد ذلك (المقريزى) الخطط جـ ١ ص ٢٩٨-٣٠٠ .

(٢) صدر : يذكرها ياقوت بانها قطعة خراب فى الطريق من ايله الى القاهرة .

(٣) البركة : هى بركة الجب وتقع فى الجهة البحرية (شمال) من القاهرة : عرفت أولا بجب عميرة ثم بأرض الجب ، وفى زمن المقريزى سميت بركة الحجاج لنزول الحجاج فيها عند خروجهم من مصر وعند عودتهم لها - المقريزى ، الخطط حـ ٣ ص ٢٦٥-٢٦٧ .

(٤) ابن الاثير : الكامل : جـ ١١ ص ٢٩٩ .

(٥) أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ص ١٣١ .

أن يعطيه المال الذى تعهد به . فاتخذ أسد الدين شيركوه اقليم الشرقية معسكرا لجنوده . وتحصن به وأصبح تحت سيطرته وحكمه(١) .

عندئذ لجا شاور الى الصليبيين كما فعل ضرغام من قبل . ووعد عمورى ملك بيت المقدس مبلغا كبيرا من المال نظير مساعدته . ورحب عمورى هذه المرة كذلك . فربما يتحقق حلمه فى امتلاك مصر . وأسرع بالمسير بالجيش ، لأنه كان يخشى ان امتلك نور الدين محمود مصر ، تصبح قوى الصليبيين واماراتهم واقعة بين شقى الرحى . محصورة من الشمال والجنوب تحيط بها قوى نور الدين محمود فى الشام ومصر .

وصل عمورى بجيشه وحاصر بلبيس ، وانضمت اليه قوات شاور واستمر الحصار ثلاثة شهور(٢) والمدينة صامدة لم ينالوا منها غرضا ، مع أن اسوارها من طين وليس لها خندق يحميها . ووصلت هذه الأخبار الى نور الدين محمود ، فجمع جيشه وهاجم المدن الصليبية القريبة منه ، وشدد هجومه على حارم وبانياس(٣) وطبرية وغيرها .

وعلم عمورى بما فعله نور الدين محمود ، وأنه استولى على حارم فخاف على مملكته فى بيت المقدس ، وعرض الصلح على أسد الدين شيركوه بشرط خروج الفريقين معا من الأراضى المصرية . ووافق شيركوه لشدة نقص الأمدادات والأقوات عنده ولغلبة جند عمورى وشاور على جنوده . وخرج بجنوده عائدا الى الشام فى ذى الحجة سنة ٥٥٩هـ/١١٦٤م . وعاد عمورى هو الآخر بجيشه الى بيت المقدس .

---

(١) ابن تغرى : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٣٤٧ .

(٢) حبشى : نور الدين والصليبيون ص ١٠٧ ، ابن واصل : مفرج ، جـ ١ ص ١٤٠ .

(٣) ابن واصل ، مفرج ، جـ ١ ص ١٤٠ ، وكذلك :
Wiet; L'Egypte Arabe, p. 294.

الحملة النورية الثانية ٥٦٢هـ/١١٦٧م :

انسحب كل من الرجلين (أسد الدين شيركوه وعمورى) مضطرا ومكرها ولكنه كان يفكر فى العودة اليهما طمعا فى ثروتها ، واستغلالا لموقعها . وشجعهما على ذلك ما لمساه بنفسيهما من ضعف شديد أصاب مصر . فقد وقف أسد الدين شيركوه على سوء احوال الحكومة الفاطمية فى مصر ، واكتشف مواطن الضعف فيها ، وتطلع ان يعود اليها ليفتحها ، ويكون نائبا لنور الدين محمود عليها ، وساعدته الظروف بتشجيع الخليفة العباسى لكل مشروع يرمى الى اسقاط الخلافة الفاطمية ، ومكاتباته الى جميع الأمراء يطلب اليهم مساعدة أسد الدين شيركوه(١) ثم أخذ اسد الدين شيركوه يتلمس الأسباب عند نور الدين . ويلح عليه حتى يزوده بجيش اكثر عددا من الجيش الأول ، وأوفر عتادا وعدة ، لكى يعود به الى مصر(٢) واخذ يشرح لنور الدين محمود تخوفه من هجوم صليبى عليها وامتلاكها . وقد تردد نور الدين محمود فى أول الأمر خشية تفرق قواته فى الوقت الذى كثرت فيه الاشتباكات بينه وبين الامارات الصليبية القريبة منه . ولكنه كان مدفوعا فى نفس الوقت للموافقة على ما طلبه شيركوه لكى يضم مصر اليه لاستكمال تكوين الجبهة الاسلامية الموحدة خاصة وأنه كان سنى المذهب . ويرى فى وجود خلافة فاطمية شيعية فى مصر سببا من الأسباب التى تؤدى الى استمرار ضعف الأمة الاسلامية ، ويعطله عن تحقيق الهدف الذى يسعى اليه . لذلك فكر فى القضاء على الخلافة الفاطمية فى مصر .

امر نور الدين محمود بخروج جيش كبير مع اسد الدين شيركوه . وساعدته الظروف السياسية عندما ارسل الخليفة العاضد الفاطمى الى نور الدين محمود يشكو من ظلم شاور واستبداده(٣) وكان نور الدين محمود

---

(١) William of Tyre, II; p. 314. وكذلك العرينى : الأيوبيون ، ص ٣٤ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم جـ ٥ ص ٣٤٨ .

(٣) ابن الاثير : الباهر ص ١٣٢ .

حانقا على شاور بسبب غدره وخيانته وعدم وفائه بوعده الذى اتفق عليه مع نور الدين محمود ولأنه استنجد بالصليبيين أعداء الدولة الاسلامية ٠ ولهذا عجل بارسال حملة شيركوه الثانية على مصر ٠

خرج شيركوه ومعه صلاح الدين الأيوبى فى الفى فارس غير الوف من المشاة وتحركوا فى ربيع الأول ٥٦٢هـ/١١٦٧م(١) وسار نور الدين محمود فى قوات أخرى خلفهم ليحمى ظهرهم حتى وصلت الحملة أطراف الشام ٠ واستمرت الحملة فى مسيرها حتى دخلت مصر ووصلت الى اطفيح(٢) ومنها عبر شيركوه وجيشه نهر النيل وعسكر فى الجيزة على الضفة الغربية من النهر فى مواجهة الفسطاط بمصر القديمة وأقام بها اربعا وخمسين يوما(٣) حتى تتضح له نوايا شاور ٠

أرسل شاور الى عمورى يستنجد به للمرة الثانية ٠ وأسرع عمورى بالخروج على رأس جيشه فى نهاية ربيع الآخر سنة ٥٦٢هـ/١١٦٧م ٠ وعسكر شاور بالجيش الفاطمى فى مدينة بلبيس انتظارا لوصول حليفة عمورى ٠ ولما وصل عمورى بجيشه وتكامل لقاء الحليفين ٠ اتجهت الجيوش الصليبية والفاطمية الى مصر وعسكرت على الضفة الشرقية من النيل فى مواجهة قوات شيركوه ٠ وتمكن عمورى من عقد اتفاق مع شاور يقضى بدفع ٤٠٠ الف دينار للقوات الصليبية نظير مساعدتهم له فى طرد قوات نور الدين محمود بقيادة شيركوه ، واجلائهم عن مصر ، واشترط عمورى أن يدفع شاور له نصف هذا المبلغ مقدما(٤) ومعنى ذلك أن شاور اتخذ من الصليبيين حاميا له وللخلافة الفاطمية فى مصر ٠ وقد حرص عمورى على اضفاء الصبغة الرسمية

---

(١) أبو شامة : الروضتين جـ ١ ص ١٤٢ ، وسبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ ٨ ق ١ ص ٢٦٨ ٠

(٢) مدينة قديمة كانت تسمى فى العصر اليونانى (افرودتيو) وهى الآن قرية فى مركز الصف بالجيزة ٠ على مبارك : الخطط جـ ٨ ص ٧٧-٧٨ ٠

(٣) أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ص ١٤٣ ٠

(٤) ابن واصل : مفرج جـ ١ ص ١٥٠ ٠

على هذا الاتفاق . فبعث سفارة من خاصته الى الخليفة الفاطمى العاضد لدين الله (ابو محمد عبد الله بن يوسف بن الحافظ لدين الله) حيث حصلت على موافقته على هذا الاتفاق .

عبر الجيشان المتحالفان - جيش عمورى وجيش شاور - نهر النيل الى الضفة الغربية وكانت الأخبار قد وصلت الى أسد الدين شيركوه عن هذا التجمع الكبير من هذين الجيشين ، وأدرك شيركوه حرج موقفه بعد عبور خصومه للنيل وضرب معسكرهم فى جزيرة الروضة .

فقرر الانسحاب الى جنوب مصر ولعله أراد بهذا الانسحاب أن ينهك قوة خصومه بسبب سيرهم هذه المسافة الطويلة فيتمكن من ملاقاتهم . والدخول معهم فى حرب سريعة ، وانزال الهزيمة بهم .

وعسكر أسد الدين شيركوه بقواته بالأشمونين قريبا من المنيا فى مكان يعرف بالبابين . ولما علم أسد الدين شيركوه بكثرة عدد الصليبيين والمصريين وما معهم من عتاد وعدة ، خشى على جنوده واستشار معاونيه ، فاشاروا عليه بعبور النيل الى الجانب الشرقى والعودة الى الشام . وخالفهم فى رأيهم الأمير شرف الدين برغش احد مماليك نور الدين محمود وقال لهم : « من يخاف القتل والأسر فلا يخدم الملوك ، بل يكون فى بيته مع امرأته . والله لئن عدنا الى نور الدين من غير غلبة وبلاء نعذر فيه ، ليأخذن أموالنا ، وما معنا من الاقطاع والجامكية(١) وليعودن علينا بجميع ما أخذناه منه من يوم خدمناه والى يومنا هذا . ويقول تأخذون أموال المسلمين وتفرون من عدوهم ، وتسلمون مثل مصر الى الكفار » (٢) فأخذ أسد الدين شيركوه بهذا الرأى ووضع خطته مع ابن أخيه صلاح الدين الأيوبى على أن يكون فى

---

(١) معناها المراتب Dozy; Supp. Dict. Arab ، ابو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ١٤٣ .

(٢) ابن واصل : مفرج ج ١ ص ١٥٠ .

القلب ومعه معظم العساكر لأن جنود الفاطميين والفرنجة يجعلون هجماتهم على القلب ، واعطى تعليماته الى صلاح الدين بعدم الهجوم على خصومهم ، وان يتقهقروا أمام هجماتهم وهم متماسكون واذا عادوا الى مكان المعركة فارجعوا فى اعقابهم فى تماسك وحذر ٠

انتقى أسد الدين شيركوه مجموعة من المقاتلين والفرسان وجعلهم معه فى الميمنة ٠ فلما اندفع الصليبيون والفاطميون فى هجومهم على القلب فى جمادى الآخرة سنة ٥٦٢هـ / ابريل ١١٦٧م نفذ صلاح الدين الخطة الموضوعة، وتقهقر فتبعته تلك القوات ٠ وعندئذ اتيحت الفرصة لأسد الدين شيركوه ومن معه من الفرسان فى الانقضاض على مؤخرة الجيشين الحليفين ٠ وانزل بهم الهزيمة المرة ٠ ولم يترك منهم سوى الجريح ٠ فلما عادت القوات المتحالفة (صليبية وفاطمية) ورأوا الهزيمة التى أبادت عسكرهم٠ عادوا من فورهم الى الضفة الشرقية من النيل حيث كان معسكرهم عند الفسطاط(١) ٠ ويقول صاحب الروضتين(٢) عن هزيمة الفرنج : « وكان هذا من اعجب ما يؤرخ ان الفى فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل » ٠ وكان من الممكن أن ينجح شيركوه فى امتلاك القاهرة لو انه تعقب عمورى وجيشه بعد الهزيمة مباشرة ٠ ولكنه أخذ يسير ببطء على الضفة الغربية للنيل حتى وصل الى الاسكندرية فسلمها اهلها اليه لميلهم الى المذهب السنى ، وتعبيرا منهم عن استيائهم من تحالف شاور مع الصليبيين(٣) ٠

أناب أسد الدين شيركوه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبى على الاسكندرية ، وترك معه حامية من الجند يقدر عددها بحوالى الف جندى ٠

وعاد شيركوه بمن معه من الجند الى الصعيد فاستولى عليه ٠ وجبى

---

(١) ابن واصل : مفرج جـ ١ ص ١٥١ ٠
(٢) أبو شامة : جـ ١ ص ١٤٣ ٠
(٣) ابن تغرى بردى : النجوم : جـ ٥ ص ٣٥٩ ، وأبو شامة : الروضتين جـ ١ ص ١٤٥ ٠

امواله واقام به ، وكانت هذه مدة كافية لعمورى وشاور أن يصلح كل منهما جنـده · ويعيد تنظيمه لمعاودة الهجوم ضد شيركوه ·

عمورى وشاور يهاجمون الاسكندرية :

ووجد عمورى وشاور فرصتهم فى الاسكندرية لعلهم يحـــرزون نصرا حاسما على صلاح الدين الأيوبى ، فساروا اليها وحاصروها من البر والبحر · وشددوا عليها الحصار حتى قل عند أهلها الطعام وصمد صلاح الدين الأيوبى وصـمد معـه شعب الاسكندرية الى أن سـاءت حالتهم(١) وأصـبح موقف صلاح الدين حرجا لقلة عدد جنوده ، وارسل الى قائده أسد الدين شيركوه يطلب منه النجدة فاسرع شيركوه بجنوده نحو القـاهرة يريد حصـــارها والاستيلاء عليها ، فاضطر شاور وعمورى الى رفع الحصار عن الاسكندرية ، وعادوا الى القاهرة خوفا من سقوطها فى يد أسد الدين شـيركوه · وارسـل عمورى وشاور من ينوب عنهما فى طلب الصلح من أسد الدين شيركوه · وكان الدافع لذلك أن الأخبار وصلت عمورى بتشديد هجمات نور الدين محمود على ممتلكات الصليبيين فى الشام خاصة فى بانياس وحصن الأكراد(٢) فتقدم بطلب الصلح ووافق أسد الدين شيركوه بعد أن دفع له الصليبيين والفاطميون خمسين الف دينار(٣) ، واشترط عليهم عدم بقاء الصليبيين فى مصر فوافقوه على ذلك فى شوال من هذه السنة · ولكن عمورى لم يخرج من مصر الا بعد أن عقد اتفاقية سرية مع شاور تنص على بقاء حامية صليبية تشرف على أبواب القاهرة ، وتدافع عنها اذا ما فكر شيركوه فى العودة اليها ، وان يدفع شاور جزية سنوية قدرها مائة الف دينار(٤) وأن يكون له مندوب خاص يشارك مع شاور فى شئون الحكم ·

---

(١) ابن الاثير : الكامل ، جـ ١١ ص ٣٢٦ ·
(٢) Wiet; op. cit., p. 296.
(٣) المقدسى : الروضتين ، جـ ١ ص ١٤٣ ·
(٤) ابن واصل : مفرج جـ ١ ص ١٥٥ ، وابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ٥ ص ٣٥٠ ·

الحملة النورية الثالثة ٥٦٤ـ٥٦٥هـ/١١٦٨ـ١١٦٩م :

لم يكن أسد الدين شيركوه هو السباق الى دخول مصر فى هذه الحملة كما حدث فى المرتين السابقتين ، وانما كانت الحامية الصليبية التى أبقاها عمورى فى مصر هى السبب فى دفع القوات الصليبية الى المجىء الى مصر لامتلاكها . فقد تمكنت هذه القوات من الاطلاع على عورة مصر وطمعوا فيها ، وايقنوا انه ليس لديها القوة التى تذود وتدافع بها عن نفسها أمام اى راغب وطامع فيها(١) ، فقد كتب ضباط الحملة الصليبية الى عمورى وأخبروه بخلوها من التحصينات والمواقع ، وهونوا عليه أمرها ، وانضم الى هؤلاء الصليبيين نفر قليل من أعيان المصريين ممن غلبوا مصلحتهم الشخصية ، ومنفعتهم الذاتية ، ودفعهم عامل الحقد على شاور والكيد له أن يتخذوا من خيانة أوطانهم ، وبيع دينهم بدنياهم ، والتغاضى عن شرفهم وكرامتهم ، وسيلة للوصول الى مآربهم ، فكتبوا الى عمورى بسرعة الحضور لامتلاك مصر . وكان من ضمن هؤلاء الخونة يحيى بن الخياط وكان من قواد الجيش الفاطمى فى مصر وكذلك ابن قرجلة(٢) .

عمورى يستعين ببيزنطة :

رأى عمورى أنه لابد من الاستعانة بقوة خارجية ، فاتجه الى الدولة البيزنطية باعتبارها اقرب الدول المسيحية اليه ، وعقد مع امبراطورها

---

(١) ابن واصل : مفرج جـ ١ ص ١٥٥ ، وابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ٥ ص ٣٥٠ .

(٢) كان يحيى بن الخياط من قواد الدولة فى عهد وزارة الصالح طلائع ابن رزيك ، ثم أصبح من رجال شاور ، بل أصبح اسفهسلار العساكر فى أول عهده ، ولكنه اختلف معه فى عهد وزارته الثانية وخرج عليه فى مدينة قوص وطلب الوزارة لنفسه ، ولكن الكامل بن شاور هزمه واخضع حركته . أبو شامه : الروضتين ، جـ ١ ص ١٧٠ ، ٢٢٦ . وعماره ويمنى : النكت العصرية ، ص ٣٥ ، ٦٩ ، ٧٨ ، ٣١٩ ، ٣٤٨ ، ٤٩٥ . وابن الاثير : الباهر ص ١٣٨ .

مانويل كومنين حلفا ، ودعم هذا الحلف بالزواج السياسى حيث تزوج بابنة اخى الامبراطور (الأميرة مارى) وكان السفير فى هذا الأمر هو المؤرخ الصليبى وليم الصورى William of Tyre ، وكان الاتفاق أن تقوم حملة مشتركة من البيزنطيين والصليبيين لاحتلال مصر ، ولكن حالت مشاغل الامبراطور فى البلقان دون تنفيذ هذا الاتفاق ، وطلب تأجيله بعض الوقت ، وكان ذلك من حسن حظ مصر ونور الدين محمود ، وكان من الممكن لعمورى أن ينتظر بعض الوقت لولا أن شاور تنكر لوعوده والالتزامات التى ارتبط بها مع عمورى - كعادته - فى الاتفاقية التى أبرمت قبل ذلك ، ويبدو أن شاور اضطر تحت ضغط الرأى العام الاسلامى من جانب ، وخشية أن تضيع مصر من يديه اذا ما دخلها البيزنطيون وعمورى معا من جانب آخر . اضطر الى أن يغير سياسته ويقلبها رأسا على عقب - فاتصل بنور الدين محمود طالبا مساعدته على التخلص من القوة الصليبية الموجودة فى مصر (١) .

عجلت هذه العوامل بقدوم عمورى الى مصر بجيشه منفردا دون حليفه . فوصل الى بلبيس أوائل صفر ٥٦٤هـ/١١٦٨م ووقف شعب بلبيس مع الحامية المصرية الموجودة بها يقاومون معا عمورى وجيشه ، واستبسلوا فى الدفاع عن بلدهم . فلجأ عمورى الى الشدة حيث قتل وسبى وأسر منهم الكثير(٢) ثم انحدرت قواته مسرعة نحو القاهرة وعسكرت جنوب الفسطاط فى العاشر من صفر فى مكان يسمى بركة الجيش . واصيب شاور بالهلع والفزع لحرج موقفه ، وضعف مركزه ، وقرب زوال سلطانه . فحاول أن ينقذ ماء وجهه فبدأ يستعد للدفاع عن القاهرة . وأمر باخلاء الفسطاط ، ونهبها وحرقها ، وظلت النار مشتعلة فيها أربعة وخمسين يوما (من ٩ صفر حتى ٥ ربيع الآخر)(٣) .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ص ١٥٧ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ص ١٧٨ .
(٢) ابن الاثير : الباهر ص ١٣٨ .
(٣) المقدس : الروضتين ، جـ ١ ص ١٥٤ .

لجأ شاور الى المداهنة والنفاق . فارسل الى عمورى يذكر له مودته ومحبته ، وانه مجبر على هذا العمل ، لان المسلمين لا يوافقون على التسليم ، ويطلب الصلح لئلا يسلم البلاد الى نور الدين محمود ، ووافق عمورى وطلب الف الف دينار ، ولكن شاور قدم اليه مائة الف وأخذ يماطل فى الباقى حتى يتضح له الموقف لأنه كان قد أرسل فى نفس الوقت الى نور الدين يطلب منه النجدة ضد عمورى . كذلك أرسل الخليفة الفاطمى العاضد بالكتب يطلب النجدة من نور الدين ، ولكى يثير شعوره ويحثه على الاسراع ، ارسل فى طى هذه الكتب خصلات من شعور نسائه ونساء القصر ، وتعهد الخليفة العاضد بتقديم ايراد ثلث البلاد الى نور الدين محمود ، وان يقدم المعونات اللازمة الى شيركوه من مصر .

استجاب نور الدين محمود لهذه الاستغاثة التى وصلت اليه من الخليفة الفاطمى بمصر . وأمر بمسير جيش كبير بقيادة اسد الدين شيركوه ، بعد ان جهزه بالعتاد والمال . فقد أنفق على تجهيزه مائتى الف دينار ، واعطى كل فارس عشرين دينارا غير محسوبة من المخصصات الثابتة له فى الديوان(١) .

وحاول صلاح الدين الأيوبى عدم الخروج فى هذه الحملة نظرا لما أصابه فى الاسكندرية ومما سببه أهلها على أيدى الصليبيين . ولكنه اضطر الى الخروج مع عمه أسد الدين شيركوه بعد الحاح عمه ورغبة نور الدين محمود الذى ألزمه بالخروج(٢) وقد ذكر صلاح الدين ذلك بنفسه فى حديثه للقاضى بهاء الدين بن شداد قاضى حلب — فى قوله « كنت أكره الناس فى الخروج فى هذه الوقعة ، وما خرجت مع عمى باختيارى » (٣) . تحرك

---

(١) العماد الأصفهانى : البرق الشامى . ق ١ ورقة ٧٥—٧٦ .
(٢) أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ص ١٥٥ ، ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ص ١٥٩—١٦٠ ، Gibb; Life of Saladin, p. 119.
(٣) ابن شداد : النوادر ، ص ٣٩ .

جيش نور الدين محمود بقيادة اسد الدين شيركوه فى ربيع الاول ٥٦٤هـ / ١١٦٨م وسلك طريق الصحراء حتى يتفادى الدخول فى حرب مع القوات الصليبية ، فوصل القاهرة فى ٥ ربيع الآخر سنة ٥٦٤هـ . والتف المصريون حوله ورحبوا به ، ليدفعوا به الصليبيين عن انفسهم . فادرك عمورى صعوبة موقفه ، واستحالة الاستيلاء على القاهرة بعد ان انضم اهلها الى شيركوه وقواته . فارتد الى بلبيس منسحبا مع قواته الصليبية . ومنها أسرع بالعودة الى مملكة بيت المقدس فى أواخر صفر ٥٦٤هـ / آخر نوفمبر ١١٦٨م(١) وهكذا كان انضمام شعب مصر الى أسد الدين شيركوه ، وقوات الشام واتحاد كلمة المسلمين من اهم الأسباب التى دفعت عمورى ، والقوات الصليبية الى الانسحاب من مصر وتركها خوفا من ان يصابوا بهزيمة محققة على أيدى هذه القوات الاسلامية العظيمة ، وخشية أن يهاجم نور الدين محمود بقايا القوات الصليبية فى الشام ، فينزل بها هو الآخر هزيمة ساحقة .

لقى اسد الدين شيركوه فى القاهرة ترحيبا كثيرا واحبه المصريون لانه دفع عنهم ظلم الصليبيين ، وظلم شاور ، ورحب الخليفة العاضد بمقدمه واستقبله ، وخلع عليه الوزارة وكرمه . وتقرر له ولقواته الجرايات الكثيرة والاقامات الوافرة(٢) .

اضطربت نفس شاور لهذه النتيجة التى وصل اليها أسد الدين شيركوه واحس ان سلطانه زائل لا محالة ، فامتلأ حقدا وغيظا ، واخذ يتظاهر بالورع والتقوى ، ويذهب كل يوم لزيارة قبر الامام الشافعى (رضى الله عنه) ليجذب اليه قلوب المصريين ، ولجأ الى المصانعة ، وتقرب الى أسد الدين شيركوه . وفى نفس الوقت دبر له مؤامرة للفتك به .

بأن يدعوه مع أمرائه لوليمة ثم يقبض عليهم ويتخلص منهم . ولكن

---

(١) ابن الاثير : الباهر ، ص ٢٥٠ .
(٢) ابن واصل : مفرج جـ ١ ، ص ١٦١ .

ولده الكامل (بن شاور) اعترض ونهاه وقال له : « والله لئن عزمت على هذا الأمر لأعرفن أسد الدين شيركوه » فقال أبوه « والله لئن لم نفعل لنقتلن جميعا » فأجابه الابن .. « صدقت » . ولئن نقتل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين خير من ان نقتل وقد ملكتها الفرنج ، وليس بينك وبين عود الفرنج الا أن يسمعوا بالقبض على اسد الدين شيركوه ، وحينئذ لو مشى الخليفة العاضد الى نور الدين لن يرسل جنديا واحدا ، ويملك الفرنج البلاد »(١) فعاد شاور الى أسلوب المماطلة فى تنفيذ العهود والالتزامات التى لنور الدين محمود .

اجتمع أعيان المصريين وقالوا لأسد الدين شيركوه : ان شـاور سبب فساد البلاد والعباد وطالبوا بقتله . وانقـاذ المسلمين من شره(٢) وتدارس شيركوه وصلاح الدين الأيوبى وسائر الأمراء ما طلبه المصريون - فتبين لهم خيانة شاور وغدره ، وعدم وفائه بالعهود ، وقرروا قتله . وانتهز صلاح الدين الأيوبى ومعه الامير عز الدين جورديك فرصة قدوم شاور لزيارة اسد الدين شيركوه الذى كان فى مسجد الامام الشافعى ، واصطحباه الى هناك . وفى الطريق قبضا عليه وأودعاه سجينا فى خيمة . ولـما علم الخليفة العاضد بالـخبر . أمر بأن يحمل رأس شاور الى القصر .

وقتل شاور فى السابع من ربيع الآخر سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩م(٣) وانتهت حياته بعد أن استغل النزاع القائم بين الخلفاء والأمراء والسلاطين والوزراء ليبقى على سلطانه ، فكان مقتله خاتمة للمتاعب التى تعرضت لها مصر فى

---

(١) أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ص ١٥٦-١٥٧ .

(٢) عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٧٠٠-٧٠١ . تشير بعض المراجع ان اعدام شاور كان بناء على أوامر الخليفة العاضد وان الذى قام بتنفيذه هو صلاح الدين ، (جب) : صلاح الدين ص ١١٩ .

(٣) قام الامير عز الدين جرديك بتنفيذ حكم القتل فى شاور وحز رأسه وحملها مندوب الخليفة العاضد للقصر ، وليس صلاح الدين كما تذكر بعض المراجع ذلك ، راجع أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ص ١٥٧-١٥٨ .

اواخر العصر الفاطمى(١) ولم يعد للصليبيين من ينصرهم ، أو يستنجد بهم ضد المسلمين كما كان يفعل شاور .

شيركوه وزيرا فى مصر :

اعلن الخليفة العاضد تعيين اسد الدين شيركوه وزيرا له ، ولقبه الملك المنصور امير الجيوش ومما ورد فى منشور الخليفة العاضد بتولية أسد الدين شيركوه الوزارة ما يلى « ... الى السيد الأجل الملك المنصور سلطان الجيوش ولى الائمة ، مجير الأمة ، أسد الدين ، كافل قضاة المسلمين ، وهادى دعاة المؤمنين ، ابى الحارث شيركوه ، عضد الله به الدين ، وامتع بطول بقائه امير المؤمنين ، وادام قدرته واعلى كلمته . سلام عليك . فانه يحمد اليك الله الذى لا اله الا هو ويساله أن يصلى على محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين - صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين ... » وقد كتب الخليفة العاضد بخط يده فى هذا المنشور تعبيرات منها « هنا عهد لم يعهد لوزير مثله ... » وختمه بالآية الكريمة « ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ... » صدق الله العظيم(٢) .

وسمح للناس بنهب قصر شاور ، واستقرت الأمور فى مصر لأسد الدين شيركوه ومدحه الشعراء بقصائد كثيرة نختار أبياتا من بعضها(٣) .

بالجـد ادركت مـا أدركت لا باللعب
كم راحـة جنيت من دوحـة التعب

تمـل من ملك مصر رتبـة قصرت
عنهـا الملوك فطـالت سـائر الرتب

فتحت مصر ، وارجو أن تصـير بهـا
ميسـرا فتـح بيت القـدس عن كثب

---

(١) العريني : الأيوبيون ، ص ٣٨ .
(٢) سورة النحل الاية ٩١ .
(٣) هذه الابيات مختارة من قصيدة بعث بها العماد الاصفهانى الكاتب من الشام - راجع ابو شامة : الروضتين ، جـ ١ ص ١٥٩ .

انت الذى هو فرد من بسالته
والدين من عزمه فى جحفل لجب

.......,..

يشكو اليك بنو الاسلام يتمهم
فقمت فيهم مقام الوالد الحدب

فى كل دار من الافرنج نادبة
بما دهاهم ، فقد باتوا على ندب

من شر شاور انقذت العباد ، فكم
وكم قضيت لحزب الله من أرب

ولكن الموت عاجل أسد الدين شيركوه ، فقد توفى بعد شهرين وخمسة أيام من توليه هذا المنصب (توفى يوم السبت ٢٢ جمادى الآخرة سنة ٥٦٤هـ / ٢٣ مارس ١١٦٩م)(١) فخلفه ابن أخيه صلاح الدين يوسف الأيوبى(٢) .

وقبل أن ننتقل فى دراستنا الى الدولة الأيوبية فى مصر والشام ينبغى أن نلقى نظرة سريعة بايجاز على نشأة وحياة وصفات مؤسس هذه الدولة ، لنقف على أثر البيئة التى تربى فيها ، ومدى ما تمتع به من صفات دفعته الى مركز الزعامة الحقة ، والقيادة الحكيمة ، لأن البيئة تؤثر فى نشأة الفرد وتربيته ، وصفات هذا الفرد وسلوكه وأخلاقه عنوان لشخصيته ، وهذه أضواء مسلطة على الانسان يستطيع الباحث أن يستشف من خلالها الكثير من قدرات هذا الفرد ، هذه القدرات التى تمهد له سبل النجاح أو ترديه فى مسالك الفشل .

---

(١) كان أسد الدين شيركوه محبا لكثرة الاكل وخاصة اللحوم المدهنة ، فاصيب بسبب ذلك بالتخمة والخوانيق ، وكان يعانى منها كثيرا ولكنه لم يمتنع ، وكان موته بسبب خانوق عظيم قضى عليه .

(٢) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٤٠ ، وكذلك ابو شامة : المرجع السابق نفسه .

الفصل الثالث

صلاح الدين الأيوبى

نشاته وحياته وصفاته :

هو يوسف بن أيوب بن شاذى ، موطن اسرته بلدة دوين(١). وترجع اصولهم الى الأكراد الزاودية(٢) أحد بطون الهذيانية(٣) . وكان شاذى قدم باسرته الى العراق ، ودخل ولداه نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه فى خدمة مجاهد الدين بهروز(٤) الخادم ، شحنة(٥) بغداد ، فلما رأى اخلاص نجم الدين ايوب ولاه دزدارا على تكريت(٦) التى اعطيت له من قبل السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقى .

أقام نجم الدين أيوب وأخوه أسد الدين شيركوه فى تكريت مدة من الزمان الى أن وقع صدام بين عماد الدين زنكى بن آقسنقر والخليفة العباسى المسترشد بالله الفضل بين المستظهر بالله سنة ٥٢٦هـ/١١٣٢م(٧) وأصيب

---

(١) بلدة من نواحى أرّان، آخر حدود أذربيجان بالقرب من تفليس ، فيها ولد نجم الدين أيوب والد صلاح الدين . راجع ياقوت : المعجم ، جـ ٢ ص ٤٩١ وكذلك ابن خلكان : الوفيات ج ٣ ص ٤٧٠ حيث ضبطها دُوين.

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ٦ ص ٤-٥ .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٢ .

(٤) بهروز : كلمة أعجمية مكونة من لفظين : به ومعناها جيد ، روز ومعناها يوم ، فالمعنى يوم جيد ، أو طيب ، واسمه كاملا مجاهد الدين بهروز بن عبد الله الغياثى ، وكان خادما روميا أبيض البشرة ، تولى شحنة بالعراق من قبل السلطان مسعود السلجوقى ، توفى فى رجب سنة ٥٤٠هـ/١١٤٥-١١٤٦م .

(٥) ومعناها رئيس الشرطة أو مدير الأمن المشرف على حراسة المدينة ، وكان الناس يطلقون هذا الاسم بمعنى الامير فى العصور الوسطى ، وهو خطأ شائع فى ذلك الوقت . المقريزى : السلوك ، جـ ١ ص ٣٥ ، ٣٦ ، ٩٧٩ ، وكذلك : Dozy : Sup. Dict. Arab. (art shihnah)

(٦) تكريت : بلدة مشهورة بين بغداد والموصل ، ولها قلعة حصينة تطل على غرب دجلة . ياقوت : نفسه ، جـ ١ ص ، وكلمة دزدار معناها متولى القلعة ، وهى أعجمية من لفظين دز = قلعة ، دار = مالك أو حافظ . راجع الجواليقى : المعرب ، ص ٢٦٧ .

(٧) راجع تفاصيل هذا الصدام (الحرب) فى المنتظم ، لابن الجوزى (جـ ١٠ ص ٣٦) وكذلك ابن الاثير : الكامل ، جـ ١٠ ص ٢٨٩ .

عماد الدين زنكى بالهزيمة على يد قراجة الساقى فى بغداد فانسحب الى تكريت(١) ، فاقام له نجم الدين أيوب المعابر وقدم له السفن التى عبر بها نهر دجلة مع جنوده ، كما قدم له المساعدات وبالغ فى اكرامه ، فحفظ عماد الدين هذا الصنيع وهذا الجميل لنجم الدين أيوب ٠

وحدث ان نجم الدين أيوب كان يرمى ذات يوم بالنشاب ، فاصيب مملوك بهروز الخادم بواحدة منها فقتل(٢) ، وخاف بهروز على نفسه فامر باخراجهم من القلعة لانه كان غاضبا من قبل على نجم الدين ايوب لتقديمه المساعدة الى عماد الدين زنكى الذى حاصر الخليفة فى بغداد ، ووقف يساعد مسعود بن محمد بن ملكشاه الذى حاول عزل أخيه الخليفة ، ولكن عماد الدين هزم وفر الى تكريت ٠ فى هذه الظروف الصعبة التى كانت تمر بنجم الدين أيوب ولد يوسف (صلاح الدين) فى تكريت سنة ٥٣٢هـ / ١١٣٧م(٣) ، مما يقطع بأن اقامة نجم الدين أيوب فى تكريت لم تطل بعد ولادة صلاح الدين يوسف ٠

توجه نجم الدين أيوب باسرته ومعه اسد الدين شيركوه الى عماد الدين زنكى فى الموصل ، فأحسن اليهما ، واقطعهما اقطاعات كثيرة ، وادخلهما فى خدمته ، وعندما فتح عماد الدين زنكى بعلبك جعل نجم الدين أيوب دزدارا على قلعتها فى سنة ٥٣٤هـ/١١٤٩م ، فقضى صلاح الدين يوسف بها طفولته وجزءا من شبابه ، حيث أشرف والده على تربيته ، فقد كان نجم الدين أيوب ذا عقل راجح ، ورأى سديد ، وسيرة حسنة(٤) ٠

---

(١) ابن الاثير : الدولة الاتابكية ص ٨٢ ٠

(٢) جاء فى بعض المراجع ان أسد الدين شيركوه هو الذى قتل المملوك خطأ ونحن نميل الى ما اثبتناه ٠

(٣) ابن شداد : النوادر ، ص ٦ ، ابن خلكان : الوفيات ، ج ٣ ص ٤٧٤ ٠

(٤) ابن الاثير : الدولة الاتابكية ، ص ٢١٣ ٠

ويبـدو ان الظـروف السياسية التى كانت تحيط بعمـاد الدين زنكى وطموحه فى توسيع ملكه ، وضم الامارات المجاورة له والقريبة من الموصل لكى يحقق حلما طالمـا راوده وهو تكوين جبهة اسلامية متحدة من العراق والشام تنضم اليهما مصر لمجابهة الصليبيين وطردهم من الأراضى الاسلامية . هذه الظروف وهذه الطموحات ربطت بين نجم الدين أيوب ومعه أخيـه أسد الدين شيركوه وبين الأتابك عماد الدين زنكى ، وسوف يستمر هـذا الرباط فى عهد ولده نور الدين محمود من بعده .

فلما قتل عماد الدين زنكى فى جعبر سـنة ٥٤١هـ/١١٤٦م راسـل مجير الدين ابق — صاحب دمشق — وأتابكه معين الدين انر(١) راسلا نجم الدين أيوب ليسلم لهما بعلبك مقابل اقطاع كبير فى دمشق ، فوافقهما على ذلك وسلم اليهما بعلبك ، ونزل على دمشق فى اقطاعه الجديد . ويبرر بعض المؤرخين تسليم بعلبك من جانب نجم الدين أيوب انه بعث الى الامير سيف الدين غازى بن عماد الدين زنكى (صاحب الموصل) — وهو الاخ الاكبر لنور الدين محمود — برغبته فى تسليم بعلبك اليه ، ولكن سيف الدين غازى أبطأ فى الرد على نجم الدين أيوب ، فاضطر الى تسليم المدينة الى مجير الدين ابق خشية الاستيلاء عليها عنوة ، فيحرم من الاقطاع الجديد الذى كان قد وعد به .

ثم التحق أسد الدين شيركوه بخدمة نور الدين محمود وأخلص فى عمله وأصبح مقربا عند نور الدين محمود ، ومقدما على سائر الأمراء لمـا تميز به أسد الدين شيركوه من صفات جليلة حتى أقطعه نور الدين محمود مدينتى حمص والرحبة .

---

(١) بالفتح فى معظم المراجع ، ولكن ابن واصل والذهبى يكتبانه بالضم كما فى المتن ص ٥٠ وقد توفى معين الدولة أثر سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م ودفن بدمشق بين دار البطيخ والشامية ، راجع النعيمى : الدارس فى المدارس جـ١ ص ٥٨٨ ، وابن الاثير : الباهر ، ص ١١٩—١٢٠ .

تطلع نور الدين محمود الى امتلاك مدينة دمشق ، ليحقق بذلك مشروع الجبهة الاسلامية المتحدة الذى بداه والده ، فامر اسد الدين شيركوه بالكتابة الى أخيه نجم الدين أيوب المقيم فى دمشق وطلب منه مساعدة نور الدين محمود فيما هو عازم عليه . وفى مقابل ذلك منحهما شيئا كثيرا من الاقطاع هناك ، وتمكن نجم الدين أيوب من تسليم دمشق اليه حسب الاتفاق ، وأصبح أسد الدين شيركوه مقدم جيوشه .

يذكر المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين انه كان شديد المواظبة على الصلاة فى الجماعة ، حتى فى حالات المرض التى المت به ، كما كان مواظبا على اداء السنن ، وكان يقوم جزءا من الليل ، كما كان محبا لسماع القرآن الكريم مشجعا على تلاوته ، فقد مر ذات يوم على صبى صغير وهو يقرأ القرآن بين يدى والده ، فاستحسن تلاوته ، فأوقف عليه وعلى ابيه جزءا من مزرعة . كما كان محبا لسماع الحديث الشريف وتفسيره ، وكان خاشع القلب ، غزير الدمعة ، رقيق الاحساس ، فمما يرويه ابن شداد(١) عنه : « كان يحب أن يقرأ الحديث بنفسه وكان يدعونى اليه فى خلوته ويقرأ ، فاذا مر بحديث فيه عبرة رق قلبه ودمعت عينه » .

كان كريما كثير العطاء ، لدرجة أن نواب خزائنه كانوا يخفون عنه شيئا من المال خشية أن يفاجئهم امر مهم ، لعلمهم بانه متى علم بوجود مال فى الخزينة أخرجه وأنفقه . يروى المؤرخون أن جمعا من الوفود اجتمع عنده بالقدس الشريف ، وكان قد عزم على المسير الى دمشق ، ولم يكن فى الخزانة مال يعطى منه هذه الوفود ، وحاول قاضيه ابن شداد اقناعه بصرفهم لظروف انتقاله الى دمشق ، ولكنه رفض وباع قرية من بيت المال ، ووزع ثمنها لهذه الجموع ، ولم يبق منه درهما واحدا(٢) .

---

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٠ .
(٢) ابن شداد : المرجع نفسه ، ص ١٧ .

كان عادلا محبا للعدل والعدالة فى كل شىء ، كثير الميل الى الرأفة والرحمة ، ونصرة الضعفاء على الأقوياء ، كان يجلس للنظر فى المظالم يومى الاثنين والخميس ، تروى كتب السيرة والتاريخ الكثير عن مواقفه المشهورة فى خلقه الرحيم وعدله وكرمه وحلمه ومحافظته على اقدار العلماء والقضاة وتكريمه لهم . وكان — رحمه الله — لا يحب الفلاسفة والمعطلة والدهرية ومن يعاند الشريعة . يروى ابن شداد(١) قصة الرضيع المخطوف التى شاهدها بنفسه وقد جاءت أمه الصليبية وهى تعوى من البكاء ، فما كان منه الا أن أمر برد طفلها اليها ودفع لمن اشتراه تعويضا عن ثمنه ، ولم يبرح مكانه فى تل الخروبة الا بعد ان اطمانت على وليدها ، ثم أمر بها فحملت على فرس هى وطفلها والحقت بمعسكر الصليبيين ، وكان الذى دفع هذه الأم لمقابلة صلاح الدين ما قاله لها امراؤها من أن صلاح الدين « رحيم القلب ... فانه يرده عليك » .

غ كان صابرا محتسبا ، ظهر صبره واحتسابه واضحا وهو معسكر بمرج عكا حيث اعتراه مرض أصاب نصفه الأسفل (بدماميل = خراريج) المتـه اشـد الألم ، فكان لا يستطيع الجلوس مطلقا ، ومع ذلك كان يركب ويمر على الأطلاب (قواد الكتائب) وينظم جنوده ، ويشرف على المعسكر ، وهو صابر على شدة الألم وقوة ضرب الدماميل عليه . بلغ عدد ما وهبه للمجاهدين من الخيل وهو على مرج عكا عشرة آلاف فرس .

ومن مظاهر شدة صبره واحتسابه مفارقة أولاده الصغار ، ورضـــاه بالبعد عنهم ، على الرغم من شغفه بهم وشدة حبه لهم ، واحتماله خشونة العيش والحياة فى خيمة لحبه الجهاد ، مع قدرته على أن يعيش فى رغد وترف كما كان يفعل الحكام والملوك سـواه .

كان كثير التغـافل عن ذنوب أصحابه ، يسمع من احـدهم ما يكره

---

(١) النوادر ، ص ١٥٨—١٥٩ .

ولا يعلمه بذلك ولا يتغير عليه ، طلب ذات مرة المـاء فلم يحضر ، وعاود الطلب فى مجلس واحد خمس مرات فلم يحضر ، فقال يا اصحابنا ! والله قد قتلنى العطش !! فاحضر المـاء اليه فشربه ولم ينكر التوانى فى احضاره ٠

بلغت كثرة النفقة فى الصدقات انه انفق كل ما يملك من أموال ولم يترك فى خزائنه عند موته سوى سبعة وأربعين درهما فضة ، ودينار واحد ذهبا(١) ولم يترك من بعده دارا أو عقارا أو أملاكا أو أرضا مزروعة أو غير مزروعة(٢) ٠ ومع أنه كان قد عقد العزم على أداء فريضة الحج فى العام الذى توفى فيه ، الا ان فراغ يده من المـال ، وانشغاله الدائم بأمر الجهاد ومصلحة العباد أعاقته عن هذه الفريضة ٠

وكان محبا لمجالسة العلماء وأكابر الفقهاء ، وقد جمع له الشيخ الامام قطب الدين النيسابورى(٣) عقيدة تحوى جميع ما يحتاج اليه فى سلامة العقيدة ، فكان من شدة حرصه عليها يعلمها الصغار من أولاده حتى ترسخ فى أذهانهم ويأخذها عليهم وهم يقرؤونها(٤) ٠

كما كان شجاعا ، قوى النفس ، شديد الباس ، عظيم الثبات ، لا يخشى العدو ، وكان يستطلع أحوال العدو بنفسه فى كل يوم اذا كان قريبا منـه ، واذا اشتدت الحرب يطوف بين الصفين ، ويخترق العساكر من الميمنة الى الميسرة ، ليرفع الروح المعنوية لجنوده ٠ بلغ من الشجاعة انه لم يكن يستكثر

---

(١) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، جـ ٨ ق ١ ص ٤٣٢ وقد ذكر ابن شداد (ص ١٠) ان الدراهم المتبقية ستة وثلاثون درهما فقط ، وفى بعض المراجع أربعين درهما ٠

(٢) ابن شداد : المرجع نفسه ص ٨ ٠

(٣) هو أبو المعالى مسعود بن محمد بن مسعود النيسابورى قطب الدين متوفى سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م ، فقيه شافعى تعلم بنيسابور ومرو ، دخل دمشق سنة ٥٤٠ هـ واستقر بها ـ الزركلى : الاعلام جـ ٧ ص ٢٢٠ ٠

(٤) ابن شـداد : النـوادر ص ٧ ، المقـريزى : السـلوك جـ ١ ص ٤٢ـ٤٣ ٠

العدو مطلقا ، ولم يستعظم أمرهم قط ، وكان مع ذلك دائم الفكر والتدبير ، يرتب جنوده وهو هادىء الطبع بدون حدة ولا غضب يعتريه فى مثل تلك المواقف .

كما كان يحسن الى الصوفية كثيرا ، ويستشيرهم فى كثير من الامور يبجل علماءهم ويجلس اليهم ، ويستمع الى نصحهم ، فوقفوا الى جانبه فى حروبه ضد الصليبيين فى مواقع كثيرة ، وابلى اهل الاسكندرية معه فى حصار الفرنج له وهو بها بلاء حسنا وكان الكثير من أهل الاسكندرية صوفيين .

ويظهر تقدير صلاح الدين وحبه للصوفية انه أوقف عليهم فى الاسكندرية كل ما صادره من الفرنجة بعد هزيمتهم سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م كما أحسن اليهم كثيرا بعدما فتح حلب سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م ولذلك يقول احد الصوفية من أهل الاسكندرية فى صلاح الدين يمدحه :

بدولة الترك عـزت ملـــة العـــرب
وبابن أيــوب ذلت شــيعة الصــليب

وفى زمـــان ابن ايـــوب غـدت حلب
من أرض مصر ، وعادت مصر من حلب

ولابــن ايـــوب دانــت كل مملكـــة
بالصـفح والصـلح أو بالحرب والحرب

والدهر بالقـــدر المخـدوم يخـــدمه
والأرض بالخلق والأفلاك والشـهب(١)

وقصارى القول انه كان نادرا فى عصره ، فقد كان كثير المحاسن والأفعال الجميلة ، عظيم الجهاد ، خلف ذرية كثيرة العـدد بلغت سبعة عشر ولدا ذكـرا .

---

(١) عبد الرحيم زلط : ازدهار الشعر المصرى فى القرن السابع الهجرى رسالة دكتوراة بآداب عين شمس ١٩٧٤ ، ص ٢٤٩ وما بعدها .

« صلاح الدين الأيوبى وزيرا فى مصر »

تطلع اكابر الأمراء الذين كانوا فى جيش أسد الدين شيركوه الى منصب الوزارة ، ولكن الخليفة العاضد استدعى صلاح الدين وخلع عليه خلعة الوزارة ، وأصدر له تكليفا بذلك فى سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩م ولقبه بالملك الناصر(١) وقد امتنع صلاح الدين عن قبول الوزارة ، ولكن الزم هذا الأمر(٢) فهاجت نفوس بعض هؤلاء الأمراء ، وتعصبوا ضده ، وامتنعوا عن أن يكونوا فى جيشه وتحت نفوذه ، لأنهم أتراك وهو كردى ، وهو أصغر منهم سنا فعادوا الى الشام ، وبقى معه نفر منهم ، فقد انضم اليه ضياء الدين عيسى الهكارى الذى أقنع سيف الدين على بن المشطوب بالانضمام الى صلاح الدين ، ومما قاله له : « ... ان هذا الامر لا يصل اليك مع وجود عين الدولة وشهاب الدين الحارمى وابن تليل » ومازال بالحارمى حتى اقنعه هو الآخر بالانضمام الى صلاح الدين ثم انضم الآخرون كذلك بما بذله الهكارى من جهد حتى أعاد الأمور بينهم وبين صلاح الدين على خير ما كانت عليه .

والواقع ان الذى دفع الخليفة العاضد لاختيار صلاح الدين الأيوبى للوزارة اعتقاده بضعف صلاح الدين لصغر سنه اذ أنه لم يتجاوز الثانية والثلاثين ، وعدم وجود حاشية له من الجنود ، مما يجعله مطيعا للخليفة ولا يجرؤ على مخالفته ، على أن هناك رأيا يقول ان الخليفة ربما ظن انه يستعين بصلاح الدين فى القضاء على بقية أمراء نور الدين الذين جاءوا فى

---

(١) راجع نص هذا التقليد الذى كتبه القاضى الفاضل وجاء بكتاب الروضتين ، لأبى شامة (جـ ١ ص ١٧٣) بيروت (بدون) ، ومما ورد به « ... والجهاد أنت رضيع دره ، وناشئة حجره ، فشمر له عن ساق من القنا ، وخض فيه بحرا من الظبى ، حتى يأتى الله بالفتح الذى يرجو أمير المؤمنين أن يكون مذخورا لأيامك ، وشهودا لك يوم مقامك » .

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٣٧ ، وابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ص ١٦٩

الجيش مع اسد الدين شيركوه وبذلك يتخلص من نفوذ نور الدين محمود كما تخلص من خطر شاور(١) ويبدو لى ان درجة الضعف الكبيرة التى كان عليها العاضد والخلافة الفاطمية ، والتفاف الشعب المصرى حول شيركوه وصلاح الدين (فى الاسكندرية خصوصا) تجعلنى استبعد هذا الظن ، خاصة لأن العاضد كان فى حاجة ماسة لمثل هذه القوات لكى تحميه وتحمى الخلافة الفاطمية فى مصر من خطر الوقوع فى أيدى الصليبيين .

لم يكد صلاح الدين يتخطى العقبة الأولى (الأمراء فى جيش أسد الدين شيركوه)(٢) حتى واجه العقبة الثانية : فقد قام بها الجند السودانيون بزعامة الطواشى مؤتمن الخلافة جوهر الخصى ، الذى كان يتحكم فى القصر ، وكان يطمع ان يخلف شاور فى الوزارة ، فحينما أراد مؤتمن الخلافة جوهر الخصى التخلص من صلاح الدين فكر فى الاستعانة بملك الصليبيين عمورى على أن يتم تقسيم مصر بين الثائرين السودانيين أتباع مؤتمن الخلافة وبين هؤلاء الصليبيين ولذلك كتب مؤتمن الخلافة رسالة أخفاها فى نعليه وخاط عليه ، واعطى النعلين لرجل من أتباعه ليسلمها الى ملك الفرنجة ، وسار الرجل حتى وصل البئرة البيضاء(٣) ورآه رجل تركمانى وهو يحمل النعلين فى يده ، فانكرهما هذا التركمانى فاخذهما منه ، واحضرهما الى صلاح الدين ففتقهما فوجد مكاتبة أهل القصر الى الصليبيين ، واستدل صلاح الدين على كاتب الرسالة وكان يهوديا ، ولكى يعصم نفسه من عقاب صلاح الدين أعلن اسلامه ، واعترف بأنه كاتب الرسالة ، وتغاضى صلاح الدين عن مؤتمن

---

(١) أبو شامة : الروضتين : جـ ١ ص ١٧٣ ، عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٧٠٦-٧٠٧ .

(٢) نذكر من هؤلاء الأمراء عين الدولة الياروقى ، وقطب الدين خسرو بن تليل ، وعلى بن أحمد المشطوب ، وشهاب الدين الحارمى وهو خال صلاح الدين .

(٣) تقع هذه البئر بمركز بلبيس ، ومكانها اليوم عزبة أبى حبيب الواقعة فى حوض البيضاء ناحية الزوامل ، ولايزال اسم البيضاء على الحوض المذكور . ابن تغرى بردى : النجوم حـ ٨ ص ٤٤ هـ ٢ .

الخلافة فترة من الزمن لشدة حذره وحرصه ، وعندما لاحت الفرصة بعث صلاح الدين بعض رجاله فقتلوه فى ٢٥ ذى القعدة سنة ٥٦٤هـ / ٢٠ اغسطس ١١٦٩م ، وهو يتنزه فى حديقة قصره بالحرقانية بالقرب من قليوب(١) ، وعين صلاح الدين رجلا من حاشيته وجعله زمـام القصر هو بهـاء الدين قراقوش ، فمسك زمام القصر ، فما كان يدخل اليه شىء ولا يخرج منـه شىء الا بمرأى ومسمع منه ، فضاق اهل القصر بسببه . وقد حاول اتباع مؤتمن الخلافة وكانوا يزيدون على خمسين الف جندى التصدى لصلاح الدين الأيوبى وقتله ، فامر صلاح الدين اخاه الاكبر توران شاه بقتالهم ، فقطع دابرهم(٢) فى وقعة فيما بين القصرين(٣) ثم تبعهم الى الجيزة حيث أبادهم وقضى عليهم .

على ان ثمة عقبة ثالثة وقفت فى طريق صلاح الدين ، واعنى بهـا القوات الصليبية فى الشام . فقد شعر هؤلاء الصليبيون بالخطر الذى يحيق بهم لوجود صلاح الدين فى مصر ووجود نور الدين محمود بقواته فى الشام ، فقد أصبحوا واقعين بين شقى الرحى ولابد ان يفقدوا سيطرتهم على الجزء الشرقى لحوض البحر الابيض المتوسط .

الحمـلة المشـتركة :

طلب عمـورى ملك الصليبيين المسـاعدة من الغرب الأوربى ، ولكن الأوربيين تقاعسوا فى تقديم مساعدتهم وفشل عمورى ملك مملكة بيت المقدس الصليبية فى الحصول على مساعدة من الأوربيين ، فلجأ الى مانويل كومنين امبراطور بيزنطة ، وجدد معه الحلف الذى كان قد عقده معه من قبل ،

---

(١) ابن واصل : مفرج جـ ١ ص ١٧٥–١٧٦ .
(٢) يذكر المقريزى (الخطط ، جـ ٣ ص ٢٩) أن السودانيين كانو على درجة كبيرة من الجبروت ، وكان لهم فى كل حى مكان خاص بهم ... الخ وقـد ذكر جب (صـلاح الدين ، ص ١٢٠) أن عددهم كان ثلاثين الف سـودانى .
(٣) ابن الاثير : الكامل ، جـ ١١ ص ٣٤٧ .

وتم الاتفاق بينهما على غزو مصر واقتسامها ، وجهز الامبراطور مانويل اسطولا بحريا كبيرا أرسله الى قبرص وصقلية فى ٥٦٤هـ / يوليه ١١٦٩م حيث أمدتهم هذه الجزر بالآلاف من الجنود(١) وبكثير من العتاد والمؤن والأموال ثم واصل هذا الأسطول ابحاره الى صور وعكا لوضع الخطة المشتركة وكانت تقضى بمهاجمة مصر عن طريق ميناء دمياط بواسطة الأسطول البيزنطى ، وبرا بجيوش الصليبيين التى تزحف الى دمياط عن طريق الفرما ، بكل ما تحمله من منجنيقات ودبابات وآلات حصار ، وبذلك يمكن لهم القضاء على صلاح الدين الأيوبى وجيشه فى مصر .

ابحر الأسطول البيزنطى وقد انضمت اليه سفن من هذه الجزر (قبرص وصقلية) فوصل الى خارج مياه دمياط ، وأرست تجاه المدينة ، لأنها لم تتمكن من دخول المدينة لوجود الماصر (٢) ، وفى نفس الوقت تحركت القوات البيزنطية والصليبية من عسقلان فى سنة ٥٦٦هـ / منتصف أكتوبر ١١٦٩م فوصلت الى الفرما بعد تسعة أيام ، ومنها واصلت السير جنوب دمياط .

---

(١) راجع تفاصيل هذه الاتصالات بين البيزنطيين وعمورى فى حسن حبشى : نور الدين والصليبيون ، ص ١٣٤-١٤٠ .

(٢) الماصر : عبارة عن سلاسل حديدية سميكة تمتد فى مدخل الميناء بالعرض لتمنع دخول سفن الأعداء ، وقد استعمل المصريون خلال الحرب العالمية الثانية فى مدخل الاسكندرية نوعا من العوامات (برامل) المستطيلة بطول ٦ متر تقريبا وقطر ٦٠ سم ، وكان يتدلى من كل عوامة شبكة من الصلب متداخلة الحلقات ، تنزل فى أعماق البحر وكانت هذه العوامات يربط بعضها ببعض لتغلق فتحة البوغاز (مدخل الميناء) فتمنع دخول السفن ، وتسرب الغواصات وكانت هذه الشباك متصلة بتيار كهربائى واجراس تعطى انذارا عند ملامسة أى غواصة أو سفينة لها ، لكى تستعد حامية الميناء للدفاع ومن المدهش حقا ان احدى الغواصات الايطالية الصغيرة تمكنت من الدخول الى الميناء وهى قابعة أسفل باخرة تجارية كبيرة فى صباح احد أيام صيف ١٩٤٢م ، وتمكنت الغواصة من اصابة مركز قيادة الاسطول البريطانى وهى السفينة الحربية (ولى ويتش) بطوربيد مباشر ، وتحولت الميناء فى دقائق الى ساحة معركة حربية حيث كانت تلقى السفن الحربية البريطانية بقنابل الاعماق ، وفعلا أصيبت الغواصة وقتل قائدها بينما قبض على مساعده ليلا وهو يحاول الخروج من باب جمرك ٢٣ وكان مبللا بالماء (المؤلف) .

وصلت هذه الانباء الى صلاح الدين الأيوبى ، ولم يكن يتوقع غزو مصر عن طريق دمياط ، وكان يظن ان الصليبيين قادمون كالمعتاد عن طريق الشرقية(١) ، واخذ يفكر لو انه خرج الى دمياط ، فمما لاشك فيه ان رجال القصر الفاطمى واتباعهم سوف يجدونها فرصة فى الانقضاض على جنده ويتخلصون منه ومن سيطرته التى احكمها على مصر ، ولو أنه بقى فى مصر فان الصليبيين والبيزنطيين سيحتلون دمياط ، ولهذا أرسل الى دمياط الملك تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب (ابن اخيه) ومعه شهاب الدين الحارمى (خاله) فدخلا دمياط قبل وصول الصليبيين وامدهما صلاح الدين بالرجال والسلاح والذخائر والمال .

وفى نفس الوقت كتب صلاح الدين الى قائده « نور الدين محمود » يصف له موقفه ، فجهز اليه نور الدين محمود العساكر ارسالا كلما تجهزت طائفة أرسلها(٢) ثم لجأ الى مهاجمة المدن الصليبية للضغط على الصليبيين واجبارهم على الانسحاب وترك دمياط ليحافظوا على مدنهم فى الشام .

صمدت دمياط خمسين يوما وهى تدافع عن نفسها ، واستغل اهلها جريان مياه النيل نحو الشمال واطلقوا على سطح المياه أوانى فخارية مملوءة بمواد مشتعلة فاصابت اسطول العدو باضرار كبيرة ، واضطرته الى الانسحاب فى عرض البحر مبتعدا عن لسان النيل الذى يشرف على مدخل المدينة(٣) ولم يلبث أن اشتد الضيق بجنودهم المعسكرين فى البر عندما نفذت التموينات

---

(١) لقد قلد المرحوم جمال عبد الناصر هذا القول عندما هاجمتنا اسرائيل واصابتنا بالهزيمة المرة سنة ١٩٦٧ حيث قال : لم اكن اتوقع ان تهاجمنا اسرائيل عن طريق السواحل حيث طارت قاذفاتها فوق سطح البحر على ارتفاع منخفض وضربت جيش مصر ومزقته ، وفى رايى أن هذا ضعف من القائد ، اذ الواجب عليه أن يضع فى حسبانه الهجوم من كل الجهات ويضع فى تخطيطه كل الاحتمالات حتى لا يهزم كما هزم جيشنا بسبب الغفلة وسوء القيادة والصراع على الرئاسة والسلطة والنفوذ .

(٢) ابن واصل : مفرج ، جـ ١ ص ١٨١ .

(٣) عاشور : الأيوبيون والمماليك فى مصر ، ص ٢٢ .

منهم ومن جنود الأسطول ، وزادت حالتهم المعنوية سوءا عندما بلغتهم اخبار الاغارات التى شنها « نور الدين محمود » على المدن الصليبية فى الشام ، فاضطر عمورى لرفع الحصار عن دمياط ، والعودة الى بيت المقدس فى أواخر ديسمبر ١١٦٩م/٥٦٥هـ بعد أن فشلت الحملة المشتركة على مصر(١) ومنى الأسطول البيزنطى بخسائر جسيمة أثناء انسحابه فقد هبت عليه عاصفة هوجاء اغرقت عددا من سفنه ٠

كان من الطبيعى بعد أن فشلت هذه الحملة على مصر ان يتدعم مركز صلاح الدين بها ، وأن تحاول الخلافة الفاطمية التخلص من نفوذه ، ونفوذ نور الدين محمود معا ، ولهذا أرسل الخليفة العاضد الى نور الدين محمود يطلب منه سحب جنوده الاتراك من القاهرة بحجة أنهم بثوا الرعب فى قلوب المصريين ، ولكن نور الدين محمود اعتذر اليه بان بقاء هؤلاء الجنود أمر ضرورى لحماية مصر من الغزو الصليبى(٢) ٠

لم يلبث صلاح الدين ان اتخذ من الهجوم على مدن الصليبيين ومراكزهم وسيلة للدفاع فشن هجوما على الرملة وعسقلان ، وداروم وغزة فى سنة ٥٦٦هـ / ديسمبر ١١٧٠م فحطم بعض أسوار هذه المدن ، وقتل عددا كبيرا من جنود حامياتها ، ثم سار الى سواحل ايله ومعه سفن محمولة على الجمال ، حيث تم تركيبها ، وانزالها الى البحر ، وملأها بالمقاتلين ، وهاجم بها ايله واستولى عليها(٣) ، ثم عاد محملا بالمغانم الى القاهرة ، ومن الواضح ان فشل الحملة المشتركة على دمياط كان نقطة تحول فى تاريخ منطقة الشرق الأدنى ، اذ تحولت القوى الاسلامية من خطة الدفاع الى خطة الهجوم على مدن الصليبيين ومراكزهم ، مما سيكون له أكبر الأثر فى تاريخ هذه المنطقة وعلاقاتها السياسية فى فترة العصور الوسطى ٠

---

(١) Wiet; op. cit., p. 301.
(٢) أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ص ١٨١ ٠
(٣) ابن واصل مفرج ، جـ ١ ص ١٩٩ ٠

نهاية الخلافة الفاطمية فى مصر :

تاكد نور الدين محمود من ضعف الخلافة الفاطمية فى مصر بعد أن رفض طلب الخليفة بسحب جنود صلاح الدين الأيوبى من مصر ، وكذلك احس بقوة مركزه بعد تشديد هجماته على المدن الصليبية وانزال الخراب بهـا ، مما جعـل الصليبيين يخافونه ، وعزز هـذا الاحساس ما قام به صلاح الدين من هجمات على مدن الصليبيين القريبـة من مصر وتحطـيم اسوارها ... فاذا أضفنا الى ذلك ان نور الدين محمود استولى على الموصل بعد فشل الحملة المشتركة على مصر بعام واحد (٥٦٦هـ/١١٧١م) بسبب موت اخيه (مودود بن زنكى)(١) اتضحت لنا الأسباب التى جعلته يطلب من صلاح الدين الأيوبى أن يسقط الخطبة للخليفة الفاطمى العاضد ، وأن يجعلها للخليفة العباسى المستضىء بنور الله ، حيث كتب الى صلاح الدين الأيوبى يلزمه بذلك الزاما(٢) فى يناير ١١٧١م .

اتخذ صلاح الدين بعض الخطوات الضرورية لاسقاط الخلافة الفاطمية فى مصر فابعد حاشية الخليفة الفاطمى وقواده عن القاهرة ، واخذ يطلب من العاضد كل يوم شيئا من الخيل والدقيق والأموال ، ليزيد بذلك ضعفه ، ومما يذكر فى هذا الشأن ما رواه الأمير حسام الدين بن على وهو من كبار رجال قواد الدولة ، وصديق حميم لجمال الدين بن واصل(٣) من أن صلاح الدين الأيوبى ارسل حسام الدين الى الخليفة العاضد يطلب منه فرسا ، ولم يبق عنده الا فرس واحد ، فذهب اليه وكان العاضد يركب هذا الفرس ، فلما طلبه منه نزل من عليه . وشق خفيه ، ورمى بهما ، وأعطى الفرس لحسام الدين ، ثم لزم بيته لا يخرج منه .

---

(١) ابن الاثير : البـاهر ، ص ١٥٢-١٥٣ ، الكامـل جـ ١١ ص ٣٦٢-٣٦٣ .
(٢) ابن واصل : مفرج ، جـ ١ ص ٢٠٠ ، جب : نفسه ، ص ١٢١ .
(٣) ابن واصل : مفرج ، جـ ١ ص ١٧٨-١٧٩ .

ثم شرع صلاح الدين فى اقامة سور القاهرة وتجديده لانه كان قد تهدم معظمه وأصبح لا يحمى القاهرة فلا يرد عنها داخلا ولا يمنع منها خارجا(١) كما أنشأ المدارس السنية ، فحول دارا للشحنة كانت تعرف بدار المعونة(٢) فى مصر وجعلها مدرسة للشافعية فكانت أول مدرسة للشافعية بالقاهرة ، كما هدم دارا لبيع الغزل وبنى مكانها مدرسة للمالكية ، وعين صدر الدين عبد الملك بن درباس الهذبانى الشافعى قاضيا للقضاة . وبذلك انتشر المذهب الشافعى فى مصر ، وأخذ المذهب الفاطمى فى الاندثار .

ثم توجه صلاح الدين الأيوبى الى الاسكندرية فى شعبان سنة ٥٦٦هـ / أبريل ١١٧١م ليرتب قواعدها ، وأمر بتجديد أسوارها وأبراجها .

فلما لم يجد صلاح الدين معارضة من المصريين ولا من أهل القصر الفاطمى أصبح مهيئا لقطع الخطبة للخليفة الفاطمى العاضد ، لان أقدامه قد رسخت وثبتت فى مصر بعد زوال المخالفين له ، وبعد أن ضعف أمر الخليفة العاضد ، وأصبح قراقوش يتحكم فى قصر الخلافة وينفذ تعليمات صلاح الدين الذى أصبح الحاكم الفعلى لمصر ويرجع الجميع اليه فى أمور الدولة والقصر .

عندئذ أقدم صلاح الدين على قطع الخطبة للخليفة الفاطمى العاضد ، وتطوع فقيه أعجمى يسمى الخيوشانى ويلقب بالأمير العالم فالقى خطبة الجمعة فى غرة المحرم سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م(٣) ، ودعا للخليفة العباسى المستضىء بنور الله فلم ينكر عليه أحد من الحاضرين ذلك . فأمر صلاح الدين بتعميم الخطبة فى المساجد كلها للخليفة العباسى فى الجمعة التالية . وكان الخليفة الفاطمى العاضد قد اشتد عليه المرض ، ومنعت عنه الاخبار خوفا

---

(١) أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ص ١٩٢ .

(٢) كانت هذه الدار بمثابة سجن يحبس الشحنة فيه من يريد حبسه ، ابن الاثير : الكامل ، جـ ١١ ص ٣٦٦ .

(٣) المقريزى : السلوك ، ج ١ ق ١ ص ٤٦ ، وابن الاثير : الباهر ، ص ١٥٦ .

عليه ، وتوفى يوم عاشوراء (العاشر من المحرم) وهو لا يعلم بسقوط دولته(١) ، وبموته انتهت الدولة الفاطمية بعد ان حكمت مصر قرابة قرنين من الزمان .

وبعد موت الخليفة العاضد احتاط صلاح الدين على اهل الخليفة ووضعهم فى مكان خاص بهم خارج القصر ، وقرر لهم أموالا لنفقتهم وكسوتهم وما يحتاجون اليه ، كما جمع بقية أهل القصر فى ايوان واحترز عليهم وأبعد عنهم النساء حتى تقل ذريتهم .

اما الجوارى والعبيد فقد أطلق صلاح الدين الاحرار منهم ، ووهب الآخرين لامرائه ورجال حاشيته ، وأخلى الدور ، وأغلق القصور ، وأخذ كل ما يصلح له ولأهله ولأمرائه وخواص مماليكه ورجال حاشيته من نفائس وملابس ، مثل الدرة اليتيمة ، والمنسوجات المغربية ذات الخيوط الذهبية وأسرف فى العطاء والبذل ، وسمح ببيع الأشياء الأخرى(٢) .

كذلك امر صلاح الدين بنقل اهم الكتب الموجودة فى القصر الى الشام ، فحمل منها ثمانية احمال ، وقد بلغت أعداد ما فى مكتبة القصر مائة وعشرين الف مجلد من أنفس المؤلفات ، وقد بيع جزء من محتويات هذه المكتبة ، وترك بعضها لمن يختص به .

ولكي يدعم الخليفة العباسي نفوذ صلاح الدين ويثبت سلطانه فى مصر سارع بارسال الخلع الى نور الدين محمود والى صلاح الدين الأيوبى ، وأرسل الرايات السود شعار العباسيين(٣) - وبذلك عادت للعالم الاسلامى وحدته الروحية تحت خلافة واحدة هى الخلافة العباسية .

---

(١) بعض المراجع تذكر ان الخليفة العاضد عندما علم بقطع اسمه من الخطبة اهتم واغتم حتى مات ، وقيل انه امتص فص خاتمه وكان تحته سم فمات . أبو شامة : الروضتين ج ١ ص ١٩٦ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ٣٧٠ .

(٣) ابن واصل : مفرج ، ج ١ ص ٢٠١ ، وكذلك :
Wiet, op. cit., p. 302.

غزو بلاد النوبة سنة ٥٦٨هـ/١١٧٣م

تجمعت فلول الجند السودانيين الذين هربوا من مصر مع جموع من العبيد فى بلاد النوبة ، وساروا منها متجهين الى مصر لاستعادتها من صلاح الدين الأيوبى ، واعادة الحكم الفاطمى اليها ، فوصلوا الى أسوان ونهبوها وخربوها ، فلما وصلت هذه الاخبار الى صلاح الدين أرسل أخاه الاكبر شمس الدين توران شاه على رأس عسكر كثيف ، فلما وصل بجنسوده وجـد السودانيين والعبيد دخلوا بلاد النوبة . فواصل زحفه حتى وصل قلعة ابريم فنزل عليها ، وافتتحها بعد ثلاثة أيام ، وغنم جميع ما كان فيها من مال وكراع وميرة ، وفك أسر مجموعة من جند الشجاع البعلبكي ، وأخذ من كان بها أسرى بعد أن هرب حاكمها . وكتب الى أخيه صلاح الدين بما فعله ، ثم عاد الى أسوان ، ومنها الى قوص ، وكان فى صحبته أمير يقال له ابراهيم الكردى طلب قلعة ابريم ، فاقطعها له توران شاه ، وبعث معه مجموعة من الاكراد . فلما وصلوها اخذوا يغيرون منها على النوبة(١) من وقت لآخر حتى لا يتجمع السودانيون والعبيد فيها مرة أخرى .

ارسل ملك النوبة الى توران شاه وهو بقوص كتابا مع رسـول يطلب فيه الصلح ، وهدية عبارة عن عبد وجارية ، فكتب توران شاه ردا على الرسالة حمله رجل من اتباعه يقال له مسعود الحلبى ، وطلب منه أن يتكشف ويعرف كل ما يستطيع عن هذه البلاد . فلما وصل الى دنقلة وجد البلاد ضيقة ليس بها زرع ولا ضرع سوى الذرة ، ومساكنهم من الخوص ، وليس بها سوى دار واحدة لملكهم(٢) .

---

(١) المقريزى : السلوك ، ج ١ ق ١ ص ٧٢ .
(٢) أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ص ٢٠٨-٢٠٩ .

فتح بلاد اليمن ٥٦٩هـ/١١٧٤م :

بعد عودة توران شاه مع جنوده من حملته على بلاد النوبة ، ووقوف صلاح الدين الأيوبى على شدة فقر هذه البلاد وجدبها ، وعدم صلاحيتها للاستقرار بها ، رأى صلاح الدين أن يرسل أخاه توران شاه الى بلاد اليمن ليمتلكها .

ويذكر بعض المؤرخين(١) ان السبب فى ذلك هو رغبة صلاح الدين فى ايجاد ملك له ولأسرته يلجأ اليه ، ويستقر به ، لأنه كان يخشى من نور الدين محمود أن يدخل مصر ويأخذها منه ، خاصة بعد الجفوة التى حدثت بينهما وعودة صلاح الدين من الشوبك الى مصر ، ومخالفته تعليمات نور الدين محمود بأن يتوجه بقواته لمساعدته فى الاستيلاء على الكرك التى كانت تبعد عن الشوبك بمسيرة يوم واحد فقط . ولذلك سير صلاح الدين اخاه توران شاه الى بلاد النوبة أولا ، ثم الى اليمن ثانيا .

والحقيقة ان صاحب هذا الرأى هو ابن الاثير ، وعنه نقل المؤرخون المعاصرون له واللاحقون بعده . ويبدو ان ابن الاثير كان متحاملا على صلاح الدين ، ومتهم فيما يكتبه عنه ، وخاصة ما يتصل بعلاقته مع نور الدين محمود . فابن الاثير يقول فى حديثه عن مسير توران شاه الى النوبة « وكان سبب ذلك ان صلاح الدين وأهله كانوا يعلمون ان نور الدين محمود كان على عزم الدخول الى مصر ، فاستقر الرأى بينهم أن يتملكوا اما بلاد النوبة أو بلاد اليمن حتى اذا وصل نور الدين محمود اليهم ، لقوه وصدوه عن البلاد ، فان قووا على منعه اقاموا فى مصر ، وان عجزوا عن منعه ركبوا البحر ولحقوا بالبلاد التى فتحوها »(٢) .

وقد ناقض مؤرخنا ابن الاثير نفسه ، ومحا كل ما قاله حيث يذكر ان

---

(١) ابن الاثير : الكامل ، جـ ١١ ص ١٤٥ .
(٢) ابن الاثير : نفسه ، ص ٣٨٦-٣٨٧ .

توران شاه استاذن نور الدين محمود فى أن يسير الى اليمن لقصد عبد النبى - صاحب زبيد - الخارجى وأخذ بلده لانه قطع الخطبة للخليفة العباسى ، فاذن له فى ذلك »(١) وهناك شبه اجماع من المؤرخين على أن الذى استاذن نور الدين محمود هو صلاح الدين الأيوبى نفسه(٢) ، ونحن نميل الى هذا الرأى لأن توران شاه لا يملك التعدى على نفوذ أخيه صلاح الدين السلطان الشرعى لمصر ، وليس لأى قائد أن يتخطى قائده الأعلى ، وصلاح الدين هو القائد الأعلى للجيوش فى مصر • ثم ان مسير توران شاه على رأس جيشه كان بتعليمات صلاح الدين •

وقد ذكرت جمهرة من المؤرخين ان السبب الرئيسى لهذا الفتح هو ما ارتكبه الخارجى عبد النبى بن مهدى من قبيح الأعمال واشنعها ، حيث سار على نهج أبيه ، فشق بطون الحوامل ، وذبح الأطفال على صدورهن ، وقتل كثيرا من الناس(٣) ، وكان على مذهب القرامطة ، ويبدو انه كان داعية للشيعة الفاطمية ، وكان يتستر فى بلاد اليمن • ثم ان عبد النبى هذا كان يشرب الخمر ، وسبى النساء ، وادعى الامامة وخطب لنفسه على المنابر(٤) • وقد بلغت حماقته انه بنى لأبيه قبة عظيمة دفنه بها ، وصفح حيطانها بالذهب والجواهر ، ومنع أهل اليمن من الحج الى الكعبة ، والزمهم بالحج الى قبر أبيه ، والطواف بهذه القبة العظيمة •

هذا وقد انفرد مؤرخ يمنى يسمى بامخرمه(٥) بذكر سبب هام من اسباب الفتح الأيوبى لليمن ، خلاصته ان بعض الامراء فى اليمن استغاثوا بالخليفة العباسى من اعتداءات عبد النبى بن مهدى وقيامه بقتل كثير من

---

(١) ابن الاثير : نفسه ، ص ٣٩٦ •
(٢) ابن واصل : مفرج ، جـ ١ ص ٢٣٨ •
(٣) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، جـ ٨ ص ٣٠٠-٣٠١ •
(٤) أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ص ٢١٦ وما بعدها ، ابن شداد : النوادر ، ص ٤٦ •
(٥) تاريخ ثغر عدن : جـ ١ ص ١٢٧-١٢٨ وكذلك ابن واصل : مفرج ، جـ ١ ص ٢٣٧-٢٣٨ هـ ٢ •

الإشراف.. فكتب الخليفة العباسى الى صلاح الدين الأيوبى لكى يجرد فى نصرة الإشراف عسكرا لقتال ابن مهدى ، فارسل صلاح الدين اخاه توران شاه على رأس الجملة .

ثم ان عمارة اليمنى الشاعر المعروف كان يقيم بمصر ، فاخذ يحسن لصلاح الدين ، ولأخيه توران شاه فتح اليمن ، ويصف بلادها وخيراتها لهما(١) ، فزاد ذلك من رغبة صلاح الدين فى فتحها . هذه هى الاسباب التى ذكرها المؤرخون فى فتح اليمن ، والتى تنفى ما ذهب اليه مؤرخنا ابن الاثير ، وتدفعنا الى القول بانه كان متحيزا ضد صلاح الدين فيما يكتبه عنه .

خرج توران شاه مع جنوده من مصر فى شهر رجب سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤م فوصل مكة ومكث بها مدة قصيرة بعد زيارته للبيت العتيق(٢) ، ومنها قصد اليمن فلما وصلها تحصن عبد النبى بن مهدى فى مدينة زبيد ، فحاصره توران شاه حتى سقط فى يديه فامر بقتله . ودخل الجيش المصرى زبيد عنوة ، واقتادوا زوجة هذا الفاجر ابن مهدى وكانت تسمى (الحرة) اسيرة ، ويقال انها كانت امرأة صالحة كثيرة الصدقات .

توجه توران شاه بعساكره الى ثغر عدن ، حيث موقعها الفريد على البحر ، مما جعلها حصينة منيعة ، وكان يحكمها رجل يقال له (ياسر) ، وقع فى خطأ عسكرى أدى الى هزيمته ، فعندما علم بقدوم عساكر مصر خرج من عدن لملاقاتهم فى ظاهر المدينة ، ولو انه تحصن بداخلها لما تمكنت جنود توران شاه من دخولها ، لقوة حصانتها ولمناعتها بحرا وبرا .

أراد بعض الجنود أن يقوموا بسلب ونهب زبيد ، فمنعهم توران شاه

---

(١) ابن واصل : مرجع سابق ، جـ ١ ص ٢٣٨ وما بعدها .
(٢) راجع سبط ابن الجوزى : مرجع سابق ، ص ٣٠٠ وما بعدها لتجد وصفا مسهبا عما فعل توران شاه من أعمال الخير والبر فى مكة .

وقال لهم : « ما جئنا لنخرب البلاد ، وانما جئنا لنملكها ونعمرها وننعم وننتفع بدخلها »(١) .

ثم عاد توران شاه الى زبيد ، وتملك ما فى الجبل من قلاع وحصون ، وملك قلعة (تعز) حيث توجد خزائن أموال عبد النبى بن مهدى ، فاستولى عليها ، ووزع منها على جنــوده ، ثم أناب فى كل قلعة نائبــا من اتباعه واحسن الى أهالى البلاد ، وعدل فيهم ، فعمرت واستقرت امورها ، وقــد احسن توران شاه الى (الحرة) زوجة ابن مهدى عندما علم بصلاحها فاطلقها ووهب لها اقطاعا لتنفق منه على نفسها ومن معها .

المؤامرة الكبرى ضد صلاح الدين ٥٦٩هـ/١١٧٤م :

تاكد اتبــاع الفاطميين فى مصر من زوال حكمهــم ، وكان على رأس هؤلاء جميعا خصى سودانى يسمى مؤتمن الخلافة جوهر ، وكان متحكما فى القصر ، وكان زعيما على الجند السودانيين فاتفق مع مجموعة من الشيعة العلوية على اعادة الدولة الفاطمية بمصر والقضاء على دولة الأيوبيين ، واعدوا خطتهم على الاستعانة بالفرنج من صقلية والشام فى نظير مبالغ من المــال يدفعونها اليهم . وكان ضمن هذه المجموعة عمارة اليمنى الشاعر ، وعبد الصمد الكاتب ، والقاضى العويرس ، وداعى دعــاة الشــيعة ابن عبد القوى ، وغيرهم من الجند السودانيين ، وبعض حاشية القصر الفاطمى ، وانضم اليهم بعض أمراء صلاح الدين الأيوبى وجنده(٢) .

كانت الخطة التى اعدوها كما يلى :

١ ـ عندما يجىء الفرنجة الى مصر يخرج اليهم صلاح الدين الأيوبى على رأس جيشه فيقومون بالثورة فى مصر والقاهرة ويعيدون الدولة الفاطمية ،

---

(١) ابن واصل : مرجع سابق ، جـ ١ ص ٢٤٢ .
(٢) راجع ابن واصل : جـ ١ ص ٢٤٣ـ٢٤٤ ، وابن الاثير : جـ ١١ ص ٣٩٨ .

لأن البلد ستكون خالية من الجنود ، فلا يتصدى لثورتهم احد . فاذا عاد الجنود الذين مع صلاح الدين فسوف يوافقوهم باعتبار الأمر الواقع ، وعندئذ لا يبقى لصلاح الدين مقام مع الفرنجة .

١ ـ اذا بقى صلاح الدين فى القاهرة وارسل عساكره لملاقاة الفرنجة ، ثاروا عليه وقبضوا عليه لعدم وجود من ينصره او يساعده . وقد قال لهم عمارة اليمنى « وأنا قد ابعدت اخاه توران شاه الى اليمن خوفا من أن يسد مسده ، وتجتمع الكلمة عليه » .

احكموا أمرهم بينهم ، وتقاسموا الدور والأملاك ، وارسلوا فعلا الى وليم الثانى William II ملك النورمانيين بصقلية وكذلك الصليبيين بسواحل الشام ، ولكن القدر وضع فى طريقهم الواعظ زين الدين على بن نجا المعروف بابن نجيه(١) حيث ادخله المصريون معهم ، فوقف على سرهم ، وتظاهر بانه على رايهم ، ثم اسرع الى صلاح الدين واخبره بجميع أمورهم ، وكشف له مؤامرتهم ، فطلب صلاح الدين منه مجاراتهم وملازمتهم ومخالطتهم ، واخباره أولا باول بكل ما يعزمون عليه .

فى هذا الوقت وصل رسول من ملك الفرنج بالساحل الشامى الى صلاح الدين يحمل رسالة وهدية ، وفى حقيقة الأمر كان هذا الرسول موفدا للاجتماع برءوس المؤامرة ، فكان يرسل اليهم بعض نصارى مصر ، وتاتيه رسلهم ، أما موضوع الهدية والرسالة لصلاح الدين فكان وسيلة للتستر وراءها .

علم صلاح الدين الأيوبى بمهمة هذا المبعوث حيث جاءته الاخبار من بلاد الفرنج تحذره ، فوضع صلاح الدين رجلا نصرانيا يثق فيه على هذا

---

(١) هو الفقيه زين الدين ابو الحسن بن ابراهيم بن نجا الدمشقى الحنبلى ، توفى بمصر فى شهر رمضان سنة ٦٠٠هـ وعمره ٩١ سنة . ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ٦ ص ١٨٣ـ١٨٤ .

المبعوث فجاءه بكل اخباره ، فامر بالقبض على رجال المؤامرة ، وسالهم فاقروا بالحقيقة فامر بشنقهم فى يوم السبت ٢ رمضان سنة ٥٦٩هـ . فشنقوا جميعا بين القصرين . كما صادر صلاح الدين جميع ممتلكاتهم واموالهم ولم يسمح لورثتهم بشيء . ثم تتبع من لهم ميول شيعية فاطمية ، وقبض عليهم وقتل كثيرا منهم ، وحبس آخرين(١) .

وصلت هذه الاخبار الى فرنج الساحل الشامى فلم يتحركوا ، واثروا السلامة . اما فرنج صقلية فلم تصل اليهم اخبار المتامرين معهم ، فتحركوا باسطولهم الى الاسكندرية(٢) فوصلوها فى ٢٦ ذى الحجة ٥٦٩هـ/١١٧٤م وكان عدد السفن كثيرا(٣) وعدد الجنود ثلاثين الفا ، بالاضافة الى ١٥٠٠ فارس(٤) ، ولم يكن عند أهل الاسكندرية أى معلومات عن مجيء هذا الأسطول ، فخرج الأهالى بما عندهم من أسلحة ، ومنعوا جنود الأسطول من النزول ، واخذوا يطاردونهم ، ولكن والى الاسكندرية امرهم بملازمة سور المدينة للاحتماء بها ، وللدفاع عنها ، فنزل الفرنج مما يلى البحر والمنارة(٥) وزحفوا الى المدينة ، ونصبوا عليها المجانيق ، وقاتلوا اهلها اشد قتال ، وأبلى أهل الاسكندرية بلاء حسنا ، وصمدوا وصبروا حتى يصل اليهم صلاح الدين بجنوده ليدفع هذا الهجوم وقد شهد الفرنج لأهل

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ق ١ ص ٧٥ .

(٢) Lane—Pool, Saladin, p. 127.

(٣) ٢٠٠ شينى تحمل الجنود ، ٣٦ طريدة تحمل الخيل ، ٦ مراكب كبيرة تحمل أدوات القتال ، ٤٠ مركبا تحمل المؤن والزاد ـ راجع ابن شداد : النوادر ص ٤٨ـ٤٩ ، وللمزيد من التفاصيل راجع :
Camb. Med. Hist. vol. 5, pp. 184-207.
وكذلك : Lane — Pool; Saladin, p. 127.

(٤) المقريزى : نفسه ، ص ٧٨ ، ابن واصل : جـ ٢ ص ١٣ .

(٥) اعتقد انها منارة المكس وليست منارة رأس التين المشهورة حيث يمكن للسفن ان ترسوا قريبا من البر وتنزل الجنود ، ومن هناك يزحفون الى المدينة ، وقد نزلت سفن الحملة الفرنسية كذلك فى هذا المكان (المؤلف) .

الاسكندرية بالشجاعة فى القتال « ورأى اهل الفرنج من شجاعة اهل الاسكندرية وحسن سلاحهم ما راعهم »(١) .

ارسلت الاخبار الى صلاح الدين لكى ينجد الاسكندرية من هذا الهجوم المفاجىء ، واستمر القتال ثلاثة أيام ، وفى اليوم الثالث فتح اهل الاسكندرية ابواب مدينتهم ، وخرجوا مهاجمين الفرنج من كل جانب وهم يصيحون ، فارتاع الفرنج ، واشتد القتال بين الجانبين ووصل المسلمون الى الدبابات وادوات الرمى فاحرقوها ، وكثر القتل فى جنود الفرنج ، وانتهى هذا اليوم والمسلمون مستبشرون(٢) .

بعث صلاح الدين بمقدمة لعساكره لتصل سريعا الى الاسكندرية كما بعث بمجموعة من الجنود الى دمياط خوفا عليها ، ثم خرج هو ببقية الجيش فى اعقابها ، ووصلت مقدمة العسكر فى نفس اليوم بعد العصر ، فلما رآها اهل الاسكندرية تشجعوا وخرجوا واستانفوا القتال مع الفرنج الذين وهنت روحهم ، وبدأ اليأس يدب فى نفوسهم عندما سمعوا بمقدم صلاح الدين ، واستمر القتال بين الجانبين طوال الليل وحتى ضحى اليوم الرابع ، وقد تكشفت المعركة عن هزيمة شديدة للفرنج حيث غرقت بعض سفنهم بفعل بعض أهالى الاسكندرية الذين غاصوا فى المياه وخرقوا أسافلها ولم يجد الفرنج بدا من الفرار تاركين المدينة لأهلها دون أن ينالوا منها شيئا ، فرحلوا فى مستهل المحرم سنة ٥٧٠هـ / ٢ أغسطس ١١٧٤م(٣) .

وهكذا فشلت هذه المؤامرة المدبرة باحكام ، كما فشل الصليبيون فى حملتهم على الاسكندرية ، وقتل منهم الكثير ، وأحرق غير قليل من سفنهم

---

(١) ابن واصل : مفرج ، جـ ٢ ص ١٤ وما بعدها ، ابن الاثير : الكامل ، جـ ١١ ص ٤١٣ .

(٢) ابن الاثير : الكامل ، جـ ١١ ص ٤١٤ ، المقريزى : السلوك ، جـ ١ ص ٧٩ .

(٣) ابن واصل : جـ ٢ ص ١٦ .

بما تحمله من جنود واسلحة وميرة ، وعندما وصلت اخبار هذه الهزيمة الى عمورى ملك بيت المقدس الصليبية اصيب بصدمة نفسية عنيفة أدت الى موته فى يوليو ١١٧٤م (١) .

ثورة الكنز بالصعيد :

انتهز كنز الدولة حاكم أسوان (٢) فرصة انشغال صلاح الدين فى صد هجمات الصليبيين وكان قد رتب امره وجمع السودانيين حوله ، وأوهمهم بقدرته على اعادة الدولة الفاطمية الى مصر واخذ يدعو للامير داود بن الخليفة العاضد ، فارسل اليه صلاح الدين حملة عسكرية بقيادة اخيه الملك العادل سيف الدين ابى بكر بن ايوب ، واحتمى كنز الدولة ومن معه فى مدينة طود ، فهاجمتهم عساكر صلاح الدين وابادتهم قتلا بالسيوف ولم يقم لأتباع الخلافة الفاطمية فى مصر بعد ذلك قائمة .

* الوحشــة بين الرجلين

على أن وحشة (جفوة) حدثت بين صلاح الدين ونور الدين محمود ، كان من اسبابها ان صلاح الدين بعث برسول له الى الخليفة العباسى ليبشره بعودة مصر الى حكمه وانتهاء الخلافة الفاطمية (٣) فاعتبر نور الدين محمود هذا التصرف اهانه له ، واهمالا لشأنه خاصة وان صلاح الدين الايوبى يحكم فى مصر باسمه ، باعتباره نائبا له ، وكان يكتب اليــه الامير الأسفهسلار صلاح الدين وكافة الامراء بالديار المصرية يفعلون كذا ، ومن ناحية اخرى كان نور الدين محمود متخوفا من ان يستقل صلاح الدين بحكم مصر ، فتضيع جهوده التى بذلها ليضم مصر الى نفوذه ليستكمل تكوين الجبهة الاسلامية المتحدة لضرب الصليبيين وطردهم من أرض المسلمين .

---

(١) عاشور : الأيوبيون ، ص ٣٩ .
(٢) راجع اصل هذه الأسرة فى المقريزى : اتعاظ الحنفاء ص والبيان والاعراب ، ص ٥٠ ، وابن واصل : جـ ٢ ص ١٦ ، وكذلك :
Trimingham: Islam in the Sudan, p. 68.
(٣) المقريزى : نفسه ، ص ٤٤ .

ويرى ابن الاثير(١) ان السبب الرئيسى لهذه الوحشة (الفجوة) بين الرجلين ، هو ان صلاح الدين الأيوبى خرج فى صفر سنة ٥٦٨هـ / سبتمبر ١١٧٢م ، وحاصر حصن الشوبك ، واطبق على ما به من الصليبيين حتى طلبوا الأمان ومهلة عشرة أيام لتسليم الحصن ، وانتهز نور الدين محمود فرصة وجود صلاح الدين على حصن الشوبك ، واراد ان ينتزع حصن الكرك من الصليبيين وكان يبعد مسيرة يوم من الشوبك ، فخرج على رأس قواته متجها الى الكرك . فلما سمع صلاح الدين بتحرك نور الدين محمود وقواته ، فك الحصار عن حصن الشوبك ، ورجع قافلا مع قواته الى مصر ، وكتب الى نور الدين محمود يعتذر اليه بأن بقايا الفاطميين على وشك اشعال ثورة بها ، وان الامور مضطربة فيها ، مما يتطلب عودته فورا اليها .

ويبدو ان صلاح الدين خشى أن يقبض عليه نور الدين محمود اذا رآه ، وأن يعزله ويعين على مصر أميرا من أتباعه ، ومع كل ما ذكر من أسباب يبقى الرأى الاول مرجحا على غيره من الآراء ، والدليل على ذلك المؤامرة الكبرى التى دبرها مؤتمن الخلافة جوهر ومن معه من الفاطميين مما سنذكره بالتفصيل لاعادة مصر الى حكم الفاطميين(٢) .

ثم ان صلاح الدين كان ملزما بالزحف بقواته الى حصن الاكراد لمساعدة نور الدين محمود ، وكان من الممكن جدا أن يتمرد الصليبيون فى حصن الشوبك ، ولا يسلموا الحصن لصلاح الدين كتعهدهم له ، وما اكثر ما ضرب الصليبيون باتفاقاتهم مع المسلمين وغيرهم عرض الحائط ، وفى هذه الحالة لا يستطيع صلاح الدين التوجه الى حصن الكرك لمساعدة نور الدين محمود لأن هذين الحصنين ممتنعان ومحصنان ، ويحتاج كل منهما الى زمن طويل ،

---

(١) الكامل : جـ ١١ ص ٣٧١-٣٧٢ ، هناك آراء تصف ابن الاثير بالمبالغة فيما ذكره عن هذه الوحشة ، راجع :
Gibb: Arabic Saurces for the Life of Saladin, Spocculm, 1950, pp. 58-72.
(٢) ابن الاثير : الكامل جـ ١١ ص ٣٩٨-٣٩٩ .

وجهد عظيم للاستيلاء عليه ، لانه سيكون مجبرا اما لمواصلة الحصار على الشوبك ، او فك الحصار والعودة الى مصر ، وهذا ما حدث .

ويذكر العماد الأصفهانى وابن واصل وغيرهما من المؤرخين(١) ان صلاح الدين عندما خرج لغزو الفرنجة فى الشوبك والكرك بعث الى سيده وقائده نور الدين محمود بالهدايا التى جمعها من قصور الخلافة الفاطمية .

وكان من ضمن هذه الهدايا فيل وحمار وحشى (عتابيه) وذخائر ومتعة ومجوهرات غالية مثل اليشم(٢) ، وبلخش(٣) واللؤلؤ والطيب والعطر وغرائب المصنوعات وستون الف دينار ذهبا .

فلما وصل الى بلاد الكرك والشوبك اغار عليهما ، وخرب اراضيهما وعماراتهما ، وشن الغارات على اعمالهما وكانت هذه أول اغارات صلاح الدين على الفرنجة من مصر فى أوائل سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م ، وقد بدأ بهذين الحصنين لقربهما من مصر ، وفى طريقها ، وكان الصليبيون المقيمون فيهما يتصدون للقوافل القادمة الى مصر فيمنعونها ويغيرون عليها ، وكان صلاح الدين يخرج الى كل قافلة قادمة ليحميها حتى تعبر طريق هذين الحصنين فأراد من الاغارة عليهما والاستيلاء عليهما ازالة مخاطرهما من طريق القوافل ، واشاعة الطمانينة والأمان للقادمين من الشام والمغادرين مصر ، ومع ذلك استعصى كل من الحصنين عليه(٤) .

---

(١) راجع ابن واصل : جـ ١ ص ٢٢٥ وما بعدها .

(٢) يشم وكذلك يشب وهو حجر ثمين مثل الزبرجد له الوان مثل الأبيض والأصفر والزيتى . وهو افضلها . راجع ابن الاكفانى : نخب الذخائر فى احوال الجواهر ، تعليقات الاب الكرملى ، ص ٧٢ وكذلك البيرونى : كتاب الجماهر فى معرفة الجواهر ، ص ١٩٨ .

(٣) جوهر احمر شفاف مثل الياقوت العظيم فى اللون والرونق ، ينسب الى موطنه (بلخشان) حيث يكثر وجوده ، وهو اقليم فى اقصى شرقى افغانستان ، وأهل ايران يسمونه (بذخشان) . ابن الاكفانى : المرجع السابق ص ١٤-١٥ .

(٤) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٣٦ .

ارسل صلاح الدين هذه الهدايا كلها الى نور الدين محمود وبعث بكتاب رقيق من انشاء القاضى الفاضل عبد الرحيم ، يشرح فيه أسباب خروجه لمهاجمة الكرك والشوبك ، ويمدح فيه سيده وقائده لجهاده ضد هؤلاء الفرنجة ... الخ .

وعندما وصلت هذه الهدايا الى نور الدين محمود سنة ٥٦٨هـ وهو بحلب استقلها ولم تقع منه بموقع ، ومع ذلك ابدى شكره لصلاح الدين عليها . ونحن نستدل على عدم رضاء نور الدين عن هذه الهدايا بما ورد فى المصادر التاريخية :

أولا ـ قوله : « ما كان بنا حاجة الى هذا المال ، وهو ـ صلاح الدين ـ يعلم انا ما انفقنا الذهب فى ملك مصر وبنا فقر الى هذا الذهب ، وان هذا المحمول ـ الهدايا ـ لا توازى ولا تساوى ما جدنا به من مقدار ، وهو يعلم ان ثغور الشام تحتاج الى عدد وفير من الجند ، فقد عم البلاء بالفرنج ، وينبغى أن يسارع صلاح الدين بتقديم المساعدات والمعونات »(١) وواضح أن نور الدين محمود كان يريد أن يقوى جبهة الشام بالجنود والذخيرة من جانب صلاح الدين بعد أن تم له ملك مصر ، وقد أوضح نور الدين غرضه فهو يريد أن ينتهز هذه الفرصة التى أصيب الفرنج فيها بالبلاء والضعف والتفكك لينزل بهم ضربة قاسمة ويتوج جهاده بالانتصار عليهم وازالة موضعهم من بلاد المسلمين .

ثانيا ـ الدليل على استهانة نور الدين محمود بالهدايا التى ارسلت اليه وعدم قبوله اياها انه أخذ يوزعها فاهدى الفيل الى ابن أخيه سيف الدين غازى بن مودود ـ صاحب الموصل ـ مع شىء من الثياب والعود والعنبر ... الخ ، كما بعث نور الدين بالحمار الوحشى الى الخليفة العباسى ومعه شىء من الهدايا الاخرى كذلك .

---

(١) ابن واصل : مفرج جـ ١ ص ٢٢٦ .

ثالثا - كان نور الدين يامل ان يرسل صلاح الدين الأيوبى اليه ما يستعين به على مواصلة الجهاد من تلقاء نفسه ، خصوصا وانه من المقربين الى نور الدين محمود ، ويعرف تماما ماذا ينفق على أمور الجهاد واعداد الجيوش وامدادها بالذخيرة والمال ، ولكن عندما تباطأ صلاح الدين وأرسل الهدايا التى استقلها نور الدين ولم ترقه ، حينئذ كلف نور الدين متولى ديوان الاستيفاء وهو موفق الدين خالد بن القيسرانى بالذهاب الى مصر وأن يقيم أعمال مصر ودخلها ويكتب ذلك فى أوراقه حتى يمكن له تقرير المال الذى يرسله اليه صلاح الدين(١) .

واذا أمعنا النظر الى ما قاله نور الدين محمود فانه يريد امدادات عسكرية من صلاح الدين ، فاذا أرسلها فسوف يتناقص عدد جنوده ، وتضعف امكاناته فى هذا الوقت الذى يحتاج فيه الى كامل قوته ، وسوف يصبح هدفا سهلا لهجمات الصليبيين أو اغارات أتباع الدولة الفاطمية الذين يتربصون به ليتخلصوا منه ومن دولته فى مصر . وهذا فى رأينا ما دفع صلاح الدين الى العودة الى مصر لكى يحتفظ بملكه الجديد .

موت نور الدين محمود :

رأى نور الدين محمود فتور صلاح الدين فيما يامره به من غزو الصليبيين ، وعلم ان مصلحة صلاح الدين أن يظل هؤلاء الصليبيون حاجزا فيما بينهما ، ليمتنع بهم عن وصول نور الدين محمود الى مصر ، كما علم بتخوف صلاح الدين منه ، ومن الاجتماع به ، فأخذ يعد نفسه وقواته للخروج الى مصر وأخذها من صلاح الدين ، ولكن لحسن حظ صلاح الدين الأيوبى ، وربما للعالم الاسلامى أن نور الدين محمود توفى فى قلعة دمشق خلال تجهيز

---

(١) ابن واصل : نفسه ، ص ٢٣٢ .

قواته فى شوال سنة ٥٦٩هـ / ١٥ مايو ١١٧٤م(١) قبل أن تزداد العلاقات بين القائدين العظيمين سوءا ، وينعكس آثارها على الجبهة الاسلامية المتحدة التى يعمـل كل منهما لتحقيقها ، لمواجهـة الصليبيين وطردهم من بلاد المسلمين .

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ ٣ ص ٩ .

الفصل الرابع

صلاح الدين والجبهة الاسلامية

بعد وفاة نور الدين محمود(١) ، تولى ابنه الصالح اسماعيل ملك دمشق وحلب من بعده ، وكان غلاما فى الحادية عشرة من عمره(٢) ، وبايعه الأمراء والمقدمون بدمشق ، واقام بها ، وخطب له على منابرها ، وضربت السكة باسمه ، وتولى تربيته والاشراف عليه الأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم ، وبذلك أصبح مدبر ملكه ٠ وقد بعث صلاح الدين الى الصالح اسماعيل بكتاب يهنئه فيه بتوليته ويعزيه فى وفاة والده نور الدين ، ويعلن طاعته له وان الخطبة ستكون باسمه ، وارسل مع هذا الكتاب بعض الدنانير المصرية وقد ضرب عليها اسمه(٣) ولكن بعض كبار القواد طمعوا فى الصالح اسماعيل ، وحاول كل منهم أن يسيطر على هذا الغلام حتى يكون صاحب النفوذ والكلمة ، وبذلك ظهرت مشكلة البيت الزنكى وتقسيم دولة نور الدين محمود بين ورثته ٠

فقد تحرك سيف الدين غازى بن مودود بن زنكى (ابن عم الصالح اسماعيل) وكان على الموصل من قبل نور الدين محمود ، واخذ يضم اليه بعض البلدان مثل نصيبين ، والخابور ، وحران ، والرقة ، وغيرها من بلدان الجزيرة باستثناء قلعة جعبر لحصانتها ، ورأس عين التى لم يتعرض لها ، لانها كانت لابن خاله قطب الدين (صاحب مردين) ٠ ثم اعلن نفسه أميرا على الجزيرة ، واخذ يتطلع الى ضم حلب اليه ، لتعود اتابكية الموصل كما كانت على عهد عماد الدين زنكى ، ولكى يضمن السيطرة على الصالح اسماعيل ٠

---

(١) توفى يوم ١١ شوال سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤م ـ أبو شامة : الروضتين ، جا ص ٢٢٨ وما بعدها ٠

(٢) ابن الاثير : الكامل ، جـ ١١ ص ٤٠٥ ٠

(٣) أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ص ٢٣١ ٠

لم يلبث النزاع أن دب بين كبار قواد نور الدين محمود وبين سيف الدين غازى فى الموصل ، ثم بينه وبين قواد نور الدين فى الشام ، لميل بعضهم الى صلاح الدين الأيوبى ، ورغبتهم فى التعاون معه ، ومن الطبيعى وقف ضدهم شمس الدين بن المقدم مدير ملك الصالح اسماعيل وصاحب بعلبك ، ولكى يقوى من مركزه ضد هؤلاء القواد انحاز الى الصليبيين وعقد هدنة معهم ، ودفع لهم مالا(١) .

كان سعد الدين كمشتكين قد هرب من الموصل الى حلب واقام عند مقدم عسكرها شمس الدين بن الداية ، الذى خاف أن يغير سيف الدين غازى عليه فى حلب ويتملكها ، فارسل سعد الدين كمشتكين على رأس مجموعة من الجنود ليحضر الملك الصالح اسماعيل ومعه العساكر الى حلب ليحموها ويمنعوها من أيدى سيف الدين غازى . فلما اقترب كمشتكين من دمشق أرسل ابن المقدم اليه عسكرا هزموه ونهبوه ، فعاد مهزوما الى حلب .

اجتمع أمراء البيت الزنكى ووجدوا ان المصلحة تقتضى وجود الملك الصالح اسماعيل فى حلب ، فارسلوا الى ابن الداية أن يرسل كمشتكين ليصحب الملك الصالح ، وتم ذلك فعلا ، ولكن كمشتكين استغل مرض ابن الداية ـ الذى آواه وسمح له بالاقامة عنده ـ وقبض عليه وعلى اخوته(٢) ، كما قبض على رئيس حلب (ابن الخشاب) واستبد هو بتدبير ملك الصالح اسماعيل .

أصبح صلاح الدين قلقا لما يحدث فى الشام من صراع بين الأمراء ، وموقفهم السلبى مع الفرنجة ، ولو تغاضى عما يحدث لتفرقت كلمتهم اكثر مما هى الآن ، ولطمع الصليبيون فى البلاد . ورأى أن يكتب للأمير شمس الدين بن المقدم فبعث اليه برسالة جاء فيها :

---

(١) أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ص ٢٣٣ .
(٢) ابن الاثير : الكامل ، جـ ١١ ص ٤١٥ .

« انا لا نؤثر للاسلام واهله الا ما جمع شملهم ، والف كلمتهم ، وللبيت الاتابكى الا ما حفظ اصله وفرعه ، او دفع ضره ، وجلب نفعه ، فالوفاء انما يكون بعد الوفاة ، والمحبة انما يظهر اثرها عند تكاثر الاطماع من العداة ، وبالجملة انا فى واد والظانون بنا ظن السوء فى واد ، ولنا من الصلاح مراد ، ولن يبعدنا عنه مراد »(١) ثم عزم على تلافى ما يقع من أمور ولن يتحقق له ذلك الا بضم الشام اليه ، وقد ساعده على عزمه كتب وردت اليه من ابن المقدم ، وبعض الامراء يستعجلون قدومه الى دمشق(٢) .

الاستيلاء على دمشق :

واصل صلاح الدين مسيره بمن معه ونزلوا على جسر الخشب(٣) حيث استقبله ابن عمه الامير ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه ، والامير سعد الدين بن معين الدولة انر ، وفى هذا المكان اجتمعت عليه الجنود والفرسان ، الذين تحركوا بجموعهم حتى دخلوا دمشق فى ربيع آخر سنة ٥٧٠هـ(٤) / نوفمبر ١١٧٤م فخرج كل عساكرها وأعلنوا انضمامهم وطاعتهم الى صلاح الدين الايوبى .

نزل صلاح الدين فى دار والده وهى (دار العقيقى) ، ثم لم يلبث ان ارسل قاضى دمشق كمال الدين بن الشهرزورى الى متولى القلعة واسمه (جمال الدين ريحان) ونجح الشهرزورى فى استلام القلعة منه ، فاسرع صلاح الدين بالصعود اليها ، واستولى على جميع ما فيها من أموال(٥) وعتاد ، فقويت نفسه بذلك ، وتملك المدينة وقلعتها وهو يظهر فى كل ذلك الطاعة للصالح اسماعيل .

---

(١) ابن واصل : مفرج ، ج ٢ ص ١٨ .
(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٢٣٦ .
(٣) جسر الخشب .
(٤) ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ص ٤١٥ .
(٥) ابن الاثير : نفسه ج ١١ ص ٤١٦ .

وصلت الأخبار الى الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين محمود ومدبرى ملكه ، وتوقعوا ان صلاح الدين سيمتلك كل البلاد الشامية ، فكتبوا الى سيف الدين غازى بن مودود بن زنكى صاحب الموصل وارسلوا الى صلاح الدين مبعوثا هو الامير قطب الدين ينال بن حسان — صاحب منبج — برسالة فيها غلظة فى القول وتعنيف ، ومما قاله ينال لصلاح الدين : « هذه السيوف التى ملكتك مصر — واشار الى سيفه — تردك ، وعما تصديت له تصدك » فعامله صلاح الدين بحلمه المعهود ، وقال : « انما وصلت لترتيب الأمور وتربية الملك الصالح ، واخراج الأمراء أولاد الداية من الاعتقال » فقال ينال : « أنت تريد الملك لنفسك ، وليس مقصودك غير ذلك ، والمصلحة انك ترجع من حيث جئت ، ولا تطمع فيما ليس لك فيه مطمع »(١) فتبسم صلاح الدين استهزاء من الرجل ، وتغاضى عنه .

ولما استقرت لصلاح الدين أمور دمشق ، استخلف بها اخاه سيف الاسلام طغتكين بن ايوب . ثم اضطر للمسير الى مدينة حمص ، وكان السبب فى ذلك ان القومص الصنجيل (الكونت ريموند الثالث — صاحب طرابلس —) بعدما خرج من أسره الذى بقى فيه عشرين سنة ، سار الى حمص ليستولى عليها ويقطع الطريق على صلاح الدين فلا يتمكن من العودة الى جنوب الشام . ولم يكن خروج الصليبيين مساعدة لأهل حلب ، فالمؤرخ اللاتينى وليم الصورى يقول : « ان كل ازدياد فى قوة صلاح الدين يثير فينا الرعب والخوف ... ومن الخير أن نبذل المساعدة للطفل اسماعيل لا مراعاة لصالحه ، بل باعتباره عدوا لصلاح الدين »(٢) . فلما سمع صلاح الدين بذلك أسرع بالخروج لكى يمنع سقوط حمص فى يد ريموند الثالث ، فلما وصلها امتنع اهلها من تسليم المدينة له فقاتلهم حتى تملكها(٣) ، وأمن أهلها ،

---

(١) أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ص ٢٣٧—٢٣٩ ، وقد نقل أبو شامة عن المؤرخ الشيعى الحلبى ابن أبى طى قوله : « ... وكان السلطان قد جعل أولاد الداية علالة له وسببا يقطع به السنة من ينكر عليه الخروج الى الشام وقصده الملك الصالح » .

(٢) William of Tyre, II, p. 21 & Setton; Hist. of Crus. I, Chap. IV.

(٣) ابن شداد : النوادر ، ص ٥٠ .

ولكن القلعة امتنعت عليه فتركها مؤقتا ، وعين على المدينة (حمص) من يحفظها ويراقب الأمن فيها .

ثم توجه صلاح الدين بعساكره الى حلب ، وضرب عليها الحصار فى الثالث من جمادى الآخرة ، وقاتله أهلها واستماتوا فى القتال خاصة بعد ان أبدى الملك الصالح اسماعيل تخوفه من صلاح الدين ، واستدر عطفهم ، وحرك اشجانهم ، وذكرهم بمحبة أبيه واحسانه لهم . وكان الفرنج قريبين من حلب ، وكان صلاح الدين يخشى انضمامهم الى أهالى حلب ، الذين كانوا يخرجون من المدينة ويقاتلون عند جبل جوشن ، وبذلك لم يتمكن من الاقتراب من حلب(١) .

واغرى سعد الدين كمشتكين مقدم الاسماعيلية الباطنية سنان ، وبذل له الأموال ليرسل بعض أتباعه من الحشاشين ليقتلوا صلاح الدين الأيوبى ، فلما وصلوا لتنفيذ جريمتهم تعرف عليهم بعض أتباع صلاح الدين ، وتعرضوا لهم فى نفس الوقت الذى اندفعوا فيه لقتل صلاح الدين ، فقتلوا منهم جمعا ، وقتل جميع الحشاشين ونجى الله صلاح الدين من هذه المؤامرة الغادرة .

اضطر صلاح الدين الى الرحيل عن حلب ، ووصل الى حماه فى اليوم التالى لنزول الفرنج على حمص ، فلما سمع الفرنج بقدوم صلاح الدين رحلوا عن حمص ، فتملكها صلاح الدين هى والقلعة فى شهر شعبان . ثم توجه صلاح الدين الى بعلبك فاستلم المدينة من واليها هى والقلعة ، ودخلها فى اليوم الرابع من شهر رمضان سنة ٥٧٠هـ / ابريل ١١٧٥م .

هذا النجاح الذى اصابه صلاح الدين الأيوبى ، أنزل الخوف فى قلب سيف الدين غازى صاحب الموصل والجزيرة ، واعتقد ان الهدف الثانى لصلاح الدين هو الموصل نفسها ، ولذلك جمع جيشا كبيرا ، وأرسل به الى حلب بقيادة أخيه عز الدين مسعود . واجتمعت جيوش الموصل ، وجيوش

---

(١) ابن الاثير : الكامل ، جـ ١١ ص ٤١٩ .

حلب وكانت تزيد على عشرين الفا ، والتقى صلاح الدين الأيوبى بجيشه مع هذه الجيوش عند قرون حماة فى سنة ٥٧٠هـ / أواخر ابريل سنة ١١٧٥م وإحرز عليها النصر ، وانتهى الأمر بعقد الصلح بين الفريقين على أن تكون حلب وما يحيط بها للملك الصالح اسماعيل ، وأن تكون الأجزاء الجنوبية من حلب لصلاح الدين الأيوبى .

لم يلبث أن تجدد القتال بين الفريقين فى سنة ٥٧١هـ / ابريل ١١٧٦م فى مكان يسمى تل السلطان بين حماة وحلب ، وفى هذه المرة أنزل صلاح الدين الهزيمة بخصومه كذلك ، وقتل منهم أعدادا وفيرة(١) واستولى على مغانم كثيرة .

بدأ صلاح الدين فى الاستيلاء على حلب ، ومهد لهذا الأمر بالاستيلاء على ما حولها من حصون وقلاع حتى يضعفها ، فاستولى على بزاغة ، ومنبج ، وأعزاز ، وفى أثناء حصاره لأعزاز تمكن بعض الحشيشية للمرة الثانية من الوثوب عليه ، وضربه على رأسه ضربة كادت تقتله لولا أنه كان يتقى نفسه بملابس الحرب (بيضة ، وكزاغند ، وغيرها) وقبض على هؤلاء الاسماعيلية وتم قتلهم .

ضرب صلاح الدين الأيوبى الحصار على حلب ، وبقى على حصارها حتى أهلت سنة ٥٧٢هـ / يونية سنة ١١٧٦م ، فلما اشتد الضيق باهلها ، رضخوا للصلح على أن تكون حلب وأعمالها للصالح اسماعيل بن نور الدين ، وأن تكون بلاد الشام من مدينة حماة وما يليها جنوبا بالاضافة الى مصر لصلاح الدين .

ولم يكد صلاح الدين يفرغ من أمر حلب ، حتى اتجه فى يوليو الى الاسماعيلية الحشيشية فى قلعتهم فى مصياف ، وترك لسيوف جنوده تعمل

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ق ١ ص ٦٠ ، وابن واصل : مفروج الكروب ، جـ ٢ ص ٣٩ .

عملهـا فى رقابهم حتى قضى على الكثير منهم ، كمـا انه هـدم الكثير من حصونهم ، ولولا تدخل شهاب الدولة الحارمى ، صاحب حماة ، الذى تشفع لهم لاستغاثتهم به(١) ، ما تركهم صلاح الدين الا بعد القضاء عليهم ، ثم عاد الى القاهرة فى سبتمبر .

من هـذا العرض التاريخى نستطيع أن نقف على طبيعـة العلاقات السياسية بين أمراء الدول الاسلامية ، وبينهم وبين الصليبيين ، فنجد ان صلاح الدين جابه صعوبات جمة فى بلدان منطقة الشرق الادنى لتحقيق الهدف الذى بداه عماد الدين زنكى ، ثم تابعه فيه ابنه نور الدين محمود والذى اصبح تحقيقه واقعا على عاتق صلاح الدين ، الا وهو تكوين الجبهة الاسلامية المتحدة . وهو فى سبيل ذلك يضطر الى محاربة الداعين للانفصال فى حلب ، ولكنه يجابه بخطر الصليبيين ، فيرغم على عقد الصلح مع اهل حلب ، ليتفرغ للصليبيين ليدرأ عن البلاد خطرهم الداهم حينما حاولوا قطع الطريق عليه ، وحاصروا حمص ، ثم لا يلبث ان يعود الى مصر مسرعا لحفظها من الوقوع فى يد الفرنجة الذين نزلوا على الاسكندرية باساطيلهم ، ولذلك اخذ صلاح الدين يعمل على تحصين مصر وحمايتها بعد أن تبين له ان الصليبيين اشد طمعا فى مصر عن الشام والعراق ، اللذين اعمت المصالح الشخصية اهلهما وحكامهما عن رؤية هذا الخطر الصليبى على الوطن العربى كله ، خاصة وان الصليبيين ودعاة الانفصال كانوا يحسبون حسابا كبيرا لاستيلاء صلاح الدين على مصر واستقلاله بها(٢) .

وعلى الرغم مما كابده صلاح الدين من هذه الصعوبات فقد نجح فعلا فى توحيد الجبهة الاسلامية بعد ان نظم امور مصر الداخلية ، واستقر بهـا سنوات ست قضاها كلها فى التفكير فى الموصل وحلب الى جانب ما كان يقوم به فى مصر من تشييد للقلاع والحصون ، واقامة المدارس والمستشفيات .

---

(١) ابن واصل : مفرج جـ ٢ ص ٤٧ .
(٢) عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ٢ ص ٧٥٠ .

ففى خلال فترة الاعداد واستكمال التحصينات اللازمة ، التى قضاها صلاح الدين الأيوبى فى مصر (من سنة ٥٧٢ - ٥٧٧هـ / ١١٧٦ - ٦٦٨١م) واصـل صلاح الدين مناوشاته الحربية ضد الصليبيين ، فأحرز الانتصارات ، واصيب ببعض الهزائم ، ففى جمادى الأولى سنة ٥٧٣هـ/١١٧٧م خرج صلاح الدين بجيشه لمناوشة الصليبيين فى جنوب الشام وعندما وصل الى غزة وجد أن الفرسان الداوية كانوا قد استعدوا لمقدمه فاضطر الى تركها واتجه الى عسقلان وأغارت عساكره على بعض اعمالها ، فنهبوا وسلبوا وأسروا وسبوا ، ومع ذلك لم يظهر الصليبيون لملاقاة صلاح الدين وجنوده ، فاغتر جنود صلاح الدين ، وامنوا وانساحوا فى اعمال عسقلان حتى وصلوا الى الرملة ، وفيها يستعدون للهجوم على حصون الصليبيين ، وبينما العساكر الصلاحية متفرقون فى جماعات بحثا عن الغنائم ، وبينما كان صلاح الدين فى قلة من عسكره فاجاه الصليبيون بالهجوم اذ خرج بلدوين الرابع مع جنوده والتحم الفريقان فى موقعة سريعة عند تل الصافية بالقرب من الرملة انتهت بهزيمة صلاح الدين وعودته فى نفر قليل من جنده الى مصر بعد أن لاقى من الصعاب والمشقة وقلة الأقوات شيئا كثيرا ، وقد عبر صلاح الدين عما لاقاه من اهوال فى خطاب أرسله الى أخيه توران شاه فى دمشق حتى انه أشرف على الهـلاك(١) .

وقد وقع بعض الجنود الصلاحية اسرى فى أيدى الصليبيين ، وكان من ضمن هؤلاء الفقيه عيسى الهكارى(٢) الذى ابلى بلاء حسنا فى القتال بين

---

(١) ابن الاثير : الكامل ، جـ ١١ ، ص ٤٤٢-٤٤٣ وقد ذكر ابن الاثير انه شاهد هذا الخطاب بخط صلاح الدين نفسه .

(٢) هو ضياء الدين أبو محمد عيسى بن محمد بن عيسى الحسنى الطالبى ، مستشار صلاح الدين ، كان فى أول أمره يشتغل بالفقه فى حلب ، واتصل بالامير أسد الدين شيركوه ، فصار اماما له ولجنده ، وتوجه معه الى مصر ، ولمـا توفى شيركوه سعى الهكارى الى اقامة صلاح الدين فى الوزارة بدلا من عمه شيركوه ، فلما عظم أمر صلاح الدين عـرف للهكارى فضـله وسابقته ، واعتمد عليه فى المشورة ، ولم يخالفه فى رأى ، وكان الهكارى يرتدى لباس الجند ، ويضع على رأسه عمامة الفقهاء ، واستمر على مكانته وتوفر حرمته الى أن توفى بقرب عكا ، ونقل الى القدس فدفن بظاهرها . ابن خلكان : وفيات ، جـ ١ ص ٣٩٧ ، الزركلى : الاعلام ، جـ ٥ ص ١٠٧ .

يدى صلاح الدين الأيوبى ، ويقال ان أرناط صاحب حصن الكرك كان له الفضل فى تقوية عساكر بلدوين لانضمامه بعسكره اليهم ، مما سهل عليهم احراز هذا النصر على المسلمين .

الصليبيون يحاصرون حماة سنة ٥٧٣هـ/١١٧٧م :

انتهز الصليبيون فرصة ما اصاب صلاح الدين الأيوبى من هزيمة فى الرملة وعلموا ان أخاه توران شاه (نائبه فى دمشق) كان فى عسكر قليل ، وتجمعوا ، وساعدتهم الظروف بوصول عدد من المراكب تحمل أعدادا كثيرة من الصليبيين القادمين من أوربا وتحركت هذه الأعداد الغفيرة الى حماة : وضربت عليها الحصار ، وكان صاحبها شهاب الدين محمود الحارمى (خال صلاح الدين) مريضا ، لا يقوى على الجهاد والنضال ، وساعدت الظروف الصليبيين من كل جانب ، فقاتلوا أهل حماة بشدة حتى كادت أن تسقط فى أيديهم ، لولا صمود العساكر وأهل المدينة معا وتكاتفهم حتى ردوا الصليبيين عن بلدهم واثخنوا فيهم القتل الجراح(١) .

حصار حارم :

انتهز الصليبيون فرصة انقلاب الصالح اسماعيل على سعد الدين كمشتكين مدبر شئون ملكه فقد طلب الصالح اسماعيل مدينة حارم منه فرفض فامر بتعذيبه وقتله(٢) ، وقد ترتب على ذلك ضعف مركز الملك الصالح اسماعيل ، لدرجة ان أهالى مدينة حارم أعلنوا العصيان والتمرد عليه .

عندئذ سار الصليبيون الى قلعة حارم فى جمادى الأولى سنة ٥٧٣هـ طمعا فى الاستيلاء عليها وهم يعتقدون بضعف اهلها ، وبضعف الصالح اسماعيل ، وان صلاح الدين الأيوبى فى مصر بعيد عن نجدتها ، فنزلوا عليها وحاصروها مدة أربعة شهور ، ونصبوا عليها المجانيق ، والسلالم ، فاضطر

---

(١) ابن الاثير : الكامل ، جـ ١١ ص ٤٤٤ ، ابن واصل : مفرج ، جـ ٢ ص ٦٤ .

(٢) ابن شداد : النوادر ، ص ٥٣ .

الصالح اسماعيل الى ان يدفع لهم اموالا بعد ان لجا الى تخويفهم بقدوم صلاح الدين الأيوبى الى الشام ، وانه سوف يسلم اليه المدينة وقلعتها ، فآثر الصليبيون اخذ الأموال والعودة الى اماراتهم ، وكان اهالى حارم تعبوا من حصار الفرنج لهم ، فسلموا البلد الى الصالح اسماعيل .

عاد صلاح الدين بعد هذه الهزيمة الى مصر فى جمادى سنة ٥٧٣هـ/(١) ديسمبر ١١٧٧م ورتب صفوفه ثم غادرها فى ٥٧٤هـ/١١٧٨م واتجه الى الشام حيث تقابل مع الصليبيين عند حصن يقال له مخاضة الأحزان(٢) أو (مرج عيون) وهناك نشبت معركة حامية سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م حيث تمكن صلاح الدين من الثأر لهزيمته السابقة ووقع فى يديه عدد كبير من أسرى الصليبيين ، فى مقدمتهم قائد فرسان الداوية .Otto of Saint Amand ، ومقدم فرسان الاستبارية (٣) (فرسان القديس يوحنا) وبعد أن استسلم الحصن أمر صلاح الدين بهدمه وازالته من الوجود .

لم يمض وقت طويل حتى ضعف البيت الأتابكى المناوىء لصلاح الدين فقد توفى سيف الدين غازى ، صاحب الموصل ، سنة ٥٧٦هـ/١١٨٠م ، ثم توفى الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين ، صاحب حلب ، سنة ٥٧٧هـ/١١٨١م(٤) ونتج عن ذلك خلاف على الملك بين عز الدين مسعود الذى أصبح على الموصل بعد أخيه سيف الدين غازى ، وبين أخيه الأصغر عماد الدين زنكى الثانى ، ووجد صلاح الدين أن هذا النزاع لن يمكنه من تحقيق هدفه فى اخراج الجبهة الاسلامية المتحدة الى الوجود لمجابهة قوى الصليبيين بها ، وفكر فى تصفية الموقف مع البيت الأتابكى ولهذا قرر الخروج من مصر لاخضاع حلب والموصل وادخالهما فى طاعته .

---

(١) ابن الاثير : الكامل جـ ١١ ص ٤٤٣ .

(٢) يقع هذا الحصن بالقرب من بانياس ، عند بيت يعقوب عليه السلام ، وتعرف هذه المنطقة باسم مرج عيون ، بروكلمان : ص ٣٥٥ .

(٣) ابن الاثير : الكامل جـ ١١ ص ٤٥٥ ، وكذلك :
Runciman; op. cit., II. p. 418.

(٤) ابن الاثير : الكامل جـ ١١ ص ٤٧٢ .

وكان الذى دفعه الى هذا هو ان ريجنال دى شاتيون (ارناط) ، صاحب الكرك وهو من اشد الصليبيين عداوة للمسلمين ، كان قد جهز عساكره فى تلك الفترة المضطربة (٥٧٧هـ/١١٨١م) يريد المسير بهم الى تيماء ، ومنها الى مدينة الرسول ﷺ لتخريبها ، ولكن الأمير فرخ شاه بن اخى صلاح الدين ، ونائبه على دمشق جمع عساكره وهاجم الكرك ، وخرب ارباضه ، واقام فى اطراف المدينة ليمنع خروج ريجنال ، الذى أدرك اصرار المسلمين على البقـاء حتى تتفرق عسـاكره ، فرجـع عن عزمه وصرف جنـــده(١) .

خرج صلاح الدين الأيوبى من مصر فى المحرم سنة ٥٧٨هـ/مايو ١١٨٢م وكان آخر عهده بها ، فوصل الى الشوبك والكرك فاغار عليهما ، فتحصـن الصليبيون بداخلهما ، فتركهما وواصل مسيره حتى دخل دمشق،ثم خرج منها فى ربيع الأول وعسكر فى الاقحوانة بشرق الاردن ، ووصل الصليبيون فعسكروا بطبرية على مقربة منه فارسل صلاح الدين ابن اخيه فرخ شاه مع بعض قواته الى بيسان ، فدخلها قهرا واستولى عليها(٢) .

ثم سار صلاح الدين الى الرها فحصرها فى جمادى الاولى ، وشدد عليها الحصار ، فاذعن حاكمها فخر الدين مسعود بن الزعفرانى وسلمهـا الى صلاح الدين ، ولم يلبث صلاح الدين أن ضم اليه حران والرقة والخـابور وسنجار ونصيبين(٣) .

كان هدف صلاح الدين من الاستيلاء على هذه المدن الواقعة فى اقلـيم الجزيرة ، هو تضييق الخناق على عز الدين مسعود فى الموصل ، ليستكمل كيان الجبهة الاسلامية المتحدة ، حتى لا تكون الموصل منفذا للصليبيين اذا

---

(١) ابن واصل : مفروج الكروب ، جـ ٢ ص ١٠٢ .
(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٦٢ ، ابن الاثير : الكامل جـ ١١ ، ص ٤٨١ .
(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ص ١١٥ وما بعدها ، وكذلك :
Wiet, op. cit., p. 319.

لم تندمج مع باقى بلدان المنطقة تحت نفوذ صلاح الدين ، ثم ان انضمامها (الموصل) يزيد من قوة المسلمين فى التصدى للقوى الصليبية .

طلب صلاح الدين من الخليفة العباسى (ابو العباس احمد الناصر ٥٧٥ - ٦٢٢هـ) فى بغداد ان يمنحه تقليدا بالموصل ، ولكن الخليفة بعث اليه بامارة آمد (ديار بكر) ، الأمر الذى اعتبره بعض المؤرخين(١) عقبة كؤود وضعها الخليفة العباسى امام توحيد كلمة المسلمين .

عاد صلاح الدين الى حلب ، فاستولى على معاقلها الأمامية وهى آمد ، وتل خالد ، وعينتاب(٢) فى ٥٧٩هـ / يونيه ١١٨٣م ، ثم ضرب الحصار على حلب فسلمها اليه اميرها عماد الدين زنكى الثانى(٣) ، فى مقابل سنجار ، فوافق صلاح الدين(٤) وزاده الخابور ونصيبين والرقة وسروج ، واشترط عليه أن يمده بالجنود لمواصلة الجهاد ، ولم يلبث اهالى حارم ان سلموا مدينتهم الى صلاح الدين ، بعد أن أطاحوا باميرهم لأنه طلب مساعدة الصليبيين فى انطاكية ، وبذلك استقر لصلاح الدين أمر حلب واطرافها فعين عليها ابنه الملك الظاهر غياث الدين غازى نائبا عنه .

وقد ترتب على سقوط حلب فى يد صلاح الدين أن قوى مركزه ، واضحت الجبهة الاسلامية المتحدة ، التى أسسها عماد الدين زنكى ، ورعاها ونماها من بعده ابنه نور الدين محمود ، والتى وقع على عاتق صلاح الدين الأيوبى أن يصل بها الى نهاية الطريق ، أضحت هذه الجبهة اكثر تماسكا من قبل ، واشتدت مخاوف الصليبيين خاصة بعد ما نشط الأسطول المصرى فيما بين

---

(١) العرينى : الأيوبيون ، ص ٦٦ .
(٢) ابن الاثير : الكامل جـ ١١ ص ٤٩٥ .
(٣) هو عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى ، ابن الإثير : نفسه جـ ١١ ص ٤٩٦ .
(٤) يذكر ابن العديم (زبدة الحلب ، جـ ٣ ص ٥٦) ان عماد الدين قال لصلاح الدين : امض الى سنجار وخذها وادفعها الىّ أعطيك حلب ، والحقيقة ان صلاح الدين كان قد استولى على سنجار فى العام السابق .
(٥) أبو شامة : الروضتين جـ ٢ ص ٤٢ وما بعدها .

سنتى ١١٨٣/١١٨٤م ، فالتمس ريموند الصنجيلى امير طرابلس ، والذى كان يعيش فى طبرية باعتبارها من املاك زوجته أرملة الحاكم السابق لطبرية ، من صلاح الدين عقد الهدنة بينهما ، ووافق صلاح الدين لأن هذه الهدنة ستحمى ظهر قواته ، فلا تتعرض لغارات الصليبيين من الشمال ، وتجعله يتفرغ لاتمام توحيد الجبهة الاسلامية ومن ناحية أخرى اراد صلاح الدين ان يعزل الصليبيين فى شمال الشام حتى لا يساعدوا صليبيى فلسطين ، وبذلك عقدت الهدنة لمدة أربع سنوات (١١٨٥ - ١١٨٩م) (١) .

فى خلال تلك الفترة جرت اتصالات بين عز الدين مسعود ، امير الموصل وبين صلاح الدين لإنهاء مشكلة الموصل ، ولكن هذه الاتصالات ساءت بالفشل، واضطر صلاح الدين الى أن يحشد قواته فى صفر ٥٨٢هـ / مايو ١١٨٥م وخرج بها يريد الموصل ، وارسل صلاح الدين الى الخليفة العباسى فى بغداد يخطره بما عزم عليه من منازلة أمير الموصل وأهلها ويشرح لهم أنهم يرسلون الصليبيين ويحرضونهم على مهاجمة بلاد المسلمين ، وانه لم يات رغبة فى زيادة ملكه ، أو التخلص من البيت الزنكى ، وانما قصد أن يردهم الى طاعة الخليفة ونصرة الاسلام .

نزل صلاح الدين بقواته بالقرب من الموصل حتى تنقضى فترة الشتاء ، وكلن عماد الدين زنكى الثانى ، صاحب سنجار ، توسط بين صلاح الدين ، وعز الدين مسعود ، وتم الصلح بين الجانبين فى ذى الحجة ٥٨١هـ / مارس ١١٨٦م ، وقد حقق اكتمال تكوين الجبهة الاسلامية المتحدة بين العراق والشام ومصر ، وأخذ يعد العودة لتحقيق حلمه الكبير الا وهو اعلان الجهاد الأكبر ضد الصليبيين لطردهم من بلاد المسلمن ، التى سيطروا عليها فى فترة ضعف الدول الاسلامية .

---

(١) Wiet, op. cit., p. 320.

الفصل الخامس

(ا) جهـاد صلاح الدين ضد الصليبيين

تعتبر الفترة التى تولى فيها صلاح الدين الأيوبى مسئولية الجهاد ضد الصليبيين من أهم مراحل تاريخ منطقة الشرق الادنى فى العصور الوسطى وبالتالى أهم مراحل تاريخ العلاقات بين المشرق الاسلامى والغرب المسيحى لأن الجبهة الاسلامية الموحدة لم تصبح حقيقة واقعة الا على يد صلاح الدين ، ولذلك أصبح لزاما عليه أن يضع الخطة العامة لطـرد الصليبيين من بلدان المشرق الاسلامى .

حقيقة ان صلاح الدين لم يغفل أمر قتال الصليبيين فى فترة التكوين والاعداد ، ولكنه لم يشن عليهم حربا شاملة ، بل اكتفى بتوجيه ضربات مؤلمة فى قواتهم ، وبذلك أوقف ــ الى حـد ما ــ اعتداءاتهم المتـكررة على المـدن الاسلامية . ولكن بمجرد أن أتم الاستعدادات وأقام التحصينات أخذ يستنفر المسلمين للجهاد فى مستهل سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م فتوافدوا عليه آلافا من الموصل، والجزيرة ، واربل وغيرها من بلاد العراق ، ومن مصر والشام ، وأدرك الصليبيون ان صلاح الدين لابد وأنه متخذ الخطوة الحاسمة لمواجهتهم ، وتوجيه ضربة قاسية لهم بعد أن عين ابنه الملك الظاهر غياث الدين غازى نائبا عنه فى حكم حلب .

الحالة التى كانت عليها الامارات الصليبية :

كانت الامارات الصليبية فى تلك الفترة آخذة فى الضعف ، بسبب قلة التعاون فيما بينها وما أصاب الأمراء الصليبيين من حقد وتنافس وزيادة شقة الاختلاف فيما بينهم ، خاصة فيما بين بوهمند Buhimond وريموند Rymond وبلدوين الأول Baldwin I وداجوبرت Dagobert ... الخ ، ثم لعبت مشكلة الوراثة فى مملكة بيت المقدس دورها الخطير ، وزادت من انقسام الجبهة الصليبية ، فبعدما توفى الملك عمورى (املريك Emlerlo) خلفه ابنه بلدوين الرابع Baldwin IV سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م وكان طفلا مريضا

بالجزام والبرص،فتولى الوصاية عليه ريموند III ، أمير طرابلس(١) ،وكان اكفا الحكام الصليبيين ، وكان لبلدوين الرابع اخت جميلة هى سيبيلا Sibylla وهى الابنة الكبرى لعمورى ، كانت قد تزوجت وليم مونتفرات (همفرى الرابع) الذى توفى سنة ٥٧١هـ/١١٧٥م بعد أن انجب منها بلدوين الخامس ٠ ثم تزوجت سيبيلا للمرة الثانية من فارس فرنسى وسيم هو جاى دى لوزجنان سنة ٥٧٦هـ/١١٨٠م ، وقد اصبح هذا المغامر الفرنسى وصيا على مملكة بيت المقدس بحكم زواجه من سيبيلا ولان ابنها بلدوين الخامس كان صغيرا ، ولكن لم يلبث ان تـوفى بلدوين الخـامس ، واصـبح لوزجنان ملـكا سـنة ٥٨٢هـ/١١٨٦م(٢) ويعتبر هذا التتويج انتهاكا للوعد الذى قطعه لوزجنان على نفسه لريموند ، صاحب طرابلس ، بانه فى حالة وفاة بلدوين الخامس ، دون أن يترك وريثا ، لا يقرر ولاية الحكم الا البابا ، والامبراطور وملكا انجلترا وفرنسا »(٣)٠ وقد ترتب على زواج سيبيلا بلوزجنان أن زاد الانقسام فى الجبهة الصليبية ، وأصبح هناك معسكران (جبهتان) جبهـة تضـم سيبيلا وزوجها جاى دى لوزجنان ومن معهما من الصليبيين وهؤلاء يرون المبادرة لحرب صلاح الدين والمسلمين ، بينما الجبهة الثانية التى تضم ريموند الثالث ومن معه يؤثرون السياسة السليمة نظـرا لاحساسهم بالضـعف الذى أصابهم جميعا ، والانقسام الذى أصبح ظاهرا فى مجتمعهم ، لدرجة أن ريموند راسل صلاح الدين الأيوبى وطلب منه المساعدة على بلوغ غرضه من الفرنج(٤) ووافقه جموع من الصليبيين ، فاختلفت كلمتهم وتفرق شملهم ، ومكث ريموند فى طبرية وظهر بمظهر المتمرد على مملكة بيت المقـدس ، ويبدو أن لجوء ريموند الثالث الى صلاح الدين كان بسبب غضبه الشـديد لاعتلاء جاى دى لوزجنان مملكة بيت المقدس بعد أن تزوج من سيبيلا ، وريموند أحق منه بهذا الملك ، ثم أن لوزجنان طلب من ريموند أن يتقدم

---

(١) باركر : الحروب الصليبية ، ص ٨٠ ٠
(٢) ابن الاثير : الكامل جـ ١١ ص ٥٢٧ ويسميه كى ٠
(٣) باركر : الحروب الصليبية ، ص ٨١–٨٢ ٠
(٤) ابن الاثير : الكامل جـ ١١ ص ٥٢٧ ٠

اليه بكشف حساب عما انفقه حينما كان وصيا على الطفل بلدوين الخامس ابن سيبيلا(١) ، مما اعتبره ريموند اهانة لشخصه . وكان ذلك من الأسباب التى ساعدت المسلمين على استنقاذ بيت المقدس منهم ، ولذلك يرجع جمهرة المؤرخين حالة السوء التى احاطت بمملكة بيت المقدس الى سببين :

الأول : ما نجم عن الحق الوراثى من الضعف ، اى شيوع تعدد زواج الوريثات لمملكة بيت المقدس وانتقال الملك الى هؤلاء الأزواج (المغامرين) وما ترتب على ذلك من تداخل واختلاط فى حقوق الوراثة وان زواج سيبيلا من لوزجنان هو الذى قرر المصير المحتوم للملكة الصليبية .

الثانى : نظـام الانتخاب فى الامارات الصليبية وما ترتب عليـه من احقاد ، وزيادة المنازعات بين الأسر الحاكمة(٢) .

وقد بلغت حالة الاضطراب فى الامارات الصليبية الى دعوة بعض ملوك الغـرب الأوربى ليتولوا شـئون المملكة الصليبية فى فلسطين ، ففى سـنة ١١٨٤-١١٨٥م وصلت الى فرنسا وانجلترا سفارة اشترك فيها بطريرك بيت المقدس ، ومقدم الداوية ، ومقدم الاستبارية ، وعرضوا تاج مملكة بيت المقدس على فيليب اغسطس ، ملك فرنسا ، وهنرى الثانى (الأنجـوى) ملك انجلترا ، كى يضمنوا قدومهم الى الاراضى المقدسة ، ورفض كل من الملكين هـذا العرض .

ويعتبر هنرى الثانى هو الوريث الطبيعى لمملكة بيت لمقـدس عنـد انقراض سلالة فولك ، ويرى المؤرخ الانجليزى (باركر) ان تدخل ريتشارد الأول (قلب اسـد) فى الحمـلة الصليبية الثـالثة كان نابعـا من هـذا الاتجـاه(٣) .

---

(١) ابو شامة : الروضتين ، حـ ٢ ص ٧٤ .
(٢) باركر : الحروب الصليبية ، ص ٧٠ .
(٣) باركر : نفسه ص ٨١ ، حاشية رقم ١ .

هذا الضعف والارتباك الذى أصاب الجبهة الصليبية ، كان يقابله فى الجبهة الاسلامية ازدياد قوتها والتفاف الأمراء حول قيادة صلاح الدين ، فقد افاق المسلمون من هول الضربة التى أنزلها الصليبيون بهم ، واحسوا بالنكبة الخطيرة ، فهبوا من سباتهم ينفضون غبار الهزيمة والفرقة عنهم ويعملون لاستعادة ما فقدوه ، وتكتلوا فى جبهة موحدة سواء كانوا من الغرب أو التركمان أو الأكراد أو الدروز ٠٠٠ ولم يشذ عنهم الا بعض طائفة الاسماعيلية الموجودين على سواحل شرقى البحر المتوسط الذين كانوا يعملون لتكوين دولة خاصة بهم(١) ، حتى ولو استعانوا فى تحقيق ذلك بالصليبيين انفسهم ٠

وقد ساعد المسلمين فى الاحساس باشتداد باسهم عدة عوامل من اهمها :

الشعور الوطنى عندهم بأن هذه الامارات الصليبية أجزاء من أرضهم ، ومدن من بلدانهم وان للقدس منزلة دينية خاصة فى نفوسهم ، وبقاءه فى ايدى الصليبيين عار ومذلة وهوان للمسلمين ، ولابد من استرداده من أيديهم ، ثم ان الهزائم التى اصابت المسلمين فى بدء الحروب الصليبية اثارت حميتهم ، وتركت فى نفوسهم مرارة لابد ان تزول عن طريق غسلها باحراز نصر حاسم على الصليبيين ولعب العامل الاقتصادى دوره ، فموارد الامدادات والتموين متوفرة لدى القوات الاسلامية ، ميسور الحال عليها ، بينما الصليبيون يعتمدون فى تموينهم وامداداتهم على المساعدات الخارجية التى تاتيهم من الغرب الأوربى ، ومن الجانب الاستراتيجى أصبح المسلمون يحيطون بالامارات الصليبية من كل جانب ، فكانت هذه الامارات كالجزر المتناثرة فى محيط من المدن الاسلامية ، وقد أصبحت هذه المدن على درجة كبيرة من القوة والمنعة بعد نجاح صلاح الدين فى توحيد الجبهة الاسلامية التى كان يهدف اليها ، ثم ان عامل الحروب التى خاضها الصليبيون ، والتى واجهتهم فى هذه المنطقة بدات تنهك من قواهم وتضعفهم ، كما انهم

---

(١) كرد على : الاسلام والحضارة العربية ، جـ ١ ص ٣٠١ ٠

فقدوا الحماس الدينى الذى دفعهم بجانب العوامل الاجتماعية والاقتصادية الى القدوم الى المشرق الاسلامى فقلت أعداد الصليبيين المستوطنين فى هذه الامارات ٠

وفى تلك الفترة ظهر على مسرح الاحداث مغامر فرنسى آخر ، كانت حماقته هى السبب المباشر فى القضاء على مملكة بيت المقدس الصليبية ، هو أرناط (ريجنال دى شاتيون) حاكم الكرك ، وكان نور الدين محمود قد أسره ، وظل محبوسا فى الأسر من سنة ٥٥٤هـ-٥٧٢هـ/١١٥٩-١١٧٦م(١) وقد تزوج أرناط أرملة الحاكم السابق لحصن الكرك وتدعى كونستانس Entionnette de Milly وكان أرناط قائدا شجاعا،ولكنه اشتهر بالغدر والخيانة وعدم الوفاء بالعهود والوعود ، وكان يميل الى اشعال نار الحرب ضد المسلمين ٠

ففى سنة ٥٧٧هـ/١١٨١م انتهك أرناط الهدنة المبرمة بين المسلمين والصليبيين بان تعرض للقوافل التجارية القادمة من مصر والشام ، والتى كانت تمر بالقرب من امارته ، فتوترت العلاقات بين الفريقين ، وقد دفع الجنون والحماقة أرناط هذا بان حاول مهاجمة الأماكن المقدسة فى مكة المكرمة ، والمدينة المنورة مرتين ، الأولى سنة ٥٧٧هـ/١١٨١م وقد تصدى له فرخشاه بن أخى صلاح الدين ونائبه على دمشق - كما سبق الاشارة ، وفى المرة الثانية سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م حيث حمل سفنا مفككة على ظهور الجمال ، وقام بتركيبها على ساحل البحر الأحمر ، وملأها بالمقاتلين وآلات الحرب ، ثم أرسل سفينة الى أيله (ايلات) ليمنع أهلها من الورود الى الميـاه ليموتوا عطشا ، وأبحر هو ببقية السفن الى عيذاب حيث قطعوا طريق التجارة ، وخربوا ، ونهبوا وقتلوا وأسروا ثم واصلوا الابحار متجهين الى ساحل الحجاز ، وكانت مباغتة لأهالى مدن سواحل البحر الأحمر ، لانهم لم

---

(١) باركر : الحروب الصليبية ، ص ٨٢ ٠

يعهدوا بهذا البحر فرنجيا قط ، ولا محاربا(١) ، وقد بلغت وقاحة ارناط وانحطاطه الخلقى أن تطاول على مقام الرسول الأعظم ﷺ فلمـا علم صلاح الدين بما قاله هذا السفيه ثارت نفسه ، واقسم ليقتلنه بيده ان هـو ظفـر به .

وما كادت هذه الأخبار تصل الى مصر ، حتى خرج أسطولها الراسى فى خليج السويس ، بقيادة حسام الدين لؤلؤ ، فانقض على السفينة الراسية أمام ايله وقتل بحارتها واحرقها ، ثم ابحر بالاسطول الى عيذاب ، وأدرك السفن الصليبية فى طريقها الى الحجاز ، على مسافة يوم من المدينة المنورة(٢) فأخذ المسلمون يطاردون الصليبيين حتى اوقعوا بهم وباسطولهم ، وفكـوا أسر التجار المسلمين ، وقبضوا على الصليبيين اسرى ، وساقوا جموعا منهم وذبحوهم فى منى ليكونوا عبرة لغيرهم ممن تحدثهم نفوسهم بالتعـدى على حرمات المسلمين المقدسة ، ورجعوا بجموع أخرى ، حيث تم ارسالهم الى بعض المدن الاسلامية ، فضربت أعناقهم بها(٣) .

موقعة حطين ٥٨٣هـ/١١٨٧م

تكتلت رؤوس الصليبيين على ريموند الثالث الصنجيلى امير طرابلس ، وهددوه بسبب مهادنته لصلاح الدين ، وعقد الهدنة معـــه ، واعادوه الى صفوفهم مرة أخرى ، وتجمعوا جميعا وخرجوا الى صفورية(٤) فحشـدوا وجمعوا جموعهم حتى كانوا اكثر من عشرين الفـا(٥) ، وأراد صلاح الدين مواجهة هذه الحشود الصليبية بما عنده من حشود المسلمين ، واشار عليه بعض قواده الاكتفاء بمواصلة الاغارات على مدنهم ونهبها ، وتخريبها ، وسبى النساء والذرارى ، أى ما يشبه حرب العصابات حتى يقلقوا الصليبيين

---

(١) ابن الاثير : الكامل جـ١١ ص ٤٩٠ .
(٢) أبو شامة : الروضتين جـ ٢ ص ٣٥-٣٦ .
(٣) ابن جبير : الرحلة ص ٥٨ وما بعدها .
(٤) ابن خلدون : تاريخ ، جـ ٥ ص ٣٠٦ .
(٥) يذكرهم ابن واصل (مفرج جـ٢ ص ١٨٩) خمسين الفا .

ويحطموا روحهم المعنوية ، ويضطروهم الى الاذعان ، ولكن القائد المسلم صلاح الدين رد على هذا الرأى بتعبيره الصادق : « ان الامور لا تجرى بحكم الانسان ، ولا نعلم قدر الباقى من اعمارنا ولا ينبغى أن نفرق هذا الجمع - يقصد حشود المسلمين - الا بعد الجد بالجهاد »(١) .

اطلق صلاح الدين كل ما فى حوزته من قوة احتجزها عن القتال زمنا طويلا ، حتى تهيأت له الفرصة لهجوم شامل ، فما اشعله الصليبيون من حروب صليبية ، رد المسلمون عليه آخر الامر بالجهاد الدينى ، وبذلك بدأت حرب دينية جديدة تجتاح مملكة الصليبيين(٢) الذين فقدوا الروح المعنوية والحماس الصليبى بينما صار لجيش صلاح الدين سنة ١١٨٧م من الروح المعنوية العالية ، والحماس الدينى المتدفق اكثر بكثير مما كان عند الصليبيين فى بداية الحرب الصليبية الأولى سنة ١٠٩٩م .

فتـح طـبريه :

تحرك صلاح الدين الأيوبى ومعه اثنا عشر الف مقاتل من عشترا(٣) ، يوم الجمعة ١٧ ربيع الاخر سنة ٥٨٣هـ / يوليه ١١٨٧م ، وقضى ليلة فى خسفين(٤) ثم وصل الى ثغر الأقحوان بالأردن ، وقد أحاطت عساكره ببحيرة طبريه ثم أعدوا أنفسهم للحرب بعدما عسكروا فى الجهة الغربية من البحيرة عند سفح الجبل ، وكان صلاح الدين يتوقع ان يهاجمه الصليبيون فى هذا المكان ، ولكنهم لم يتحركوا . عندئذ زحف على طبرية بمجموعة من عساكره ففتحها عنوة فى ليلة واحدة وقام جنوده بتخريب البلد وسلبها ونهبها ، ولكن القلعة امتنعت عليه(٥) .

---

(١) ابن الاثير : الكامل جـ ١١ ص ٥٣٢-٥٣٣ .
(٢) باركر : الحروب الصليبية ، ص ٨٢-٨٣ .
(٣) من نواحى الكرك والشوبك بفلسطين .
(٤) أبو شامة : الروضتين ، جـ ٢ ص ٧٦ .
(٥) ابن الاثير : الكامل ، جـ ١١ ص ٥٣٣ ، وكذلك :
Runciman: op. cit., II, p. 455.

كانت خطة صلاح الدين الأيوبى من الزحف على طبريه أن تصل أخبارها الى الصليبيين فى صفورية فيضطرون الى السير اليه فى هذا الحر الشديد ، ويقطعون هذه المسافة الطويلة ، فيصلون اليه وقد أنهكت قواهم وضعفت قوتهم ، وتتمكن القوات الاسلامية من انزال هزيمة مرة بهم وهم متعبين . وساعدت الظروف القائد صلاح الدين على نجاح خطته ، لأن سيبلا زوجة القومص(١) (ريموند الثالث وصنجيلى - صاحب طرابلس -) أحد القواد الصليبيين فى صفورية كانت موجودة فى القلعة(٢) ، وكان لابد للصليبيين من التحرك الى طبرية لانقاذها وحمايتها حتى لا تقع أسيرة فى أيدى صلاح الدين .

عندما وصلت اخبار سقوط طبرية فى ايدى صلاح الدين ، اجتمع القادة الصليبيون وانقسموا على أنفسهم(٣) فكان من راى ريموند الثالث Reymond III - صاحب طرابلس - أن يبقى الصليبيون فى صفورية الى ان تاتى اليهم جيوش صلاح الدين ، وهى متعبة ومنهكة من هذه المسافة الصحراوية الطويلة بين طبربه وصفورية ، وبذلك يسهل الانتصار عليها وكان مصيبا فى رأيه (نفس الخطة التى اتخذها صلاح الدين)(٤) وكان من راى الفريق الآخر بزعامة ارناط ، صاحب الكرك ، وكان متهورا مندفعا ، وقد انضم اليه مقدم الداوية جيرار دى ردفورت Gyrar de Redfort وكانوا متلهفين على الحرب قبل أن تتزايد قوات صلاح الدين ، وانضم اليهما كذلك الملك « جاى دى لوزجنان » وبذلك تقرر الزحف من صفورية ونقض ريموند عهده

---

(١) هى سيبلا أخت بلدوين الرابع التى أصبحت ملكة على بيت المقدس بعد وفاة بلدوين .

(٢) ابن واصل : مفرج ، جـ ٢ ص ١٨٩ .

(٣) راجع ما ذكره ابن خلدون فى هذا الصدد ، تاريخ ، جـ ٥ ص ٣٠٦ .

(٤) أورد ابن واصل (جـ ٢ ص ١٨٩) عكس ما جاء فى بعض المصادر حيث قال ان ريموند قامت قيامته وقال للفرنج « لا تعود لنا بعد اليوم ، واذا أخذت طبريه ذهبت منا البلاد باسرها » وقد تابعه أبو شامة فى قوله هذا (الروضتين ، جـ ٢ ص ٧٦) .

مع صلاح الدين وانضم وعساكره الى ما قرره الامراء بعد ان انضمت اليهم فرسان الداوية والاسبتارية واخذت هذه الجيـوش مسيرها الى طبريه ٠

وعلم صلاح الدين بخروجهم فى صباح اليوم التالى (الجمعة الرابع والعشرين من ربيع الثانى سنة ٥٨٣هـ /١١٨٧م) ففرح لنجاح خطته ووقوع الصليبيين فى الشرك الذى اعده لهم ، حيث وصلوا وهم على اسوأ حال من شدة العطش والانهاك(١) ٠

نزل صلاح الدين وقواته على أماكن الميـاه ، حتى يمنعـــوه عن الصليبيين ، ونجحوا فى ذلك نجاحا عظيما فقد حاولت جموع من الصليبيين الوصول الى مكان المياه ، ولكنها ابيدت عند اقترابها منه وبدات المعركة ، ودارت رحى الحرب على جبل حطين وفى سفحه بلدة شعيب وبهـا قبره (عليه السلام)(٢) ، وفى اليوم التالى ـ السبت الخامس والعشرين من ربيع الثانى ـ احاطت ظروف عصيبة بالصليبيين الذين كانوا يحاربون على شدة شديدة من شـدة العطش ، وجهد الحـر والحرارة التى تنبعث من كل مكان ٠ من الجو ، ومن الأرض ، ومن اجسامهم ، لأن الفارس الصليبى كان مثقلا بالعدة والعتاد ، وهذه كلها مصنوعة من المعادن ، فتنعكس عليهـا اشعة الشمس الشديدة فى يوليو فتجعل الجندى فى اتون الجحيم ٠ ولم يكتف صلاح الدين بذلك بل أمر باشعال النار فى الحشائش المحيطة بارض المعركة وحملت الرياح ـ وكانت فى اتجاهها على الصليبيين ـ حر النـار والدخـان اليهم ـ فاطبق عليهم شدة حرارة الجو ، ولهيب النار والدخان ، وعـدم وجود مياه للشرب مما اصابهم بشدة الانهاك والاعياء ٠ فى هذه الظروف العصيبة ضيق صلاح الدين الخناق على اعدائه الصليبيين فضربت القـوات الاسلامية عليهم حصارا تاما ، وسدت عليهم كل منافذ الهرب ، ورمى حملة النشاب نشابهم على الصليبيين ، فكانت تخرج كالجراد المنتشر ، ووجدت

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ص ١٩٠ ، بروكمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ٣٥٦ ٠

(٢) أبو شامة : الروضتين ، جـ ٢ ص ٨١ ٠

سيوف المسلمين فى رقابهم مرتعا تصول وتجول ، فقتلوا من خيولهم وجنودهم اعدادا كثيرة(١) .

وكان منظر الصليبيين وهم يفترشون الأرض جرحى ، وقد تورمت افواههم من شدة ما اصابهم من لهيب الحر ، وشدة العطش يثير الأسى ، ولم يحتمل فرسانهم هذا العذاب ، فتوجه خمسة منهم الى بعض امراء جيش المسلمين يتوسلون اليهم أن يقتلوهم ، حتى يتخلصوا من هذا العذاب(٢) .

ومع ذلك فقد استمات الجيش الصليبى الواقف فوق التل فى القتال ، واندفعوا محمومين يهاجمون المسلمين حتى ردوهم اكثر من مرة ، وانزلوا بهم خسائر كبيرة ، ولكن صمود المسلمين ، وصيحات صلاح الدين الايوبى التى كانت تدفعهم الى مواصلة الهجوم ، وانزال ضربات قاتلة بالصليبيين نجحت فى دحرهم والى قتل جموع كثيرة منهم مما اضعفهم وانهكهم فلم يقدروا على الاستمرار فى القتال .

ومن الأسباب التى ادت الى اضعاف الصليبيين وهزيمتهم أن ريموند الثالث اراد أن يفتح ثغرة فى جيش المسلمين ، ليقطع حدة الحصار عن اتباعه ، فهجم بكل فرسانه على الجبهة التى يتولى قيادتها الأمير تقى الدين عمر بن شاهنشاه (ابن أخى صلاح الدين) الذى لجا الى الخديعة العسكرية والتمويه فى القتال فافسح طريقا بين صفوف جنده فاندفع منها ريموند وفرسانه ، فاسرع تقى الدين بسد هذه الثغرة حيث التحمت صفوف جنوده(٣) وبذلك نقص عدد الصليبيين ، وعاد ريموند وفرسانه الى امارة طرابلس ، كما تمكن رينالد دى شاتيون أمير صيدا ومعه باليان ابلين من الهرب تاركين جنودهما الصليبيين فى أتون المعركة مع الملك جاى دى لوزجنان .

---

(١) ابن الاثير : الكامل جـ ١١ ص ٥٣٥ .
(٢) رنسمان : جـ ٢ ص ٧٣٩ .
(٣) أبو شامة : الروضتين ، جـ ٢ ص ٧٧ .

انسحب الصليبيون الى قمتى التل المعروفتين بقرون حطين ، ونقلوا خيمة ملكهم الحمراء الى اعلى مكان ، ولكن لم تلبث خيمة القيادة الصليبية أن هوت ، وهى علامة على الانهزام ، فلما رآها صلاح الدين ترجل من على فرسه وخر ساجدا لله شاكرا وعيناه تدمعان فرحا بحلاوة النصر .

واندفع ريموند وقواته فعلا من خلال هذه الثغرة مكروبين ، وما كادوا يخرجون حتى التامت دائرة الحصار ثانية ، وبذلك عزل ريموند وقواته عن الحشود الصليبية واضطر الى العودة الى امارته طرابلس ، وبذلك ازدادت القوات الصليبية ضعفا فوق ضعفها ، خاصة وأن ريموند لم يلبث ان مات بعد قليل .

استمر القتال عنيفا ، والصليبيون يحاربون بضراوة اليائس من الحياة ، والمسلمون يعملون فيهم القتل ، ويمسكون بالعديد من الأسرى ، ووقع صليبهم المقدس (صليب الصلبوت)(١) فى أيدى بعض المسلمين ، فحملوه الى صلاح الدين فعظم مصابهم ، وضعفت أصلابهم واستمرت الهجمات بين الفريقين ، والقتلى تزداد فى كل هجمة من الهجمات ، والشهداء من المسلمين يتساقطون حتى كتب الله النصر للمسلمين ، ووقع أرناط امير حصن الكرك عدو المسلمين اللدود فى الأسر ، ووقع معه ملك بيت المقدس جاى دى لوزجنان واخوه ، ومقدم الداوية جيرار ، وجموع من فرسانه ، وجموع من الاسبتارية كذلك أسرى(٢) . وقد حمل القاضى ابن ابى عصرون صليب الصلبوت منكسا ودخل به دمشق(٣) .

وقد عبر ابن الاثير(٤) عن هول هذه المعركة وضراوتها بقوله : « وكثر

---

(١) العماد الأصفهانى : الفتح القسى ص ٨٤ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ ٢ ص ٧٨ .
(٢) العماد الاصفهانى : نفسه ص ٨٠ .
(٣) أبو شامة : نفسه جـ ٢ ص ٨٢ .
(٤) الكامل جـ ١١ ص ٥٣٧ .

القتل والأسر فيهم فكان من يرى القتلى لا يظن ان هناك أسرى ، ومن يرى الأسرى لا يظن ان هناك قتلى » .

وقد مر ابن الاثير بمكان الموقعة بعد سنة ، فرأى الأرض ملأى بعظامهم ، ترى من بعيد لكثرتها . منها المتجمع بعضه على بعض ، ومنها المفترق ، سوى ما جرفته السيول ، وأكلته السباع فى تلك الركام والوديان ، وقد أطلق صلاح الدين سراح عدد كبير من الأسرى الفرسان مقابل تسليمهم ما بأيديهم من القلاع والحصون والمدن ، أما الأسرى من الجنود فقد باعهم جند المسلمين رقيقا ، فكان كل ثلاثين أو اربعين أسيرا منهم يربطون بحبل واحد ، حيث تزخرف أسواق الرقيق فى سوريا بهم(١) .

أمر صلاح الدين بضرب خيمة له وطلب احضار ملك الصليبيين وامرائهم ومقدميهم ، فاحسن استقبال الملك « جاى دى لوزجنان » وأجلسه الى جانبه ، وامر ارناط (رينالد دى شاتيون) أمير حصن الكرك ، أعدى أعداء المسلمين ، أن يجلس الى جانب جاى كما حضر الكندسطبل املريك شقيق الملك جاى ، وهمفرى ابن زوجة ارناط وغيرهم(٢) وطلب الملك قليلا من الماء يروى به ظمأه فامر صلاح الدين بتقديم الماء المثلج له(٣) ، فشرب منه ، ثم قدم ما بقى الى أرناط ليطفىء به لظى الحر المشتعل فى جسده ، فقال صلاح الدين : « ان هذا شرب الماء بغير اذن منى » ومعنى هذا انه لم يعطه الأمان فقد جرت العادة اذا قدم للأسير الطعام والشراب الا يضرب عنقه ، ولأن صلاح الدين كان قد نذر ليقتلنه بيده ان التقى به جزاء غدره وخيانته وتطاوله على مقام الرسول الأعظم ﷺ .

ومع كل هذا كان صلاح الدين كريما مع ارناط ، فقد عرض عليه الاسلام

---

(١) ابن واصل : مفروج الكروب ، جـ ٢ ص ١٩٢

(٢) رنسمان : جـ ٣ ص ٧٤١ .

(٣) تذكره المراجع العربية (جُلاب) وهو منقوع الزبيب المثلج . أو ماء الورد المثلج — Dozy; Supp. Dict. Arab.

ليعفو عنه ولكنه رفض ، فذكره صلاح الدين بسوء عمله وقبيح فعله ، فرد عليه ارناط ردا غليظا فتقدم صلاح الدين منـه وضربه بالنمجاه(١) ضربة أطاحت كتفه ، وأجهز الجنود عليه . عند ذلك ارتعدت فرائص الملك جاى ، وظن انه ملاق حتفه هو الاخر لا محالة ، ولكن صلاح الدين هدأ من روعه ، وقال له : لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك ولكن هذا خرج عن حـده فاستحق ما جرى عليه ، ثم بعث صلاح الدين بالملك « جاى » ومن معه من الأسرى من كبار الصليبيين الى دمشق للتحفظ عليهم .

ويصف لنا ابن العماد الأصفهانى(٢) منظر الأسرى فى قوله « وقد رأيت فى حبل واحد ثلاثين أو أربعين يقودهم فارس ، وفى بقعة واحدة مائة أو مائتين يحميهم حـارس » وقـد بيعت الأسرى من الصليبيين كالرقيق بثمن بخس ، ويروى أبو شامة انه شاهد أسرة مكونة من أب وأم وخمسة أبنـا (ثلاث بنين وابنتان) بيعت بثمانين دينار(٣) ، أما فرسان الداوية وفرسان الاسبتارية فقد أمر صلاح الدين بالقضاء عليهم بعدما أمر بايداع قوادهم فى سـجون دمشـق .

وفى اليوم التالى لموقعة حطين ، توجه صلاح الدين بقسم من قواته الى طبريه فارسلت صاحبتها ، زوجـة ريمـوند الثالث تطلب الأمـان لهـا ولأولادها(٤) مقابل تسليم الحصن والمدينـة ، فاجابها صلاح الدين الى ما طلبت ، فخرجت بكل أموالها الى طرابلس ، وعين صلاح الدين على طبرية صارم الدين قايماز النجمى ، فعادت آهلة بالسكان آمنة فى رحـاب أهـل الايمـان .

---

(١) خنجر مقوس يشبه السيف القصير ، وهو تعريب للفظ الفارسى (نيمجة) أو (نمجا) راجع : ابن شداد : النوادر ، ص ٧٩ . ولايزال بعض أمراء اليمن وعمان يحملون مثل هذا الخنجر .

(٢) الفتح القسى : ص ٨٣ .

(٣) الروضتين : جـ ٢ ص ٨٢ .

(٤) ابن خلدون : تاريخ جـ ٥ ص ٣٠٧ .

الاستيلاء على المدن الساحلية :

لاشك ان موقعة حطين كانت نقطة تحول خطيرة فى تاريخ الحروب الصليبية ، لان الصليبيين هزموا هزيمة منكرة ، وأصيبوا بضربة قاصمة لن يفيقوا منها ، فقد فقدوا جل فرسانهم ومقدميهم ومقاتليهم ، وسيكون لهذا تأثيره المباشر على سير الاحداث فى مملكة بيت المقدس الصليبية ، نظرا لأن مدنهم أصبحت شبه خاوية ممن يدافعون عنها .

نزل صلاح الدين بقواته على « عكا » فاستسلم اهلها بمجرد رؤيتهم لجيشه وطلبوا السماح لهم بالرحيل ، فوافقهم صلاح الدين على ما طلبوا ، فخرجوا من المدينة متفرقين وحملوا ما قدروا عليه من أموال ، فدخلها المسلمون يوم الجمعة مستهل جمادى الأولى ٥٨٣هـ / يوليه ١١٨٧م ، وصلوا بها فى جامع قديم كان للمسلمين(١) ثم حوله الصليبيون الى كنيسة لهم ، فأعاده صلاح الدين الى ما كان عليه .

ثم استولى صلاح الدين على جميع ممتلكات الداوية وأعطاها للفقيه عيسى الهكارى(٢) تأديبا لهم لانضمامهم الى ارناط والملك جاى دى لوزجنان فى الحرب ضد المسلمين ، كما وزع صلاح الدين كل ما غنمه فى عكا ، وكان لا يحصى ولا يعد ، على قواد جيشه وفرسانه ، ومكث بها بعض الوقت ليدير شئونها ، كما وهب المدينة نفسها الى ولده الأفضل ، وأعيدت كنيستها الى سابق عهدها مسجدا يؤدى فيه المسلمون شعائر الاسلام ، وقد أشرف القاضى الفاضل على ترتيب القبلة والمنبر وفرشه بالسجاد والبسط ، وعين الفقيه جمال الدين عبد اللطيف بن الشيخ السهروردى إماما له .

ومن عكا أرسل صلاح الدين فرقا من قواته لفتح مدن الناصرية ،

---

(١) ابن خلدون : جـ ٥ ص ٣٠٧ .

(٢) هو أبو عيسى بن محمد بن عيسى بن محمد بن أحمد بن القاسم ضياء الدين ، حضر جانبا كبيرا من فتوحات صلاح الدين ، وحضر مع اسد الدين شيركوه الى مصر .

وقيسارية(١) وحيفا وصفورية والشقيف والفولة ودبورية(٢) وجينين(٣) وزرعين(٤) والطور(٥) واللجون(٦) وبيسان(٧) والقيمون(٨) والزيب(٩) ومعليا(١٠) واسكندرونة(١١) ومنوات(١٢) وكلها مجاورة لمدينة عكا وتحيط بها(١٣) ، وتمكنت هذه القوات من امتلاك هذه المدن كلها بسهولة ، كما بعث حسام الدين عمر بن لاجين(١٤) على راس قوة الى نابلس ، فدخلها وتسلم قلعتها وأقر أهلها على املاكهم واموالهم(١٥) ، وفى طريقه اليها عرج على سمسطية فاستسلمت اليه ، فاعاد مشهد زكريا الذى حولته الفرنجة كنيسة الى مسجد كسابق عهده ، وعمره ونصب به المنبر .

---

(١) قيسارية : على الساحل من أعمال فلسطين . ياقوت : ج ٦ ص ٤٢١ .

(٢) دبورية : بليدة قرب طبرية من أعمال الأردن . ياقوت : ج ٨ ص ٤٣٧ .

(٣) جينين أو جانين : بليدة بين نابلس وبيسان . الفهرس الجغرافى لكتاب النوادر السلطانية .

(٤) زرعين : موضع من نواحى الاردن . المرجع السابق .

(٥) الطور : جبل يطل على طبرية . ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ٦ ص ٢٣١ .

(٦) اللجون : بلد بالاردن على بعد ٢٠ ميلا من طبرية فى وسطه صخرة مستديرة عليها قبة يقال انها مسجد ابراهيم عليه السلام . ياقوت : ج ١٧ ص ١٣-١٤ .

(٧) بيسان : مدينة بالاردن بالغور الشامى بين حوران وفلسطين . ياقوت ج ٤ ص ٥٢٧ .

(٨) القيمون : حصن قرب الرملة من أعمال فلسطين .

(٩) الزيب : قرية قرب عكا على الساحل وتعرف باسم شارستان .

(١٠) معليا : من نواحى الاردن بالشام .

(١١) اسكندرونة : مدينة فى شرق أنطاكية على ساحل البحر المتوسط ، بينها وبين انطاكية ٨ فراسخ .

(١٢) منوات : بلدة بسواحل الشام قرب عكا .

(١٣) ابن واصل : مفروج الكروب ، ج ٢ ص ٢٠٢ .

(١٤) أمة شقيقة لصلاح الدين الايوبى ، تعرف باسم (ست الشام) وقد توفى حسام الدين سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م . ابن تغرى بردى : النجوم ج ٦ ص ٢٦٤ .

(١٥) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٥٤٠ ، ابن خلدون : تاريخ ج ٥ ص ٣٠٨ .

وفى نفس الوقت أرسل الى أخيه الملك العادل بمصر يبلغه خبر انتصارات المسلمين فى حطين ، ويأمره بمهاجمة مراكز الصليبيين فى جنوب فلسطين ، القريبة من مصر فخرج الملك العادل بقوات مصر وضرب الحصار على حصن مجدليابه ، وغنم ما فيه ومنه اتجه الى يافا ، على الساحل ، ففتحها عنوة وملكها ، وأسر رجالها ، وسبى نساءها ، واخرجهم يهيمون على وجوههم فى المدن الأخـرى(١) .

وكذلك أرسل ابن أخيه تقى الدين عمر الى تبنين(٢) فنزل عليهـا بـجنوده وقطع الميرة عنها وعن صور ، ولكنه لم يتمكن من فتحها ، فخـرج صلاح الدين بقواته اليها فى جمادى الأولى سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م وضيق على أهلها الحصار ، فاطلقوا من كان عندهم من أسرى المسلمين ، وكانوا أكثر من مائة رجل ، فامر صلاح الدين لهم بمال وكسوة وصرفهم الى أهليهم ، ثم طلب أهل الحصن الأمان ، فأجابهم صلاح الدين الى ما طلبوا ، وخرجوا منه ، وامتلكه المسلمون . ثم توجه بقواته الى صيدا وفى طريقه اليهـــا استولى على صرخد بدون قتال . فلما قرب من صيدا ، رحل أميرها وأهلها عنها ، وتركوها خالية فدخلها صلاح الدين ، ويقال ان حاكم المدينة أرسل مفاتيحها الى صلاح الدين(٣) فوضع فيها من يسكنها ويدافع عنها ، ثم انطلق صوب بيروت ، فوجد أهلها قد امتنعوا فوق أسوارها ، وأعدوا أنفسهم للقتال ، وحفروا خندقا لحمايتها ، وظنوا ان حصانة بيروت ستحول دون سقوطها فى أيدي المسلمين الذين هاجموا المدينة مـرة بعـد أخـرى وهى صامدة ، فلجأ صلاح الدين الى الحرب النفسية ليصيب نفوس الصليبيين بالخوف والوهن وبعث من أشاع فى المدينة ان المسلمين دخلوا البلد قهرا من الناحية الأخرى ، فاضطرب أهلها ، وتفرقوا من على أسوارها ، ووقع

---

(١) راجع ما ذكره ابن الاثير فى هذا الصدد بتفصيل فى المرجع نفسه ص ٥٤١ .

(٢) تبنين أو تبنينا : بلدة فى جبال بنى عامر المطلة على بانياس ، بين دمشق وصور .

(٣) العماد الأصفهانى : الفتح القسى ص ١٠٣ .

الخوف فى قلوبهم ، فطلبوا الامان ، فامنهم صلاح الدين ، وتسلم المدينة منهم فى التاسع والعشرين من جمادى الأولى ٥٨٣هـ/١١٨٧م بعد حصار دام ثمانية أيـام(١) .

عرض صاحب جبيل (هيو الثالث ويعرف باسم هيو أمير باكو) وكان ضمن الأسرى فى دمشق ، على نائب صلاح الدين (الصفى بن القابض) ان يسلم المدينة وحصنها الى صلاح الدين ، مقابل الافراج عنه ، فاخطر صلاح الدين وهو على بيروت ، فوافق واستلم جبيل وحصنها ، وفك أسر اميرها الصليبى قبل دخول بيروت بيومين .

فتـح عسـقلان :

ترك صلاح الدين مدينة صور وثغرها مؤقتا لمناعتها ، ولتاكده من ان حصارها سوف يستغرق وقتا طويلا ، وتوجه الى عسقلان ، وكان قد كتب لأخيه الملك العادل أن يلتقى به وبجيش مصر على عسقلان ، وضربت الجيوش الاسلامية حصارها على المدينة يوم الأحد السادس عشر من جمادى الأخيرة سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م وامتنع أهلها عن التسليم ، واصروا على المقاومـة ، ومع ان صلاح الدين شدد هجماته على المدينة ، ونصب المجانيق عليها ، وكرر هجماته عليها الا أنها بقيت تقـاوم .

استعان صلاح الدين بالملك « جاى دى لوزجنان » ومقدم الداوية ووعدهما باطلاق سراحهما ان هما أقنعا أهل عسقلان بتسليم المدينة ، ويبدو ان أهل عسقلان رأوا ازدياد ضعفهم ، وتناقص أعدادهم ، لأنهم اذا قتل منهم رجل لا يجدون له عوضا ، ويئسوا من وصول نجدة لهم بعد أن سقطت المدن الأخرى فى يد صلاح الدين ، فاضطروا الى قبول نصيحة « جاى دى لوزجنان » ومقـدم الداوية ، ولكنهـم اشترطوا على صـلاح الدين بعض

---

(١) ابن خلدون : تاريخ جـ ٥ ص ٣٠٨ ، العماد الاصفهانى : نفسه ص ١٠٣ .

الشروط ، فقبلها(١) واستلم المدينة منهم ، ولم تلبث معاقل وحصون الفرسان الداوية أن اذعنت ، فاستسلمت الرملة ، والداروم (البطرون) ، وغزة ، وبيت لحم ، وبيت جبريل ، والخليل والنطرون ، وبذلك استولى صلاح الدين على جميع مراكز الصليبيين الداخلية والساحلية فى الجنوب ماعدا صور على الساحل ، والشوبك والكرك جنوب بحيرة طبرية اذ بقى هذان الحصنان وحصون كوكب وصفد وشقيف أرنون على المقاومة(٢) .

فتح بيت المقـدس :

أرسل صلاح الدين الأيوبى ، وهو على عسقلان ، أوامره للأسطول المصرى أن يبحر بجميع وحداته ، وبكامل قواته ، بقيادة حسام الدين لؤلؤ الحاجب ، وأن يقف على مقربة من الساحل الشرقى للبحر المتوسط ، ويقضى على أى سفينة تابعة للصليبيين .

تقدم صلاح الدين بقواته فوصل الى بيت المقدس فى رجب ٥٨٣هـ / ١١٨٧م ، وكان الصليبيون قد استفادوا من الفرصة التى اتاحها لهم صلاح الدين بعدم مهاجمتهم بعد حطين مباشرة فاعدوا انفسهم للحرب ، وحصنوا مدينتهم ونصبوا المجانيق فوق أسوارها ، ورفضوا أن يستجيبوا لنداء صلاح الدين بتسليم المدينة ، وكان بلدوين الإلينى ، وبطريق بيت المقدس ، ومقدم الداوية ومقدم الاسبتارية على رأس جموع الصليبيين ، الذين بلغ عددهم ستين ألفا .

صمم صلاح الدين على دخول المدينة عنوة ، فنصب المجانيق ، ورتب الجنود وأعدهم للهجوم من الجهة الشمالية للمدينة (عند باب عمورا وكنيسة صهيون) وبدأ القتال عنيفا بين الجانبين فالصليبيون مستميتون فى

---

(١) ابن الاثير : الكامل جـ ١١ ص ٥٤٥ـ٥٤٦ .
(٢) ابن واصل : مفروج الكروب : جـ ٢ ص ٢٠٩ـ٢١٠ .
Baldwin, op. cit., p. 615.

الدفاع عن عاصمة مملكتهم ، وآخر معقل لهم ، ورمز انتصارهم فى الحروب الصليبية الظالمة ، التى استباحوا فيها حرمات المسلمين وديارهم ، والمسلمون مندفعون كالسهام لاسترداد ارضهم المقدسة ، وتطهير بلادهم من أدران الصليبيين ، ومسح العار عن جبينهم ، فحملوا حملة رجل واحد ، فازالوا الصليبيين عن مواقعهم(١) وادخلوهم المدينة ، ووصلوا الى الخندق ، واجتازوه الى السور ، فنقبوه وحشوه بعبوات مدمرة ، واحكم رماة المجانيق الرمى المتوالى على الصليبيين ، الذين ادركوا عندئذ انهم اشرفوا على الهلاك ، فطلب رؤساؤهم من صلاح الدين الامان ، فتمنع عن اجابتهم وقال انه يريد ان ياخذ القدس عنوة ليفعل بالصليبيين مثلما فعلوا بالمسلمين عندما تملكوه سنة ٤٩١هـ/١٠٩٩م · عندئذ هدد الصليبيون بحرق المدينة ، وتخريب قبة الصخرة ، وقتل اسرى المسلمين ، واتلاف اموال وممتلكات الصليبيين ، ثم الاستمرار فى الحرب حتى لا يبقى منهم احدا ، فجمع صلاح الدين مجلس امرائه وقواده واستشارهم ، فاستقر رايهم على المصالحة وتسلمهم المدينة بدون تخريب ·

شروط التســـليم :

تزيدت رسل الصليبيين تعرض شروط التسليم ، وتلح فى طلب الامان ، ولان صلاح الدين كانت تتجسد فى شخصيته الاخلاق الاسلامية فقد وافق على شروط الصلح التى تدل على تسامحه واعتداله وكريم خلقه · واهم هــذه الشروط ان يدفع الصليبيون الفدية على كل رجل عشرة دنانير ، وعلى كل امراة خمسة ، وعلى كل ولد او بنت دينارين ، فمن دفع فى ظرف اربعين يوما سمح له بالخروج من المدينة آمنا بماله ، ومن لم يدفع اخذ مملوكا ، وسمح صلاح الدين للرعايا المسيحيين من الشاميين واليونانيين بالبقاء كرعايا ومع كل ذلك فقد كان صلاح الدين كريما الى اقصى حدود الكرم ، فقد اطلق سراح كثير من الفقراء بدون دفع الفدية المقررة ، وقبل ثلاثين الف دينــار

---

(١) ابن الاثير : الكامل جـ ١١ ص ٥٤٨ ·

دفعها باليان بن بيرزان (بلدوين الإلينى) صاحب الرملة وطرابلس ، فدية عن ١٨٫٠٠٠ رجل(١) وأكثر من هذا أطلق صلاح الدين لملكة بيت المقدس ، زوجة الملك جاى أموالها وخدمها ، وكذلك فعل مع كثيرات غيرها من زوجات أمراء الصليبيين ، مثل الأميرة Etiennette أرملة ارناط نفسه وبعث بهن فى حماية جنوده الى مدينة صور التى اخترنها ، وأكرم رجال الكنيسة ، فخرج البطريرك بامواله الهائلة وتحف الكنيسة دون أن يتعرض له انسان،ولم يدفع غير عشرة دنانير مثله مثل أى فرد آخر ولم يسأل عنفقراء قومه ممن لا يملكون الفدية ، وأخيرا دفع صلاح الدين الفدية لعدد كبير من فقراء الصليبيين ، فقد دفع من جيبه الخاص نحو عشرة آلاف دينار ، ومع كل هذا فقد كان عدد الذين استرقوا ، ولم يقدروا على دفع الفدية ستة عشر الفا(٢) من الرجال والنساء والصبيان .

ومن مآثر صلاح الدين ان أحد الأمراء الصليبيين استوهبه ما يقرب من ٥٠٠ أرمنى زعم انهم جاءوا ليحجوا وانهم معدمون ، فوهبهم له وتم اطلاق سراحهم ، بل أكثر من ذلك أنه كان يمنح فقراء الصليبيين ما يساعدهم على الحياة من ماله الخاص(٣) .

وكان صلاح الدين قد رتب عدة دواوين ، فى كل منها مجموعة وكل اليهـا استلام مبالغ الديات ، واعطاء ما يثبت السداد حتى يمكن الخروج بواسطته من البوابات ، ولكن للأسف الشديد استغل بعض من وكل اليهم الأمر نفوذهم ، وأعماهم الطمع ، ودفعهم حب المـال ، فكانوا يأخذون الرشوة من الفرنجة ويقدمون اليهم الافراج (ايصالات السداد) التى يخرجون بواسطتها ، وقد عبر العماد الكاتب عن أسفه بقـوله : « ولو حفظ هذا المال حق حفظـه لفـار منـه بيت المـال بأوفر حظه لكنما تم التفريط ، وعم

(١) ابن الاثير : الكامل ، جـ ١١ ص ٥٥ .
(٢) يتراوح هذا العدد فى المصادر العربية ما بين ١٥ ألف ، ١٨ ألف من الذين دخلوا فى عداد الرقيق لفقرهم ، راجع ، أبو شامة : جـ ٢ ص ١١٥ .
(٣) العماد الأصفهانى : الفتح القسى ص ١٣٣ وما بعدها .

التخليط ، فكل من رشا مشى ، وتنكب الامناء نهج الرشد بالرشا ، فمنهم من ادلى من السور بالحبال،ومنهم من حمل تخفيا فى الرحال...الخ»(١).

دخــول بيت المقدس :

دخل صلاح الدين بقواته الى بيت المقدس يوم الجمعة ٢٦ رجب سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م وكان القدر قد اختار له هذا اليوم بالذات ليعيد الى المسلمين مسجدهم الاقصى بعد ان ظل حبيسا فى ايدى الكفرة ٨٢ عاما ليذكرهم باليوم الذى اسرى فيه بالرسول الأعظم محمد ﷺ من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى منذ اقل من ستة قرون . بدأ صلاح الدين باصلاح ما افسدته أيدى الصليبيين فى مبنى المسجد الأقصى اثناء اقامتهم بهذه المدينة المقدسة ، فاعاد المسجد الى حياته الأولى حيث رمم المسجد وأصلحه ، وجمله ، وفرشه بالبسط ونقل اليه المنبر الذى كان نور الدين محمود قد صنعه فى حلب قبل عشرين سنة ، لأنه كان يرى ان المسلمين لابد سيستعيدون بيت المقدس(٢) ، كما أزيل الصليب المذهب الذى نصبه الصليبيون فوق قبة الصخرة(٣) ووضع مكانه هلال كبير من الذهب ، وأمر صلاح الدين بهدم جميع اماكن العقيدة النصرانية فى هذه البقعة المقدسة ، وفى غير ما إبطاء ، سعى صلاح الدين الى أن يقضى على آخر آثار الحكم الصليبى فى المشرق(٤) وكعادة صلاح الدين بدأ فى اصلاحاته الداخلية المعروفة ، فانشأ المدارس السنية ، واقام المستشفيات ، وفى الجمعة التالية القيت بالمسجد الأقصى خطبة الجمعة(٥) بعد توقفها ٨٢ سنة ، وقد بلغ مجموع ما وزعه من اموال وهو

---

(١) العماد الأصفهانى : نفسه .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ص ١١٢ .

(٣) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٥٥١ ، راجع كذلك ص ٥٥٢ حيث الوصف الشيق للمنبر الذى صنعه النجارون فى حلب لنور الدين محمود ، العماد الكاتب : مصدر سابق ، ص ١٣٦ .

(٤) بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص ٣٥٧ .

(٥) تولى القاضى محيى الدين ابو المعالى محمد بن زكى الدين على القرشى إمامة المسجد الأقصى ، وكان قبل ذلك قاضى قضاة دمشق ، توفى سنة ٥٩٨هـ وعمره ٤٨ سنة . ابن تغرى بردى ج ٦ ص ١٨١ .

على بيت المقدس ما يزيد عن ١٠٠ الف دينار حتى ان اخاه الملك العادل ألح بالقول عن ذلك الافراط(١) ٠

صور ومقاومتها للحصار :

خرج صلاح الدين بقواته يوم الجمعة ٢٥ شعبان وصحب معه اخاه الملك العادل ليستعين به فى حصار صور - وكان قد سبقه اليها بأيام ولده الأفضل وبعض الأمراء ومعهم جموع من العساكر - ، فوصلها الجميع يوم الجمعة ٩ رمضان وبدأت القوات فى ضرب الحصار على المدينة واكتمل لها يوم ٢٢ رمضان ٠ وكان الصليبيون الذين تركهم صلاح الدين يخرجون آمنين بأموالهم من المدن التى استولى عليها قد تجمعوا فى مدينة صور ، وساعدت الظروف هذه المدينة بأن تولى أمرها المركيز « كونراد مونتفرات » ، بعد وفاة اميرها ، فقام كونراد بتحصينها وحفر الخنادق التى تتصل بالبحر حولها ، فاصبحت كالجزيرة الحصينة ، ولهذا فشلت جميع محاولات صلاح الدين فى الاستيلاء عليها على الرغم من وصول ابنه الملك « الظاهر غازى » من حلب ومعه جيش كبير من النقابين والمحاربين(٢) ٠

وجد صلاح الدين انه لابد من الاستعانة بالأسطول من جهة البحر ، فاستدعى الأسطول المصرى الموجود فى عكا ، ثم تبع هذا الأسطول مجموعة اخرى قادمة من بيروت وجبيل ، وشددت الأساطيل الاسلامية الحصار على أسطول الفرنجة الراسى داخل ميناء صور ، لدرجة انه لم يستطع ان يتحرك فى أول الأمر ، وما كاد رجال الأساطيل الاسلامية يشعرون بتفوقهم وخلو البحر من سفن العدو حتى أمنوا واغتروا بالسلامة فنعسوا وغاصوا فى بحر من النوم

---

(١) أبو شامة : الروضتين ، جـ ٢ ص ١١٥ ٠

(٢) العماد الكاتب : مرجع سابق ص ١٥٨-١٥٩ ٠

ووجد الأسطول الصليبى الفرصة سانحة له ، فانقض مهاجما سفن المسلمين ، وأخذها على غرة ، فاغرق بعضها ، وأسر البعض الآخر .

ويرجع بعض المؤرخين سبب هذه الهزيمة الى عدم خبرة بعض ربانية هذه السفن وجنودها الذين حشدوا ثم جشروا فى الأسطول على عجل دون خبرة فى البحر ، أو تجارب فى السفر ، ولكنى أرجح ان سبب الهزيمة يرجع للأسباب الآتيـة :

١ - تعدد الأساطيل مصرية وشامية ، وكل أسطول بل كل سفينة لهـا قائدها وجنودها المحاربون ، ومن الطبيعى أن لكل قائد وجنوده أسلوب خاص بهم فى الحرب ربما يختلف عن أسلوب الآخرين .

٢ - عدم وجود قيادة موحدة لهذه الأساطيل للتنسيق فيما بينها جعل لكل قائد وكل سفينة تعتمد على الأخرى فى حراسة الشاطىء ومراقبة العدو ، مما أوجد نوعا من التراخى والاستهتار وهما سبب هزيمة أى جيش فى ميدان الحرب .

٣ - اعتماد المحاربين المسلمين على ما احرزوه من انتصارات متوالية بقيادة صلاح الدين الأيوبى أوكلتهم الى شىء من احتقـار قـوة عدوهم والاستهانة به ، فناموا حتى باغتهم هذا العدو باسطوله ، وأنزل بهـم الهزيمة واستولى على خمس سفن من الأسطول المصرى .

٤ - حرك هذا الانتصار فى نفوس الصليبيين الرغبة فى مهاجمة جيوش صلاح الدين الأيوبى لينزلوا ضرباتهم بهم ، ولكن سرعان ما تصدت جيوش المسلمين لهذا العدو ، وأمطرت جنودهم بوابل من النبال والحراب بعد أن احاطت بهم من كل جانب ، فقتلوا منهم أعدادا لا تحصى وأجبروهم على الفرار منهزمين الى صور ليحتموا بها .

ولكن اليأس كان قد أصاب بعض جنود صلاح الدين الأيوبى نتيجة

لمناعة صور من جانب ، ولوقوع خمسة من قطع الأسطول المصرى فى أيدى الصيبيين نتيجة استهتار مقدميها ورؤسائها الذين سهروا طوال الليل ثم استغرقوا فى النوم ، وانتهزت سفن الصليبيين هذه الفرصة وانقضوا عليهم وركبوهم ونكبوهم ، فامر صلاح الدين بقية الأسطول أن يسير الى بيروت . لهذه الأسباب رغبت جموع كثيرة من الجنود فى عدم حصار المدينة لحصانتها وعدم الرجاء فى استسلامها ، فتألم صلاح الدين لهذا الموقف فاخذ يستميلهم ويرغبهم فى النصر ، ويخوفهم مسئوليتهم أمام الله عز وجل عن تخليهم عن الجهاد ، ويرهبهم من مساءلة الشعب لهم حتى عادوا وانضموا الى زملائهم وشاركوا فى حصار المدينة من جديد ، ولكن كان فى نفوسهم شىء ، لأنهم لم يصدقوا القتال كما يتضح من تسلسل الأحداث .

فى اثناء مداومة الحصار على صور وصلت أنبـاء باستسلام حصـن هوتين(١) ، فارتفعت الروح المعنوية بعض الشىء لجنود صـلاح الدين ، فتدافعوا على صور والتحموا بالفرنجة فى قتال عنيف حيث سقط منهم اكثر ممن استشهد من المسلمين ، ومع ذلك كان عدد الجرحى من المسلمين كثيرا .

إشتد برد الشتاء فاثر فى تحركات الجند ، وكاتب الأمراء صلاح الدين بوجوب فك الحصار عن صور ، والعودة اليها فى وقت لاحق ، وكان صلاح الدين قد زود هذه الجيوش بمعدات كثيرة ، فخشى ان هو تركها استغلها الفرنج وتحصنوا بها ، واستعملوها ضد المسلمين ، فامر بفك بعض أجزائها ونقله الى عكا أو صيدا ، اما ما تعذر فكه أو نقله فيجب أن يحرق ويدمر حتى لا يفيد العدو منه شيئا .

والمتمعن فى استراتيجية الانسحاب التى وضعها صلاح الدين لا يملك الا أن يحنى الرأس تبجيلا وتعظيما لهذا القائد الفذ ، لأنه لا يسمح بترك اى شىء من أسلحة جيشه ، حتى لا يحصل عليه العدو فيفيد منها ، أو يقف

---

(١) هوتين : بلدة فى جبال تطل على نواحى مصر الغربية . ياقوت ج ٥ ص ٤٢٠ .

على أسرار استعمالها فيسارع بايجاد أسلحة جديدة لتبطل مفعولية هـذه الأسلحة ، وهذا القانون الحربى لايزال سائدا فى جيوش العصر الحديث .

عادت جيوش صلاح الدين من صور الى عكا فى آخـر شـوال سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م على أن تعود لمحاصرتها فى بداية الربيع ، وغاد الأمـراء الى بلدانهم ، فعاد الملك الظاهر بن صلاح الدين الى حلب ، ورجع الملك العادل الى مصر ، بينما بقى الملك الأفضل فى عكا مقيما مع والده .

اصبحت صور مركزا لاحياء مملكة بيت المقدس الصليبية فيما بعد ، الأمر الذى جعل جمهرة من المؤرخين المسلمين وعلى رأسهم ابن الاثير(١) يوجهون اللوم لصلاح الدين باعتبار ان سياسة التسامح والمروءة التى اتبعها مع اعدائه الصليبيين ، هى التى أدت الى هذا التجمع فى صور ، وحشـد هذه الجموع الكثيرة فى مدينة واحدة فاصبحت بذلك دار هجرة لهم ، يحتمون بهـا ، ويلجاون اليها ، فزادهم ذلك حرصا على حفظها والدفاع عنها ، ولذلك تمكنت المدينة من أن تقاوم ، وتظل على مقاومتها مـدة طويلة ، وتصبح بالتالى مصدر خطر كبير على صـلاح الدين نفسـه ، وعلى المـدن الاسلامية فى المنطقة .

لأنه كان ينبغى على صلاح الدين ان يزحف على بيت المقـدس فـور الانتهـاء من موقعـة حطين لأن المملكة الصليبيـة غدت بدون جيش يدافع عنهـا ، ولأن الصـدمة التى زلزلت نفوسهم ، وهدت كيانهم بعد تحطيمهم فى موقعة حطين ، كان اثرها لايزال باقيا وقتذاك ، وكان من السهل عى صلاح الدين فتح بيت المقدس دون عناء . ولكنه أخطأ حين توجه الى فتح مدن الساحل ، ولكننا لو درسنا الموقف دراسة تفصيلية ، نجد ان صلاح الدين لم يكن مخطئا فى استراتيجيته العسكرية لأنه أراد ان يقطع عن بيت المقدس

---

(١) ابن الاثير : الكامل جـ ١١ ص ٥٥٥-٥٥٦ ، عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٨١١ وما بعدها .

وصول اى مدد من هذه المدن ، وان يؤمن مواصلاته البحرية بين شطرى دولته فى الشام ومصر(١) ، لأن مدن الساحل كانت حاجزا يحول دون هذا الاتصـــال .

ومن جانب آخر فان سياسته التى سمح فيها بخروج الصليبيين من المدن التى فتحها ، قللت جدا من عدد الصليبيين فى هذه المدن ، وبذلك أمن إلا تعاود هذه المدن الحرب ضده مرة ثانية أو تعلن التمرد والعصيان ، فتسبب لتحركاته العسكرية الارتباك والاضطراب ، ثم انه جمع كل القوى الصليبية فى المملكة فى مكان واحد قرب الساحل ، لأن وجودها فى الحصون الداخلية التى تتخلل دولته أشد خطرا من وجودها فى حصن على الساحل ، لأن الحصون الساحلية يمكن حصارها من البحر بجانب حصارها من البر ، وهى مع ذلك لا تستطيع الاستمرار فى المقاومة دون نجـدات تصلهـا من الخارج ، ووصول النجدات أمر لا يمكن أن يستمر طويلا ، لان حماسـة الصليبيين فى أوربا سوف تخبو وتتلاشى مع الزمن ، ولو قضى صلاح الدين هذا الوقت الطويل كله فى حصار صور ، ولم يتجه لفتح المدن والحصون الداخليـة والسـاحلية ثم بيت المقـدس . ووصـلت الحمـــلة الصليبيـة الثالثـة لتغـير مجـرى الأحـداث التاريخية فى ذاك الوقت ، خصوصـا وان الموعـد الذى حـدده صـــلاح الدين لاطـــلاق سراح الملك « جـاى دى لوزجنـان » ومقـــدم الداوية كان سيحـل وهو محـاصر لصـور ، وكان لابد وأن يفى بوعده ويطلق سراحهما ، ولنا ان نتصور ماذا يمكن أن يحدث من هذين الشيطانين ، لو لم يقض صلاح الدين على كل الجيوب الصليبية فى الداخل ، ومدن الساحل ، ويكفى الاشارة الى أن صلاح الدين اشترط عليهما الا يشتركا فى أى حروب ضده ، ومع ذلك فقد حنثا بوعدهما كالعادة ، ولم يوفيا بتعهداتهما وذهبا الى صور وانضما الى الصليبيين هناك .

---

(١) Stevenson; The Grusaders in the East. p. 294.

ومهما وجه المؤرخون من نقد الى صلاح الدين بسبب استراتيجيته الحربية ، فانى أرى ان اى تحليل تاريخى للمعارك الحربية بعد ان يخمد صليل سيوفها ، وينقشع غبارها ، لا يكون هو الرؤية الحقيقية التى رآها وعاشها قائد هذه المعركة الرهيبة أو تلك ، لأن المؤرخ يكتب تحليله ويبنى رايه وهو هادىء الأعصاب ، متزن التفكير ، يمعن النظر فى الخطط القتالية والتحركات العسكرية على مائدة ثابتة فى جو الطمانينة والأمان ، بينما القائد العسكرى يضع هذه الخطط ويرسم تلك التحركات وهو يعبر ساحة الوغى ، تحيط به السيوف وتلاحقه النبال ، فتاتى خططه متفقة تماما مع قدرته الفكرية ، ورؤيته العسكرية وملائمة للظروف والعوامل التى تحيط به ، ومدى ما عنده من معلومات عن قوة عدوه وتعداد جنده ، ولذلك يمكن القول ان صلاح الدين لم يخطىء ، وانما بنى استراتيجيته العسكرية على رؤية خاصة به ، لا على أساس ما ينبغى ان يكون .

الفصل السادس

الحملة الصليبية الثالثة وسقوط عكا ثانية

احدثت موقعة حطين وما لقيه الصليبيون فيها من هزيمة مرة ، وما تبعها من سقوط بيت المقدس فى أيدى صلاح الدين الأيوبى دويا هائلا فى الغرب الأوربى ، وذعر العالم المسيحى فى الغرب من هول هذه الكارثة التى أصيب بها اخوانهم فى المشرق الاسلامى ، وأدركوا ان ملك الصليبيين فى الشام الى زوال ، فقد سقطت الرها من قبل فى سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م ، وها هى معظم مدن الشام الساحلية والمدن الداخلية ينفرط عقدها فى أيدى صلاح الدين ، الذى أنزل بالصليبيين فى الشام ضربة قاصمة فى حطين ، وختمها باسترداد بيت المقدس من أيديهم سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م بعد أن ظل فى أيديهم أكثر من ثمانين عاما . وتراءت الصورة للبابوية وللصليبيين الأوربيين ان الأمور عادت من جديد الى ما كانت عليه قبل الحملة الصليبية الأولى تقريبا ، وانهم ملزمون بالتعجيل بارسال حملة صليبية جديدة للانتقام من المسلمين وقائدهم صلاح الدين ، وللاستيلاء على بيت المقدس مرة أخرى .

ويعتبر كونراد مونتفرات المحرك الأول لتكوين هذه الحملة ومجيئها الى المشرق الاسلامى . فقد أرغمته ظروف جريمة ارتكبها على ترك البلاط البيزنطى فى القسطنطينية ، ولم يجد مكانا يتوارى فيه سوى الأراضى المقدسة ، فوصل الى مدينة عكا عن طريق البحر بعد سقوطها فى أيدى المسلمين بعدة أيام(١) ، وكاد يقع أسيرا لولا انه اسرع بالابحار فى مركبه الصغير وهرب الى مدينة صور ، فوجد ان الصليبيين الذين نجوا من هول الكارثة (حطين وبيت المقدس) احتشدوا فيها ، ويعيشون داخل اسوارها مذهولين مذعورين . وكان وصول كونراد مونتفرات فى هذا الوقت بالذات

---

(١) يحددها بيكر (الحروب الصليبية ، ص ٨٦) بثلاثة اسابيع .

بمثابة المنقذ لهم ، نظـرا لمـا اشـتهر به من نشـاط لا يكل ولا يرحم ، فاخذ يشجعهم ، واتفق مع زعمائهم على ارسـال رئيس أساقفة صـور (جوسياس) ليخطر البابا أوربان الثالث وملوك الغرب الأوربى بما أصاب الصليبيين فى الشام على يد صلاح الدين والمسلمين ، ويطلب منهم المساعدة العاجلة ٠

ولكى يثير حماس البابوية وملوك الغرب الأوربى أرسل مع أفراد البعثة المسافرة بلوحة كبيرة ابتكر تصميمها ، تمثل القبر المقدس للمسيح ـ عليه السلام ـ وقد لوثته خيول المسلمين(١) ٠ وطلب من هؤلاء المندوبين أن يطوفوا مدن أوربا بهذه الصورة ٠

كانت أخبار سقوط القدس (الكارثة كما يسميها المؤرخون الأوربيون) قد وصلت الى بعض ملوك أوربا ، وكذلك الى البابا أيربان الثالث ، الذى كان مريضا ، ولم يستطع تحمـل الصدمة فمات كمـدا فى ٢٠ اكتوبر سنة ١١٨٧م(٢) ، وخلفه البابا جريجورى الثامن الذى مات هو الآخر فى ١٧ ديسمبر من نفس العام فى بيزا ولم يمكث فى البابوية سوى شهرين لم يحتمل فيهما مشقة ما هو مطلوب من جهد ، ثم خلفه البابا الجديد وهو كليمنت الثالث ٠

حركت هذه الأخبار عددا من البطاركة والملوك الذين تناسوا خلافاتهم واتفقوا على نجدة الصليبيين وحماية المسيحية فى المشرق الاسلامى ، وقـرر هؤلاء الملوك فرض ضريبة أطلقوا عليها (أعشار صلاح الدين) وتقدر بـ ١٠٪ من الدخل لمساعدة الصليبيين الموجودين فى الشام ٠ وكان امبراطور

---

(١) يذكر ان الاثير (الكامل ، جـ ١٢ ، ص ٣٢) ان الصورة كانت تمثل المسيح ـ عليه السلام ـ وهو يضرب بيد رجل عربى زعموا كذبا انه النبى محمد ﷺ ٠

(٢) Annales Romani in Watterich, Pontificum Romanorum : Vitea, II, pp. 682-683.

وكذلك رنسمان : الحروب الصليبية ، جـ ٣ ص ٢٢ ٠

المانيا فردريك بربروسا اول من خرج من هؤلاء الملوك متجها الى صور ٠

حملة فردريك والصعوبات التى واجهته :

خرج الامبراطور فردريك بربروسا من المانيا فى اوائل مايو ١١٨٩م وفى صحبته ابنه الثانى فردريك دوق سوابيا ، على راس جيش ضخم يعتبر اضخم جيش مستقل خرج الى حرب صليبية ، اشتهر بجودة سلاحه ، وحسن نظامه ، اذ قدرته بعض المصادر المعاصرة بحوالى ٥٠ الف فارس ، ١٠٠ الف من المشاة (الرجالة)(١) بينما يذكر المؤرخون الالمان ان عدد الجيش كله لم يزد عن ١٠٠ الف ٠ وكان الامبراطور فردريك قد ارسل كتبا الى الملوك الذين سيمر من اراضيهم يستاذنهم فى ذلك ، فقد كتب الى ملك المجر (بيلا) والى امبراطور بيزنطة (اسحق انجيلوس) ، والى السلطان السلجوقى (قلج أرسلان) ، كما أرسل الى صلاح الدين الايوبى يطلب منه أن يعيد كل فلسطين للصليبيين ، ويتحداه للنزال فى ساحة (صوعن)(٢) عند وصوله فى نوفمبر ١١٨٩ ٠

وصل فردريك بجيشه الى بلجراد (عاصمة يوغسلافيا حاليا) وعبر نهر الدانوب فى شهر يونيه ، ونفذ الى داخل الاراضى البيزنطية ، حيث واجهته المتاعب ٠ فقد تعرض قطاع الطرق من الصربيين والبلغار لجنوده وهاجموهم ، وأبدى أهالى الريف من البيزنطيين عداءهم للالمان ، مما أساء ظن فردريك بامبراطور بيزنطة واتهمه انه المحرض على هذه الاضطرابات ، ومما زاد فى سوء العلاقات بين الرجلين انه عندما احتل الامبراطور فردريك مدينة فيليوبوليس ، وأنفذ منها الرسل الى الامبراطور

---

(١) Arnold of Lubeck; Chron-Slav. pp. 130-131.

(٢) (Soan) هى صان الحجر الان فى محافظة الشرقية ، وهى التى التقى فيها موسى (عم) بفرعون مصر ٠

البيزنطى اسحق انجليوس لتنظيم أمر انتقال جنود الجيش الى آسيا الصغرى ، قبض انجليوس على هؤلاء الرسل وسجنهم(١) .

وكان رد فردريك على هذا التصرف أن طلب من ابنه هنرى فى المانيا أن يرسل اليه أسطولا ليقاتل به بيزنطة ، واعلن انه لا سبيل لنجاح أى حركة صليبية ما لم يستولى الغرب على المنافذ البحرية (البسفور والدردنيل) التى توصل الى فلسطين ، ومع ذلك انتهت هذه القلاقل ، وعبر فردريك بجيشه الدردنيل ، واصل السير حتى بلغ الطريق البيزنطى الرئيسى المرصوف حاليا ، وفى مدينة فيلادلفيا تعرضت جنوده الى السلب والنهب ، ولكنه سرعان ما أنزل العقاب بأهلها ، ثم واصل السير حتى دخل الأراضى السلجوقية ، ولم يجد مقاومة من قلج أرسلان فدخل الى (قونيه) فتصدى له قطب الدين بن قلج أرسلان ، ولكن فردريك لم يمكث طويلا داخل المدينة اذ أنه كان يلتمس مكانا للراحة فقط .

خرج فردريك بجيشه من قونيه بعد ستة أيام وسار عبر دروب جبال طوروس وهو طريق مشئوم اندحرت فيه معظم قوات الحملة الصليبية الأولى ، فوصل الى سلوقية على الساحل الجنوبى ، وكانت بيد الأرمن فكتب الجاثليق اصطفان بن ليون الأرمنى الى صلاح الدين يخبره بوصول الحملة الصليبية ، وان كان قد أمدهم بالأقوات والعلوفات وأظهر الطاعة لهم .

واذا أمعنا النظر فى موقف السلطان المسلم قلج أرسلان بن مسعود بن سليمان وبين موقف الجاثليق الأرمنى والامبراطور البيزنطى نجد أن موقف الأول كان مخزيا لأنه انسحب من طريق باربروسا ولم يبد أى مقاومة ضده أو صد جنوده ، ولولا ان الحملة دخلت قونيه ما تعرض لها ولده كذلك ، كما ان السلطان المسلم سمح لفردريك أن يتزود بما تحتاجه الحملة من

---

(١) رنسمان : جـ ٣ ص ٣٦ .

ماء وطعام من بلده(١) ، بينما امتنع الامبراطور البيزنطى عن ذلك ، واثار المتاعب والاضطرابات لجنود الحملة فى كل مكان يعبرون منه داخل بلاده وكتب بذلك الى صلاح الدين الأيوبى ليتقرب اليه ، وان كان فى الحقيقة عجز عن ذلك(٢) .

ويبدو لنا ان قلج أرسلان اقدم على هذا الموقف نتيجة لمشكلاته الداخلية(٣) والخارجية ، وللعداء الذى كان قائما بينه وبين الامبراطورية البيزنطية من جانب ، وبينه وبين صلاح الدين الايوبى من جانب آخر .

وفاة فردريك بربروسا ١١٩٠م :

هبط الجيش الألمانى الضخم الى سهل سلوقيه (قيليقيه) فى ١٠ يونيه سنة ١١٩٠م (٥٨٦هـ) ، وأراد الامبراطور أن يبرد جسمه من حرارة الجو السائدة ليستعيد نشاطه فاسرع مع حرسه الخاص الى حافة مياه النهر (كاليكادنوس Calycadnus) ويبدو ان فرسه جفل به فالقاه فى الماء فغرق بسبب ثقل ما عليه من أسلحة ، أو انه لم يحتمل تيار النهر لكبر سنه (كثر من ٧٠ سنة) ، ولم يستطع المقاومة فغرق(٤) .

وبموت الامبراطور فردريك بربروسا انتهت حملته بالفشل الذريع نتيجة لتبعثر جيشه ، حيث عاد بعض الأمراء بجنودهم الى أوربا ، وتعرض البعض ممن عبروا سهل قيليقية للأمراض التى تفشت فيهم نتيجة شدة حرارة

---

(١) ينفى رنسمان (نفس المرجع ص ٤١) ان قلج أرسلان كان يساعد فردريك سرا وان صلاح الدين اعتقد ذلك خطأ . ويبدو لنا ان قلج أرسلان بعدما كتب الى فردريك بتقديم المساعدة ، وقف موقفا سلبيا واكتفى بترك الحملة تمر من اراضى دولته وتتصرف بما تريد .

(٢) ابن الاثير : جـ ١٢ ، ص ٤٨-٤٩

(٣) يذكر ابن الاثير (جـ ١٢ ص ٥٠) ان قلج أرسلان كان يكاتب صلاح الدين بأخبارهم ، فلما عبر الألمان بارضه كتب يعتذر لصلاح الدين بعجزه ، لأن أولاده حجروا عليه ، وحكموا البلد ، وتفرقوا عنه ، وخرجوا عن طاعته .

(٤) ابن الاثير : جـ ١٢ ص ٤٩ .

الصيف وارتفاع درجة الرطوبة ، فاخل الجنود بالنظام ، وأعلنوا التمرد ، وتخطفتهم الأيدى واصابتهم الخسائر الفادحة اثناء اجتياز الدروب السورية فلم يصل منهم الى انطاكية (ينويو ١١٩١) الا الرعاع والشراذم ٠

وبذلك أضحت الحاجة اشد ضرورة من كل زمن مضى ، الى وصول فيليب أوجست الثانى ملك فرنسا ، وريتشارد الاول قلب الأسد ملك انجلترا(١) الى المشرق الاسلامى ، ليسهم كل منهما بقواته فى درء النزاع المرير الناشب على الساحل الشمالى لفلسطين ٠

لعبت المسائل السياسية دورها بين ريتشارد وفيليب أوجست فدب الخلاف بينهما وهما فى صقلية لقضاء فصل الشتاء بها ، وانفصمت عرى المصاهرة بينهما(٢) وابحرت سفن ريتشارد قلب الأسد فجنحت احداها على شاطىء قبرص — وكانت تابعة للامبراطورية البيزنطية — وأسرها حاكم الجزيرة ، مما جعل ريتشارد يتجه الى قبرص لغزوها(٣) ، واعتبرها داخلة فى دائرة الحروب الصليبية ، وفعلا تملكها مما زاد من قوته الحربية ٠

وقد ساعد على اشتراك أعداد ضخمة من مسيحى الغرب رجالا ونساء فى الحملة الثالثة ، ان لويس السابع ملك فرنسا ، كان قد فرض ضريبة (عشور صلاح الدين)(٤) على كل من لم يشترك فى الحروب الصليبية فى المشرق الاسلامى ، كما فرض فيليب أوجست ، وريتشارد قلب الأسد ضريبة مماثلة على رجال الكنيسة وعلى العلمانيين جميعا ، اسهاما منهم فى الحروب

---

(١) بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ٣٥٧ ٠

(٢) كان ريتشارد قلب الاسد خطيبا لشقيقة فيليب ، فتركها وخطب برنجاريا اميرة نافاريا التى ابحرت فى السفينة التى جنحت على قبرص ٠ فأخذت أسيرة ٠

(٣) عاشور : قبرص والحروب الصليبية ، ص ٢٦ وما بعدها ٠

(٤) أبو شامة : الروضتين ، حـ ٢ ص ١٤١ ٠

Cam - Mid. Hist. V p. 374.

الصليبية ، ولم يجد مسيحيو الغرب مفرا من دفع هذه الضرائب الا بالاشتراك فى الحملة الصليبية الثالثة .

وصل فيليب اوجست ملك فرنسا بجنوده الى صور فى ربيع الاول سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م ومنها الى عكا حيث هاجمها ، وقد انضمت اليه بقايا حملة فردريك الثانى ، بالاضافة الى الصليبيين الموجودين فى الشام ، ولم يلبث ريتشارد قلب الأسد ان وصل بأسطوله (٢٥ سفينة كبيرة) الى مدينة صور فى شهر يونيه فى نفس العام ورفضت حاميتها ان تستقبله ، فاستكمل مسيرته الى عكا ، حيث اكتملت اعداد الصليبيين وازدادت اعدادها بوصول جنود ريتشارد ، وساء موقف المسلمين فيها - ويرجع السبب فى ذلك الى مخالفة الجنود لرأى صلاح الدين ، الذى كان يرى ضرورة مهاجمة هذه النجدات الصليبية وهى فى طريقها من صور الى عكا ولكن الجنود أصروا على مقاتلتهم عند عكا حتى يمزقونهم جميعا فى ضربة واحدة(١) فاضطر صلاح الدين الى موافقتهم .

طوق الصليبيون عكا ، واحكموا الحصار حولها ، وحفروا خندقا يحيط بمعسكرهم ، الذى أحاط بالمدينة واوصلوه من البحر الى البحر(٢) واقاموا تلا ترابيا(٣) وقف الرجال فوقه ليصيبوا مهاجميهم من المسلمين ، فسدوا منافذ الطرق الى عكا على المسلمين ، كما أحكم الصليبيون الحصار من جهة البحر(٤) حيث أغلقت أساطيل فيليب ، وريتشارد مدخل الميناء ، فمنعت كل مساعدة يمكن للأسطول المصرى أن يقدمها الى اهالى عكا(٥).

---

(١) ابن الاثير : جـ ١٢ ص ٣٤ .
(٢) ابن الاثير : جـ ١٢ ص ٤٠ .
(٣) راجع ابن الاثير : الكامل جـ ١٢ ص ٦٥ ويبدو لى ان فكرة خط بارليف على ضفة قناة السويس مأخوذة من الحروب الصليبية ، للتشابه الكبير بين الحالتين .
(٤) بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص ٣٥٧ .
(٥) ابن الاثير : الكامل جـ ١٢ ص ٤١-٤٧ .

والحامية العسكرية الموجودة بها ، كما اقام الصليبيون على مدخل المدينة ثلاثة أبراج عالية بارتفاع ستين ذراعا ومكونة من خمسة طوابق بكل منها جنود ورماة وتوالت المساعدات والامدادات على الصليبيين من المدن الاسكندناوية ، والانجليزية ، والنورمانية فى جنوب ايطاليا .

وبذلك اصبح الصليبيون فى وضع افضل من وضع القوات الاسلامية ، واضطرت مدينة عكا - وكان حاكمها الأمير قراقوش - الى الاستسلام(١) فى ١٢ يوليه ١١٩٢م / ١٧ جمادى الاخرة ٥٨٨هـ ، وكان الذى خرج للصليبيين وعرض عليهم تسليم عكا هو « الأمير سيف الدين على بن احمد الهكارى » المعروف بالمشطوب وصحبه « حسام الدين حسين بن باريك » وعقد الصلح بين الفريقين ، ومن اهم ما تضمنه هذا الصلح من شروط :

١ - أن تسلم المدينة للصليبيين بما فيها من آلات وعدد وأسلحة .

٢ - أن يدفع لهم مائتى الف دينار فدية عن أسرى المسلمين فى المدينة ، فى خلال شهرين ، وعشرة آلاف دينار للمركيز كونراد مونتفرات(٢) واربعة آلاف لحجابه .

٣ - أن يطلق صلاح الدين سراح الف وخمسمائة فارس من مجاهيل الأسرى ، وخمسمائة فارس معينين(٣) .

٤ - أن يرد صليب الصلبوت الذى أخذه المسلمون فى موقعة حطين .

٥ - أن يخرج جميع المسلمين الموجودين فى المدينة باموالهم آمنين سالمين(٤) .

---

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٧١ ، وابن واصل : مفروج الكروب ، جـ ٢ ص ٣٦٢ .

(٢) قتل كونراد بيد رجلين من الاسماعيلية فى يوم ١٣ ربيع الاخر ٥٨٩هـ/١١٩٣م كانا قد ارتدا عن الاسلام قبل ٦ شهور فوضعهما على قتل كونراد ملك انجلترا ، وبلدوين . راجع العماد الكاتب : ص ٥٨٩ .

(٣) فى العماد الكاتب : ص ٥١٣ مائة أسير من المعروفين .

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب حـ ٣ ص ١١٩ ، ابن الاثير : الكامل حـ ١٢ ص ٦٧ .

كان موعد تقديم الفدية بعد شهرين من الاتفاق ، ولكن فى خلال هذه المدة بدأ سوء تفاهم بين الفريقين ، فالصليبيون لا يريدون اطلاق سراح أسرى المسلمين الا بعد استلام الفدية المقـررة والمسلمون لا يثقـون فى عهودهم ، ولا يريدون دفع المـال الا اذا تاكدوا من اطلاق سراح الأسرى ، ومع ذلك عرض المسلمون دفع نصف الفدية مقدما ، والنصف الاخر عندما يتم اطلاق سراح الأسرى وطلبوا ضمانا من مقدم الداوية الذى كان سفير الصليبيين ، وتهرب مقدم الداوية من اعطاء الضمان واصر الصليبيون على استلام مبلغ الفدية أولا ، ولهم الحرية بعد ذلك فى اطلاق سراح من شاءوا وان يحتفظوا بمن شاءوا ، فتاكد الشك عند صلاح الدين فى نياتهم ، وأدرك انهم يريدون الحصول على هذه الأموال الكثيرة ليتقووا بها ، ثم يطلقون سراح بعض الفقراء من الأسرى ويحتفظون بالأمراء والقادة والفرسان ليبتزوا المسلمين بهم ، ويصيبوا من ورائهم مالا كثيرا ، ولذلك رفض صلاح الدين أن يدفع الفدية قبل اطلاق سراح جميع الأسرى ، فتجدد القتال ، وأصيب المسلمون بالدهشة عندما رأوا جثث أسرى المسلمين ، بعد ان قتلهم الصليبيون غدرا ، تملأ جوانب عكا ، وكانوا نحوا من ثلاثة آلاف ، ولم يبق الصليبيون الا على الأمراء والفرسان وهكذا تثبت الأحداث ان الصليبيين يغدرون وينكثون بالعهد دائما ولا يحترمون ما يوقعون عليه من الاتفاقيات .

ومع ما أحرزه الصليبيون من انتصار فى عكا ، الا أن أمراءهم كانوا على خلاف مع بعضهم ، فقد كان الخلاف كبيرا بين كونراد مونتفرات ، صاحب صور ، وبين الملك « جاى دى لوزجنان » على عرش مملكة بيت المقدس ، لدرجة أن كونراد غادر عكا ، وعاد الى امارته فى صور ، كما ان النزاع بين فيليب ملك فرنسا ، وريتشارد قلب الاسد ملك انجلترا ازداد حدة عما كان عليه من قبل ، وترك فيليب عكا هو الاخر وعاد الى بلاده ، وترك ريتشارد ملك انجلترا يتحمل المسئولية كلها بمفرده حسب ما تمليه الظروف السياسية والحربية ، وهكذا نجد ان الحملة الصليبية الثالثة قد أسهمت فى

زيادة الخلافات بين قادة الصليبيين ، وعلى ذلك يرى بعض المؤرخين(١) ان الحملة الثالثة قد فشلت بسبب هذه الخلافات الحادة بين الملوك والأمراء ، الذين لم يحملوا السلاح دفاعا عن عقيدتهم ، وانما كملوك يعملون لأمجادهم الخاصة ، لاسيما وان بعض هؤلاء المؤرخين وصفوا ريتشارد قلب الاسد بأنه من البرابرة الذين لا يحترمون القوانين ولا يتخلقون بسجايا رفيعة وان ما أطلق عليه من وصف باعتباره أحد أبطال الحروب الصليبية فانه لا يمكن اعتباره الا فى حدود تفكير العصور الوسطى ٠

صلاح الدين يطلب المساعدة من المغرب سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م :

ارسل صلاح الدين الى خليفة المغرب المنصور أبى يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن يستنجد به على عدو الدين ، فلما سقطت عكا فى أيدى الصليبيين أرسل صلاح الدين مبعوثه شمس الدولة عبد الرحمن بن منقذ يكرر الطلب فى المساعدة(٢) ، ولكن ابن عبد المؤمن تغافل عن الطلب ، ويبدو ان ذلك راجع الى ان صلاح الدين كان قد أرسل حملة الى بلاد المغرب العربى ليشغل بعض عساكره الأكراد بها ، بينما يقرر ابو شامة(٣) ان سبب ذلك راجع الى عدم مخاطبة صلاح الدين لأبى يوسف يعقوب فى خطابه بالتعبير المتبع فى بلاد المغرب وهو (أمير المؤمنين) واذا صح ذلك ، فهذا يدل على عدم الفهم الصحيح للأخلاق الاسلامية ، التى توجب النجدة على القادر لأخيه المسلم طالما كان يملك المساعدات المطلوبة منه ٠

موقعة أرسوف وهزيمة المسلمين ٥٨٧هـ/١١٩١م :

اتجه ريتشارد قلب الأسد بقواته نحو أرسوف ، يريد الاستيلاء على مدن

---

(١) Emerton, Mediaevel Europe, p. 340.

(٢) راجع نص الرسالة مطولة وفيها يشرح صلاح الدين موقف المسلمين الصعب أمام كثرة الامدادات التى وصلت الى الصليبيين فى الشام ومجىء الأساطيل الصليبية وسدها مياه البحر امام الأساطيل الاسلامية ٠ ابو شامة : جـ ٢ ص ١٧١-١٧٣ ٠

(٣) الروضتين : جـ ٢ ص ١٧٤ ٠

الساحل التى فى أيدى المسلمين ، فاذا تم له الاستيلاء عليها اتجه نحو بيت المقدس • وفى أرسوف دارت بين الفريقين معركة رهيبة فى ١٤ شعبان (سبتمبر) ، أبلى فيها المسلمون بلاء حسنا وأوشكوا على النصر بقيادة الملك العادل سيف الدين (أخى صلاح الدين) ، ولكن انقلبت الموازين بسبب صمود ريتشارد وشجاعته ، وأصيب المسلمون بهزيمة مؤلمة لأول مرة فى تاريخ حروبهم منذ أن تولى صلاح الدين الأيوبى مسئولية القيادة للمعارك الحربية •

ولولا ثبات صلاح الدين ، وتأثيره الشخصى فى اثارة حماس جنده ، وتماسكهم ، لكانت الموقعة مأساة كبرى للمسلمين ، ومع ان هزيمة المسلمين فى ارسوف كانت موجعة ، الا أن صلاح الدين استطاع أن يمتص هذه الهزيمة وتماسكت قواته ، وأمر بتدمير استحكامات المدن الساحلية مثل يافا وارسوف وقيصرية وصيدا وجبيل(١) حتى لا تقع فى أيدى الصليبيين ، كما دمت استحكامات طبرية ، ثم أمر صلاح الدين بتخريب عسقلان كذلك •

فقد جمع صلاح الدين أكابر امرائه وشاورهم فى أمر عسقلان ، فاتفق رأيهم على تخريبها لعدم القدرة على حفظها ، لاسيما وان الفرنجة قد نزلوا فى يافا واستقروا بها بعد سقوط عكا فى أيديهم ثانية ، ولا يمكن لعساكر المسلمين حفظ عسقلان وبيت المقدس ، لأنه يخشى على عسقلان من الوقوع فى أيدى الصليبيين وعندئذ يتقوون بها ويعيدون ترتيب صفوفهم ويهاجمون بيت المقدس لاسترجاعها من أيدى المسلمين •

ووافق صلاح الدين على هذا الرأى وأمر بتخريب المدينة فى ١٩ شعبان سنة ٥٨٧هـ وأخذ يدعو الناس من الأسواق ليشتركوا فى هدم سورها ، وفعلا تم هدم معظمه وكان سورا عظيم البناء بلغ سمكه حوالى عشرة اذرع ، وكان سمك جدار الحصن مقدار طول رمح (حوالى ٣ أمتار) ، ثم احرقت المدينة والبرج(٢) ، ولم يترك صلاح الدين حصن الاسبتارية الواقع مباشرة على

---

(١) Wiet; op. cit., p. 327.

(٢) أبو شامة : الروضتين : جـ ٢ ص ١٩١–١٩٢ •

البحر الا بعد أن أضرم فيه النـار ، وهـدم بعض أركانه . وبذلك خربت عسقلان ، وخرج أهلها المسلمون منها بعد أن باعوا كل غال ونفيس بأبخس الأثمان ، وتفرقوا فى المدن الأخرى .

ثم توجه صلاح الدين الى بيت المقدس ، وأعد خطة محكمة للدفاع عنها ، وحمايتها والحفاظ عليها ، فقسم سور البلد الى مناطق دفاعية ووزع قواده ومقاتليه عليه ، وحفر خندقا عريضا وعميقا ، على غرار ما عمله الفرنجة فى عكا ، وشارك القائد العظيم صلاح الدين بنفسه مع أولاده وقواده وجنوده والعلماء والقضاة فى هذه الأعمال(١) التى تدخل فى نطاق من الجهـاد فى سبيل الله .

وأمام هذه التحصينات القوية على بيت المقدس تراجع ريتشارد عن عزمه ، وأدرك أنه لن يستطيع الاستيلاء على القدس ، فارتد الى الرملة ، ومنها توجه الى عسقلان ١١٩٢م ، حيث مكث بها أربعة شهور ، أعاد خلالها ما كانت عليه عسقلان من تحصينات ، حتى أضحت أقوى الحصون الساحلية وقد يبدو غريبا ان صلاح الدين لم يهاجم ريتشارد فى عسقلان وتركه يقيم هذه التحصينات ، ولكن الحقيقة هى ان صلاح الدين كان مضطرا للانتظار حتى تصله الامدادات من الموصل والجزيرة(٢) .

ومن ناحية أخرى كان عليه أن يمنح أمراء العساكر والجنود قسطا من الراحة بعد هذا الجهاد المتواصل ، خاصة وأن بعضهم طلب ذلك صراحة من صلاح الدين الأيوبى .

صلح الرملة ٥٨٨هـ/١١٩٢م :

وصلت حدة الخلاف ما بين كونراد وريتشارد أن لجأ كل منهما الى طلب الصلح ، وان يكون حليفا للمسلمين ضد خصمه الاخر ، ولم يقبـل صلاح الدين بما عرضه كل منهما من شروط ، وأدرك ريتشارد أن الحرب

---

(١) أبو شامة : المرجع السابق ، ص ٢٩٢ .
(٢) ابن واصل : مفرج ، جـ ٢ ص ٣٨٨ وكذلك :
Runciman; op. cit., vol. 3 p. 62.

قد استنفذت طاقات وامكانات كثيرة لقواته ، وان غيبته عن وطنه قد طالت ، وبدأت فيه منافسات خطيرة على العرش ترمى الى عزله عن الملك وان الامور الداخلية تستوجب منه العودة الى انجلترا بسرعة لمعالجة ما نشأ فيها بعد ان اغتصب اخـوه العرش ، بالاضافة الى أن المرض قد حل به ـ فعـاود المفاوضات بشأن الصلح فى ٢٠ مارس وكان « بلدوين » الذى كان صاحب الرملة ونابلس مندوب ريتشارد لصلاح الدين وكانت لجنة المفاوضات تضم مجموعة من الأمراء المشهود لهم بالكفاءة السياسية ، والقيادة الحربية ، فى مقدمتهم الملك العادل اخو صلاح الدين ، والملك الأفضل ، والملك الظاهر والملك المنصور(١) وغيرهم .

شروط صلح الرملة :

وفى ٢٢ شـعبان ٥٨٨هـ / ٢ سبتمبر ١١٩٢م ، وقعت المعـاهدة بين الطرفين وكان من أهم شروطها :

١ ـ أن تسرى الهدنة وشروط الصلح لمدة خمس سنوات(٢) .

٢ ـ أن يحتفظ الصليبيون بالبلاد الساحلية ما بين صور شمالا ويافا جنوبا .

٣ ـ أن يسلموا للمسلمين عسقلان بعد تدمير استحكاماتها(٣) ويحتفظ المسلمون بالبلاد الواقعة جنوب عسقلان ، أى بقية فلسطين بما فيها بيت المقـدس .

٤ ـ أن تكون الرملة واللد مناصفة بين المسلمين والصليبيين .

---

(١) كانوا أولاد صلاح الدين ، وقد انجب صلاح الدين سبعة عشر ولدا ذكرا ، وابنة واحدة . راجع :
ـ ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٣٥ .
ـ العماد الكاتب : ص ٦٢٩ وما بعدها .

(٢) فى بعض المراجع ثلاث سنين وثلاثة أشهر أو ثمانية أشهر (ابن شداد : النوادر ص ٢٣٥ ، ابن الاثير : حـ ١٢ ص ٨٥) وما اثبتناه عن ابن واصـل : مفرج ، جـ ٢ ص ٤٠٣ ، وأبو شـامة : الروضـتين جـ ٢ ص ٢٠٣ ، و Runciman, p. 63.

(٣) Runciman, p. cit. III p. 63.

٥ ـ أن يسمح للمسيحيين بالحج والزيارة الى بيت المقدس(١) ، دون أن يدفعوا ضريبة ما للمسلمين ، وأن يكون للمسلمين والمسيحيين الحرية فى أن يجتازوا أرض بعضهم بعضا ٠

٦ ـ أن يسمح صلاح الدين لنفر من رجال الكنيسة اللاتينية بالبقاء فى كنيسة يوم القيامة وبيت لحم والناصرة لأداء العبادة والطقوس للحجـــاج القادمين من أوربا وأن يعاد اليهم صليب الصلبوت ٠

وبهذه المعاهدة أخذت الأمور فى منطقة الشرق الاسلامى فى الاستقرار ، وانتهت أعمال الحملة الصليبية الثالثة دون تحقيق شىء يذكر ، فقد خيبت آمال المسيحيين الأوربيين والشرقيين على حد سواء ، وتحولت الآمال الكبار التى عقدت عليها الى يأس وتبادل الاتهامات الحـــادة بين ملوك الصليبيين وزعمائهم ، فقد ارتحل ريتشارد قلب الأسد الى عكا ، وعندما عاد الى بلاده (انجلترا) وجد أخاه قد اغتصب العرش ، فدخل معه فى صراع ، كما وقع النزاع بينه وبين فيليب أوجست ملك فرنسا ٠ ولم تدم له الحياة طويلا حيث لقى مصرعه فى ٢٦ مارس سنة ١١٩٩م(٢) ٠

أما فى الجانب الاسلامى فقد مكث صلاح الدين الايوبى فى القدس الشريف شهر رمضان حيث أحكم سور المدينة ، فقد ارسل اليه صاحب الموصل خمسين رجلا من الحجارين لتعميق الخندق ، ورأى صلاح الدين أن يحفر خندقا جديدا ، وان يجدد السور ويقويه ، فاستخدم حوالى ٢٠٠٠ من أسرى الفرنجة فى هذا العمل الذى جدد به تحصينات بيت المقدس(٣) ، كما انه رتب أمورها الداخلية ، وأسند امارتها الى الامير جورديك من المماليك النورية ٠ ثم رجع عائدا الى دمشق ، حيث مرض بها وتوفى فيها يوم الأربعـــاء الســـابع والعشرين من شـــهر صـــفر عام ٥٨٩هـ / ٤ مارس ١١٩٣م وكان عمـــره خمسا وخمسين سنة ، بعد أن دام حكمه لمصر خمسا وعشرين عاما(٤) ٠

---

(١) عاشور : أوربا العصور الوسطى ، جـ ١ ص ٤٤٣ ٠
(٢) Runciman; op. cit., p. 74.
(٣) العماد الكاتب : الفتح القسى ، ص ٥٦٥ ٠
(٤) ابن واصل : مفرج ، حـ ٢ ص ٤١٩ـ٤٢٠ ٠

الفصل السابع

الأيوبيون بعد صلاح الدين

عندما توفى صلاح الدين واصبح فى ذمة التاريخ ، كانت الظروف التى افرزته لاتزال قائمة ، وكانت الأمة الاسلامية فى مسيس الحاجة الى شخصيته الفريدة ، وعبقريته العسكرية الفذة ، لأن الصليبيين ــ وان كانت أعدادهم قد نقصت الى حد كبير جدا ، ومعظم اماراتهم ومراكز تواجدهم قد استعاده صلاح الدين قبل موته ــ كانوا لايزالون موجودين على الأرض العربية • وخطر مجىء حملات صليبية جديدة لايزال قائما • وثمرة ما بذله صلاح الدين من جهود مضنية فى تاسيس دولته على مبادىء دينية ، واحياء المذهب السنى ، كانت لاتزال فى دور الطفولة • لأن صلاح الدين لم تطل مدته فى الحكم منذ أصبح وزيرا فى مصر الى أن انتقل الى رحاب الله سوى خمس وعشرين سنة وهى مدة قصيرة جدا فى عمر الدول وتكوين الشعوب • فى هذه الظروف ظهر خلفاء صلاح الدين الايوبى على مسرح الاحداث التاريخية وكانوا مختلفين عنه سلوكا وخلقا وكان مستواهم العسكرى والسياسى لا يرقى الى مستواه ، ومن هنا ترك موت صلاح الدين الايوبى فراغا سياسيا كبيرا فى منطقة الشرق الادنى •

وربما يكون صلاح الدين قد شارك ــ بدون قصد وبدون أن يدرى ــ فى اضعاف دولته ، وذلك بتقسيمها بين أولاده وأخواته وأبناء عمومته ، وامرائه ، مما ادى بخلفائه الى مشاحنات ومنازعات بل وحروب داخلية ، مما أعاد منطقة الشرق الاسلامى الى الضعف والتفكك •

فالملك الأفضل وهو أكبر ابناء صلاح الدين كان تحت يده ملك دمشق ومدن الساحل وبيت المقدس ، وبعلبك ، وصرخد وبصرى وبانياس وهوتين وتبنين وجميع الأعمال الى الداروم(١) •

---

(١) العماد الكاتب : الفتح القسى ، ص ٦٣٢ •

وكانت مصر فى حكم الملك العزيز عثمان الذى حاول اكثر من مرة أن يأخذ دمشق من أخيه الأفضل ، وكان الظاهر غازى على حلب وجميع أعمالها اى المدن الواقعة فى محيطها مثل حارم ، وتل باشر ، واعزاز ، ومنبج وغيرها(١) . وكان حماة الأمير محمود بن تقى الدين عمر شاهنشاه - ابن خال صلاح الدين - وكان بحمص شيركوه بن محمد بن أسد الدين شيركوه (حفيد عمه) وكان الملك العادل - اخو صلاح الدين - بالكرك حيث امتنع فيه . بينما كان فى اليمن الملك العزيز سيف الاسلام ظهير الدين طغتكين ابن أيوب (اخو صلاح الدين) وكانت بصرى تحت حكم الملك الظافر خضر (وهو احد ابناء صلاح الدين) بالاضافة الى بعض الأمراء الذين كانت فى أيديهم بعض البلدان مثل الأمير ابن الداية على شيزر ، والأمير منكورس ابن خمارتكين على حصن صهيون وحصن برزيه - بالقرب من اللاذقية - والأمير دلوروم بن بهاء الدين ياروق على تل باشر ، والأمير ابراهيم بن شمس الدين ابن المقدم على حصن بعرين وكفر طاب وأفاميه(٢) .

وقد طمع كل هؤلاء فى أن يستقلوا بما فى أيديهم من امارات فتمزقت الدولة الأيوبية الى دويلات تتنازع فيما بينها . ولاشك ان موت صلاح الدين يعتبر خسارة فادحة للأمة الاسلامية ، لانها فقدت رجلا بأمة(٣) وتكفى الاشارة الى ما كتبه عنه المؤرخون المعاصرون له من أمثال ابن شداد ، وابو شامة وابن واصل ، وابن الاثير ، وعلى راس هؤلاء جميعا العماد الكاتب الأصفهانى وغيرهم من مؤرخى الحروب الصليبية اللاتينيين من أمثال وليم الصورى William of Tyro ومتى الرهاوى Mathew of Edessa وميخائيل السريانى Michael the Syrian الذين اعترفوا رغم عداوتهم له بسجاياه وبطولاته وعظمة قيادته وحنكة سياسته ... الخ .

---

(١) ابن الاثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٩٧ .
(٢) ابن واصل : مفرج ، ج ٣ ص ٤ .
(٣) عبر القرآن الكريم عن هذا المعنى فى وصف ابراهيم عليه السلام « ان ابراهيم كان أمة فى قومه » .

الخلاف بين الملك الأفضل وأخيه الملك العزيز :

استحكم الخلاف بين الأفضل وأخيه فى العام التالى لوفاة أبيهما صلاح الدين ، ويرجع أسباب ذلك الى تحريض الأمراء فى مصر للملك العزيز عثمان لضم دمشق وأعمالها الى ملكه فى مصر ، وأغروه بالخروج حيث ضرب الحصار على دمشق سنة ٥٩٠هـ / ١١٩٤م متعللا برغبته فى الحفاظ على قوة الدولة التى اقامها صلاح الدين ، بعدما ظهرت بوادر الضعف ، وتمكن الصليبيون من استعادة ثغر جبيل عن طريق بذل المـال لحاكمه الكردى الذى يقوم بأمره منذ فتحه صلاح الدين(١) ٠

فاستنجد الأفضل بعمه الملك العادل الذى صحب معـه بعض أبنـاء صلاح الدين وذهبوا الى دمشق واتفقوا جميعا على عدم تمكين العزيز عثمان من الاستيلاء عليها حرصا منهم على اماراتهم ٠

ولمـا رأى العزيز عثمان اجتماع كلمتهم ، وعدم قدرته على مواجهتهم قبل بالصلح على أن يكون بيت المقدس وما جاوره من المدن فى حوزة العزيز عثمان ، وأن تبقى دمشق وطبرية والغور للملك الأفضل(٢) ٠ ولكن انصار الفرقة وحاشية السوء من أصحاب المصالح الخاصة الذين يحيطون بالحاكم فى كل وقت وفى كل عصر أخذوا يحرضون الأفضل على قتال اخيه العزيز ، وكان على رأس هؤلاء جميعا وزير السوء للملك الأفضل وهو ضياء الدين ابن الاثير شقيق مؤرخنا الكبير ٠

لم يقنع الملك العزيز (سلطان مصر) بالصلح الذى فرض عليه ، فأخذ يستعد لغزو دمشق وضمها اليه ، فلما سمع الأفضل بهذه الأخبـار عاود استنجاده بعمه الملك العادل ، وطلب منه ان يبقى معه فى دمشق ليقف معه أمام مطامع أخيه العزيز عثمان ، ونجح اذ دخل العـادل دمشق فى

---

(١) ابن واصل : مفرج ، جـ ٣ ص ٢٦ ، ابن تغرى ، مرجع سابق ، جـ ٦ ص ١٢٠ ٠

(٢) ابن الاثير : الكامل ، جـ ١٢ ص ١٠٩ ٠

التاسع من جمادى الاخرة سنة ٥٩١هـ/١١٩٥م(١) ، ثم اتصل الأفضل بأخيه الملك الظاهر - صاحب حلب - ووعده بتسليم جبله واللاذقية له مقابل مساعدته له ضد العزيز عثمان ، وهكذا اتصل الأفضل بأمراء آخرين وطلب منهم المساعدة ثم عاد الى دمشق وبها عمه الملك العادل الذى تظاهر بتاييده ومؤازرته ٠

لم يلبث الملك الظاهر ان وقف على حقيقة ما خدعه به الأفضل الذى لم يوف بوعده ويعطيه جبله واللاذقية ، فاسرع بالكتابة الى اخيه العزيز عثمان وحرضه على ضم الشام اليه ، ووعده المساعدة والوقوف معه ٠

خرج العزيز عثمان فى عسكره ولما اقترب من دمشق أفسد الملك العادل الأمراء عليه ووعدهم ومناهم وفى نفس الوقت ضرب الأمراء الصلاحية بالأمراء الأسدية مستغلا ما بين الفريقين من تنافس ، ثم غرس الوقيعة والنفور فيما بين العزيز والأمراء الاسدية لدرجة ان كل فريق كان يرتاب فى الامر ويخشى من غدره ، وأخيرا رحل أمراء الاسدية والاكراد المهرانية فى جوف الليل فى الرابع من شوال سنة ٥٩١هـ / ١١٩٥ وهم لابسون عدة الحرب ، وبذلك تخلى معظم جنود الجيش عن العزيز عثمان الذى لم يظهر عليه أى ارتباك أو خوف ، وتركهم يرحلون الى حيث يريدون ، وعاد هو شبه مهزوم الى مصر بمن بقى معه من الجنود ٠

اتفق العادل والأفضل على تتبع العزيز عثمان وأخذ مصر منه وان يتولاها الأفضل ، ويترك دمشق لعمه الملك العادل ٠ وخرجت كل العساكر بما فيهم الأسدية والاكراد ، وكاتب الملك العادل والأفضل نائب العزيز عثمان فى القدس ، فخضع لهما وسلمهما المدينة ٠ وفى أثناء مسيرهما الى مصر وجد العادل انضمام الجنود كلهم الى الافضل وانهم مجتمعون عليه ، فخاف

---

(١) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ص ١٢٣ ٠

الا يعطيه دمشق ، فراسل العزيز عثمان سرا وطلب منه الثبات وأن يجعل على مدينة بلبيس من يحفظها ، وتكفل له بعدم الدخول معه فى قتال .

وصلت عساكر العادل والافضل الى بلبيس ، وبدأت فى منازلة حاميتها وتمنع العادل عن القتال هو وعساكره ، وظهرت منه قرائن تدل على انه لا يؤثر السلطنة للافضل ، ولا يرى بتقدمه على العزيز عثمان(١) . ثم ظهر بمظهر المصلح الخائف على مصالح الدولة والحريص على حياة الجنـود ، وتمت المحادثات واللقاءات التى انتهت بالصلح ، والتى خرج العادل منهـا فائزا حيث أعيد اليه اقطاعه القديم فى مصر ، وان تكون اقامته فيها ، وان يعفوا العزيز عثمان عن العساكر الذين خرجوا عليه ، وبذلك عادت الامور - فى الظاهر - كما كانت وبدأ العادل يظهر وكانه هو السلطان الفعلى لمصر.

انقطع الملك الافضل للتعبد ولزم الزهد والقناعة وترك امـور الدولة لوزيره ضياء الدين بن الاثير ، فاختلت الأحوال . وكثرت الشكوى منه(٢) وكتب أعيان الدولة فى دمشق الى العادل فى مصر يخبرونه بما أصاب دمشق من تدهور الاحوال بسبب هذا الوزير ، فكتب العادل الى الافضل بأن يقيل هذا الوزير الأحمق السىء التدبير القليل التوفيق ، ولكن الافضل لم يفعل شيئا . فاتفق العادل مع العزيز عثمان على الخروج الى دمشق .

خـرج الرجــلان بالعسـاكر من مصر فى مسـتهل ربيـع الاول سـنة ٥٩٢هـ/١١٩٦م وتدخل الوزير وحرض الافضل على قتال أخيه وعمه ، وزين له ذلك واغراه بحصانة دمشق ومتانة أسوارها ، وانضم الملك الظاهر - صاحب حلب - الى رأى الوزير وأمر أخاه الأفضل ان يحصن دمشق ويقاوم أخاه العزيز مع عمه العادل ووعده بالمساعدة .

تمكن الملك العادل والملك العزيز عثمان من الدخول الى دمشق يوم

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ٦ ص ١٢٤ .
(٢) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ص ١٢٩ .

٢٧ رجب عن طريق بعض الأمراء الذين كانوا يكاتبوهما(١) ، وحضر الافضل اليهما فطلب الملك العزيز منه أن ينتقل الى صرخد ، فاخرج وزيره ضياء الدين بن الاثير فى غسق الليل مع الصناديق التى تضم محتوياته ، وذلك خوفا عليه من القتل ، وجمع الوزير أموالا طائلة أخذها معه وهرب بها الى بلده الموصل(٢) وبذلك فقد الافضل ملكه فى دمشق .

الملك العادل فى دمشق :

سلم العزيز عثمان دمشق الى عمه الملك العادل(٣) ، ورحل عائدا يوم ٩ شعبان ٥٩٢هـ/١١٩٦م ، ثم قرىء فى الجامع المنشور بتفويض دمشق واعمالها اليه(٤) . وبذلك أصبحت اقطاعا له ، وليس للعزيز عثمان سوى الخطبة والسكة(٥) .

الملك العادل والصليبيون :

ارتاح الصليبيون لما يحدث فى البيت الايوبى من تفكك ، واخذوا يراقبون ما تاتى به الظروف بين هؤلاء الاخوة أصحاب هذه الدويلات المتنازعة ، واعدوا انفسهم فى الغرب الأوربى بعد اتصالهم باخوانهم فى مدن سواحل الشام للقيام بحملة صليبية جديدة لاسترداد بيت المقدس ، والانتقام من صلاح الدين الايوبى متمثلا فى المسلمين . وساعدتهم ظروف الهدنة التى عقدوها مع صلاح الدين من قبل على تجميع جنود وامدادات كما اتاح تجديد هذه الهدنة التى تمت بين العزيز عثمان وبين ملك الصليبيين هنرى

---

(١) ذكره ابن الاثير (جـ ١٢ ص ١٢٢) باسم العز بن ابى غالب الحمصى .

(٢) ابن واصل : مفرج ، جـ ٣ ص ٦٢ وما بعدها .

(٣) يذكر ابن الاثير ان العزيز عثمان كان قد افرط فى الشراب ، وأخذ يهذى ويقول انه يعيد البلد الى أخيه الفاضل ، فنقل هذا القول لوقته الى الملك العادل ، الذى حضر توا واستلم دمشق من العزيز ، (جـ ١٢ ص ١٢٣) .

(٤) أبو الفداء : المختصر ، جـ ٣ ص ٩٢ .

(٥) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ص ١٣٦ .

دى شامبانى بسبب الظروف السيئة التى أحاطت بخلفـاء صلاح الدين(١) الفرصة لتنظيم صفوفهم ٠

أخذ الصليبيون يتدفقون من الغرب الاوربى على مدن الشـام لدعم الصليبيين واخذ أمير بيروت ويسمى (أسامة) يتصدى لهم بواسطة الاسطول ، واشتكى الصليبيون للملك العادل بدمشق ٠ وللملك العزيز عثمان فى مصر ، ولكن دون جدوى ٠ عندئذ أرسل صليبيو الشام يستنجدون بأمراء الغـرب الأوربى ، فامدوهم باعداد وفيرة من الفرسان والجنود ، وكان معظمهم من الألمـان(٢) ٠

تكاثر عدد الصليبيين فى المدن الساحلية بالشام ، وكثرت اعتداءاتهم على أطراف المدن الاسلامية ، على الرغم من وجود الهدنة ، فلما وصلت أخبارهم الى العادل أرسل يطلب الجنود من الملك العزيز عثمان فى مصر ، كما أرسل الى ديار الجزيرة والموصل ، فوصلت اليه العساكر ، واجتمعت عليه فى عين جالوت حيث عسكرت شهر رمضان وجزءا من شـوال (٥٩٣هـ / ١١٩٧م) ٠

تحركت عساكر الصليبيين لقتال المسلمين ، فالتقى الجمعان عند تل العجول بالقرب من غزة ، وقتل المسلمون منهم جموعا ، ورجعوا بغنائم كثيرة(٣) ، عندئذ أرسل ملك الصليبيين هنرى دى شامبانى الى ملك الألمان هنرى السادس يستعجل قدومه لنجـدة الصليبيين فى الشام ٠ ولم ينتظر الملك العادل فاسرع بالهجوم على مدينة يافا ودخلها عنوة ، فقتل من بها من أعيان الفرنج ، وغنم المسلمون الكثير وامتلأت أيديهم بالسبايا(٤) وأسروا

---

(١) فيما نقله أبو شامة (جـ ٢ ص ٢٣٣) عن العماد الكاتب فى هذا المقام قوله : « فان المسلمين اشتغل بعضهم ببعض ولهوا عن كل سُـنة وفرض » ٠
(٢) ابن الاثير : جـ ١٢ ص ١٢٦ ٠
(٣) ابن واصل : جـ ٣ ص ٧٤ ٠
(٤) أبو شامة : جـ ٢ ص ٢٣٣ ٠

سبعة آلاف نفس ما بين ذكر وأنثى(١) . ولم يتمكن الصليبيون من نجدة زملائهم فى يافا ، بسبب وفاة ملكهم هنرى دى شامبانى على اثر سقوطه من مكان مرتفع فى عكا(٢) (١٠ سبتمبر ١١٩٧م) .

تولى عمورى الثانى دى لوز جنان(٣) ملك قبرص عرش المملكة الصليبية ، وتزوج بأرملة هنرى دى شامبانى (ايزابيل) وتوحدت قبرص مع مملكة الصليبيين فى الشام .

بدأ عمورى الثانى بالهجوم على بيروت ، وأخذها الصليبيون فى ذى الحجة سنة ٥٩٣هـ / اكتوبر ١١٩٧م تعويضا لهم عن يافا بدون أى قتال (فملكوها صفوا عفوا بغير حرب ولا قتال ، فكانت غنيمة باردة) بعد أن هزب أميرها أسامة(٤) وذهب الى مصر ولذلك هجاه الشاعر بقوله :

سلم الحصن ما عليك ملامة
ما يلام الذى يروم السلامة

فعطاء الحصون من غير حرب
سنة سنها ببيروت اسامة

وقد ترتب على ضياع بيروت أن فقد الاسطول الاسلامى ثغرا كان قاعدة له يتزود منها بما يحتاج اليه من ميرة وذخائر وامدادات . وأحكم الصليبيون سيطرتهم على سواحل الشام فيما بين عكا وطرابلس . وتجرأ بوهيمند الثالث أمير أنطاكية الصليبية وأبدى رغبته فى الاستيلاء على اللاذقية وجبله .

---

(١) المقريزى : جـ ١ ق ١ ص ١٧٠ .
(٢) ابن الاثير : نفسه ص ١٢٧ .
(٣) هو شقيق جاى دى لوزجنان ، وقد ذكره ابن الاثير (جـ ١٢ ص ١٢٨) بقوله : وهو اخو الملك الذى أسر بحطين .
(٤) أبو شامة : جـ ٢ ص ٢٣٣ ويذكر ابن الاثير (ص ١٢٧) ان اسامة منع عساكر المسلمين من تخريب بيروت وتكفل بحفظها من الفرنج .

ولكن محاولته هذه فشلت لأن الملك الظاهر صاحب حلب كان قد اهتم بهاتين المدينتين وقام بتحصينهما(١) .

سمع الملك العادل بان الصليبيين يعدون انفسهم للتحرك نحو صيدا ، فارسل بعضا من جنده خربوا المدينة وما بقى من أسوارها لأن صلاح الدين كان قد خرب جزءا منها(٢) ، حتى لا يفيد الصليبيون منها بشىء ، فلما وصلت هذه الأخبار للصليبيين رحلوا من بيروت الى صور واقاموا عليها ، ثم غادروها وهاجموا حصن تبنين فى أول صفر ٥٩٤هـ / نوفمبر ١١٩٧م ، وضربوا عليه الحصار .

وارسل الملك العادل الى العزيز عثمان يستعجله فى الخروج اليه ، فسار العزيز عثمان مجدا اليه مع عساكره(٣) . وكان اهل الحصن صامدين فى مقاومتهم ضد هجمات جنود الملك العادل الشرسة عليهم . ووصل العزيز عثمان بجنوده الى عسقلان فى ربيع الأول ٥٩٤هـ / ١١٩٨م .

فلما وصلت هذه الاخبار الى الصليبيين . ورأوا اجتماع كلمة المسلمين على التصدى لهم ، آثروا الانسحاب الى صور ، ومنها الى عكا ، وكانت فرصة للقوات الاسلامية التى هاجمت مؤخرة الصليبيين واخذوا الكثير منهم أسرى ، وغنموا أشياء كثيرة منهم(٤) . وأمر الملك العزيز عثمان بارسال المؤن الى تبنين ، واصلاح ما تهدم من أسوارها ، وأبقى جنوده عند عمه الملك العادل ليستعين بهم ، وجعل اليه أمر الحرب وعقد الصلح وعاد الى مصر(٥) .

ويرجع السبب فى عودته الى مصر الى أن بعضا من الامراء وعلى

---

(١) عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ٢ ص ٩٢٢ .
(٢) ابن الاثير : جـ ١٢ ص ١٢٧ .
(٣) ابن واصل : جـ ٣ ص ٧٥ وما بعدها .
(٤) أبو الفداء : المختصر ، جـ ٣ ص ٩٣ وما بعدها .
(٥) ابن الاثير : المرجع السابق ، نفس الصفحة .

رأسهم ميمون القصرى وابن المشطوب تآمروا على قتله وفخر الدين جركس مدبر دولته ، ويذكر ابن الاثير(١) ان ذلك بتحريض من العادل . فلما سمع العزيز عثمان بذلك عاد الى مصر .

واصل الملك العادل اغاراته وهجماته على الصليبيين حتى سئموا وضجروا فطلبوا الصلح ، وترددت الرسل بينه وبينهم فى شعبان٥٩٤هـ/يونيه١١٩٨م، واتفقوا على الهدنة لمدة ثلاث سنوات واشترط الصليبيون على أن تكون بيروت بأيديهم وهكذا استغل الصليبيون انقسام البيت الايوبى والخلاف الواقع بين ورثة صلاح الدين (أمراء البلدان الاسلامية) وتغليبهم المصالح الشخصية والمنافع الذاتية على مصلحة الاسلام ، ومنفعة الأوطان ، وكذلك الظروف السيئة التى ألمت بالمسلمين ، وبدأوا يملون شروطهم . وقد أشار أبو شامة الى هذا الوضع بقوله : « اختلت الأحوال وتغيرت بعد موت السلطان » وقوله : « فان المسلمين قد اشتغل بعضهم ببعض ، ولهوا عن كل سنّة وفرض ، فتدافعت الى عكا سفنهم - أى الفرنجة - وتدفق مزنهم ، وامتلأت بهم فى الساحل مدنهم »(٢) .

عاد الملك العادل الى دمشق ، ومنها سار الى ماردين فى شهر رمضان وهاجم أهلها وقاتلهم ، وضرب على المدينة حصارا محكما ، وقطع عنهم الميرة ، وعاثت جنوده فسادا فى أرباضها (أطرافها) ، ومع ذلك لم يتمكن من فتحها ، فرحل عنها فى سنة ٥٩٥هـ/١١٩٨م(٣) .

وفاة الملك العزيز عثمان :

فى أواخر شهر المحرم سنة ٥٩٥هـ / نوفمبر ١١٩٨م توفى الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين صاحب ديار مصر(٤) ، وكان سبب موته انه رأى

---

(١) ابن الاثير : جـ ١٢ ص ١٢٩ .
(٢) الروضتين : جـ ٢ ص ٢٣٣ .
(٣) ابن الاثير : نفسه ، ص ١٣٨ .
(٤) ابن واصل : جـ ٣ ص ٨٢ وما بعدها .

ذئبا وهو يصطاد بالفيوم ، فركض بفرسه وراءه ، فسقط من فوق فرسه ، وأصيب بالحمى ، فعاد الى القاهرة الى أن مات بها بعد أيام ، ودفن بجوار مقبرة الامام الشافعى ، وكان عمره سبعا وعشرين سنة وشهور ، ومدة حكمه لمصر اقل من ست سنين بست وثلاثين يوما(١) .

ومن المعروف ان العزيز عثمان ولد بالقاهرة ، فهو يمثل أول حاكم من البيت الايوبى يولد بمصر ويتولى حكمها ، وقد أشارت المراجع الى استقامة العزيز عثمان ، وعدالة حكمه فى الرعية ، حتى وصفه ابن خلكان وغيره من المعاصرين لعهده بانه كان ملكا مباركا كثير الخير واسع الكرم محسنا الى الناس .. « كان ملكا كريما عادلا رحيما ، حسن الأخلاق ، شجاعا ، سريع الانقياد ، مفرط السخاء ، سمع الحديث من السلفى ، وابن عوف ، وابن برى ، .. كانت الرعية تحبه محبة كثيرة »(٢) .

ومع ان مصر بقيت فى عهد العزيز عثمان ، كما كانت على عهد أبيه صلاح الدين الايوبى ، من حيث كونها قلب الامة العربية الاسلامية ، الا انها تاثرت فى أحوالها الاقتصادية الى حد كبير لعدة أسباب من أهمها :

١ ـ انخفاض فيضان النيل سنة ٥٩٢هـ/١١٩٤ وما ترتب على ذلك من نقص فى الغلال ، وكثر الزحام فى الاسواق طلبا للخبز ولكنه كان قليلا .

٢ ـ فشت الأوبئة والأمراض ، فهلكت المواشى ، وكثرت الأموات طرحى على الطرقات ، وزاد عددهم فى القاهرة فى كل يوم عن مائتى نفس ،

---

(١) المقريزى : جـ ١ ق ١ ص ١٧٤ ، ولكنه يذكر ان العزيز عثمان كان يصطاد فى الاسكندرية ، وما أثبتناه عن ابن الاثير (جـ ١٢ ص ١٤٠) بينما يذكر أبو شامة (جـ ٢ ص ٢٣٤) انه كان يتصيد فى الفيوم ، وقد اورد بلوش عديدا من أسباب الوفاة
B'ochot; E. : Hist. Egyp. Mwkri. p. 249.

(٢) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ١٧٤ ، وقد ذكر Blochot, op. cit., p. 250. تعليلا لطيفا لبعض صفات العزيز عثمان .

وبقى بمصر من لم يوجد من يقوم على كفنه ودفنه ، وكان أكثرهم يموت جوعا »(١) .

ويبدو لنا ان ما حدث من نزاع فى البيت الايوبى بين العزيز عثمان وأخيه الافضل على ، ومكائد ودسائس عمهما الملك العادل التى زادت من شقة الخلاف بينهما لصالحه الذاتى ، شغلت العزيز عثمان عن وضع حد لتلك الضائقة الاقتصادية ولم تساعده على تفادى هذه الكارثة التى أثرت تأثيرا كبيرا فى حياة المصريين اجتماعيا واقتصاديا .

اجتمع الأمراء الصلاحية وعقدوا أمر الملك لناصر الدين محمد بن العزيز عثمان ولقبوه بالملك المنصور ، وكان عمره لا يتجاوز العشر سنوات ، وحلف عامة الشعب له ، ولكن مجموعة من الامراء الاسدية وعلى راسهم الامير سيف الدين يازكج عارضوا ذلك ، واحتجوا بصغر سن الملك المنصور محمد ، وعدم قدرته على تحمل مسئولية الدولة ، وطالبوا بوصى يقوم على تربيته وتدبير شئون الدولة ودواوينها ، وينظر فى القوانين وتنفيذها ، وتم الاتفاق على استدعاء الملك الافضل من صرخد(٢) . بعد أن أشار بذلك القاضى الفاضل عبد الرحيم ، ليكون الفاضل وصيا على الملك المنصور محمد .

خرج الملك الافضل على من صرخد متنكرا فى تسعة عشر رجلا من أتباعه فى ليلة ٢٨ من صفر سنة ٥٩٥هـ/١١٩٨م(٣) حتى لا يقف الملك العادل على أخباره لان نوابه كانوا يراقبون الطرق فى انتظار حضوره الى مصر ليمتلكها .

أسرع الافضل فى مسيره فوصل الى بلبيس فى ٥ ربيع الاول واستقبله

---

(١) المقريزى : نفسه ، ص ١٥٩ .
(٢) ابن واصل : جـ ٣ ص ٨٧ ـ ٨٩ ، المقريزى : جـ ١ ص ١٤٥ـ١٤٦ .
(٣) ابن الاثير : جـ ١٢ ص ١٤٠ ـ ١٤١ ، وأبو شسامة : جـ ٢ ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥ .

أخوته والأعيان ومجموعة من الأمراء المصريين ، ودخل معهم القاهرة بعد يومين فأخذ يرتب أمورها ، واعتمد فى ذلك على سيف الدين(١) يازكج كما كان العزيز عثمان يعتمد عليه · وكان فخر الدين جهاركس مقدم الصلاحية قد خرج من بلبيس لسوء ظن ألم به ، وذهب الى بيت المقدس فتغلب عليه وتملكه ، وانضم اليه جماعة من الامراء الصلاحية ، فقويت بذلك شوكتهم واتفقوا على مناهضة الافضل ، وبعثوا الى الملك العادل وهو على ماردين يطلبون منه الحضور اليهم ليدخلوا معه مصر ويتملكها ، ولكنه لم يفعل لأن ماردين أوشكت على السقوط فى يديه ·

الافضل يحاول الاستيلاء على دمشق :

بعدما استقرت الامور فى مصر للملك الافضل شجعه بعض الامراء على محاربة عمه الملك العادل واستعادة دمشق منه ، ووصلته رسل أخيه الملك الظاهر غازى - صاحب حلب - ورسل ابن عمه أسد الدين شيركوه (الثانى) ابن محمد - صاحب حمص - يحثانه على الخروج الى دمشق ، ويطلبان اليه انتهاز فرصة غياب العادل عنها(٢) ، وقدما له المال والرجال · فخرج من مصر فى منتصف جمادى الاولى ، وعسكر فى ظاهر القاهرة حتى ٣ رجب ثم وصل الى العباسة وبقى بها خمسة أيام(٣) ثم أخذ يسير على مهل فوصل قريبا من دمشق فى ١٣ شعبان ونزل على جسر الخشب على بعد فرسخ ونصف من دمشق ·

كانت تحركات الملك الافضل وصلت الى مسامع الملك العادل وهو محاصر ماردين فخلف ولده الملك الكامل محمدا نائبا عنه فى حصار ماردين ، وخرج مسرعا فوصل الى دمشق ودخلها قبل وصول الافضل بيومين(٤) ،

---

(١) ابن واصل : نفسه ص ٩٣ ·
(٢) أبو شامة : جـ ٢ ص ٢٣٥ ·
(٣) المقريزى : جـ ١ ص ١٧٩ ·
(٤) ابن الاثير : جـ ١٢ ص ١٤٣ ، والمقريزى : جـ ١ ص ١٧٩ وكذلك أبو شامة : جـ ٢ ص ٢٣٥ حيث ذكر تاريخ ١١ شعبان ·

ولو ان الافضل لم يتباطأ ويتمهل لدخل دمشق وامتلكها قبل وصول العادل ، وهكذا تلعب الظروف دورها لمن يحسن استغلالها ، كما يكون لسرعة تحركات القائد واتخاذ القرارات الحاسمة وتنفيذها بدون تهاون أو تباطؤ دور بارز فى كسب الوقت والنجاح والانتصار فيما هو مقدم عليه من امور الحرب أو غيرها من أمور الدولة .

تمكنت مجموعة من ٥٠ فارسا من اتباع الملك الافضل من دخول دمشق عن طريق التواطىء مع جنوده السابقين الذين يسكنون بجوار باب السلامة حيث فتحوا لهم هذا الباب ، فدخلوا ونادوا بشعار الافضل (يا افضل يا منصور) فصاحت العامة معهم بهذا النداء ، واستسلم الجند ، ونزلوا عن الاسوار ، وبلغ الخبر الى الملك العادل ، وكاد يستسلم لولا انه تماسك .

عندما وصلت هذه المجموعة الى باب البريد ورآهم الملك العادل ووقف على قلة عددهم ، وعدم امكان امدادهم ، أمر جنوده وفرسانه بمهاجمتهم فأخرجوهم من المدينة(١) ، وأمر العادل بقفل الابواب وترتيب الجنود عليها . وبلغت هذه الاخبار الى الملك الافضل فنقل معسكره بعيدا عن باب الحديد ، ونزل بالميدان الأخضر ، فضعفت نفوس جنوده ، خاصة بعد أن انضم بعض الفرسان منهم الى الملك العادل فقويت نفسه بذلك ، وأخذ يرسل الى بعض أمراء الافضل ويذكرهم بما كان بينه وبينهم من مودة وصداقة ، ويغريهم بالأموال ومن هؤلاء الامير عز الدين درباس المهرانى والامير علم الدين كرجى وغيرهما ، وكانت نتيجة هذا الاغراء أن اقنع هؤلاء الامراء الملك الافضل بالتوقف عن الهجوم على دمشق حتى يصل الملك الظاهر - صاحب حلب - والامير أسد الدين شيركوه (الثانى) - صاحب حمص - بعساكرهما . فلما وصلا اجتمعا على الافضل بعساكرهما ، وهاجموا العادل

---

(١) ابن واصل : جـ ٣ ص ٩٦-٩٧ .

وحاصروا دمشق ، وضيقوا على أهلها الخناق حتى غلت الأقوات(١) ، وشدد الافضل ومن معه الزحف على دمشق حتى كادت تسقط فى أيديهم لولا ان خلافا وقـع بين الاخـوين بسبب مملوك كان الظاهر شغف به فتغيرت موازين الحرب لصالح العادل خاصة وقد وصلته النجدة من القدس(٢) نكاية فى الافضل من الامراء الصلاحية ومقدمهم فخر الدين جهاركس الذى ناصب الافضل العداء من قبل ، كما انه استدعى ابنه الكامل محمد وجميع عساكره التى كانت على ماردين ، فوصل الكامل فى صـفر سنة ٥٩٦هـ ومعـه ٤٠٠ الف دينار اخذها من نائب قلعة جعبر ، كما لعبت مكائد العادل ودسيسته بين الاخوين دورا فى الخلاف بينهما ، ثم ان شدة برد الشتاء فى هذه السنة (٥٩٦هـ/١١٩٩م) قد أثرت فى الجنود ، فاتفق الامراء على أن يعود كل منهم بعساكره الى بلده(٣) ، فقوى بذلك الملك العادل قوة عظيمة .

الملك العادل وتوحيد البيت الايوبى :

وصل الملك الافضل الى مصر ونزل على بلبيس ، فاقام بها ، وكان الملك العادل يعد نفسه منذ أن ضرب الحصار على دمشق لانهاء هذا التفكك فى البيت الايوبى وأن ياخذ مصر ، وقد واتته الفرصة بعد فشل المحاولة التى قام بها الملك الافضل للاستيلاء على دمشق ورحيله عنها ، فخرج فى أعقاب الافضل مع عساكره وأمراء المماليك الصلاحية الذين انضموا اليـه خلال النزاع مع الافضل ، وكانوا قد اخذوا عليه عهدا بأن يعيد ملك مصر الى الملك المنصور محمد بن العزيز عثمان ، وأن يكون هو الوصى عليه ، والمدبر لشئون ملكه حتى يكبر(٤) .

---

(١) يذكر ابن الاثير (ج ١٢ ص ١٤٤) ان الملك الظاهر هو الذى منع الأفضل والعساكر من مهاجمة دمشق مكرا باخيه الأفضل وحسدا له . ونحن لا نميل الى هذا الرأى بدليل خروج الظاهر بعسكره ووصوله الى دمشـق ولأن علاقات الظاهر بعمه العادل لم تكن طيبة ، وللاجماع الذى أورده المؤرخون من مهاجمة الأفضل والظاهر لدمشق .

(٢) المقريزى : جـ ١ ص ١٨٠ .

(٣) أبو الفداء : المختصر ، جـ ٣ ص ٩٦ .

(٤) ابن الاثير : المرجع نفسه ، ص ١٥٥ .

وصل الملك العادل وعساكره الى مصر ، والتقى بالافضل وعساكره فى مكان يقال له السائح بالقرب من بلبيس ، ودارت معركة سريعة انهزم فيها عسكر الافضل وولوا منهزمين لا يلوون على شىء ، حتى دخلوا القاهرة ، وتبعم الملك العادل وعساكره فنزل على بركة الجب بظاهر المدينة ، وارسل الى الملك الافضل يقول له : « انا لا أحب أن أكسر ناموس القاهرة ، لأنها اعظم معاقل الاسلام ، ولا تحوجنى الى أخذها بالسيف ، اذهب الى صرخد وانت آمن على نفسك »(١) . فطلب الافضل أن يعوضه عنها بدمشق ، فرفض العادل ، فأخذ الأفضل يطلب مدينة بعد أخرى والملك العادل مصر على الرفض ، فلم يجد الافضل بدا من التسليم لتخاذل أصحابه وجنوده عنه ، وتسلم الملك العادل القاهرة ودخلها يوم السبت ١٨ ربيع الاخر ٥٩٦هـ / فبراير ١٢٠٠م ، وفى نفس اليوم خرج الافضل منها مهزوما بعد أن حكم مصر سنة واحدة وثمانية وثلاثين يوما ، فاقام فى سميساط(٢) .

استقرت الامور للملك العادل فى القاهرة ، وتظاهر بانه اتابك الملك المنصور محمد بن العزيز عثمان ، وانه مدبر ملكه ، وحلف له الامراء على مساعدته حتى يكبر المنصور ويستقل بامور مصر ، ولكن الملك العادل كان عازما على تغيير كل ذلك . فقد احضر جماعة من الامراء ممن يميلون اليه وقال لهم :

« انه قبيح بى أن أكون اتابك صبى ، مع الشيخوخة والتقدم ، والملك ليس هو بالارث ، وانما هو لمن غلب . وانه كان يجب أن أكون بعد اخى الملك الناصر صلاح الدين ، غير انى تركت ذلك اكراما لأخى ، ورعاية لحقه ،

---

(١) ابن واصل : جـ ٣ ص ١٠٨ وما بعدها ، والمقريزى جـ ١ ص ١٨٢ .

(٢) احدى المدن التى اقطعها العادل له ، وتقع فى طرف بلاد الروم ، على الشاطىء الغربى لنهر الفرات (ياقوت : المعجم ، جـ ٣ ص ١٥١) راجع المقريزى : جـ ١ ص ١٨٢ وقد ذكر ابن الاثير : (جـ ١٢ ص ١٥٦) انه نزل الى ميافارقين وحانى وجبل جور .

فلما كان من الاختلاف ما قد علمتم ، خفت أن يخرج الملك عن يدى وبد اولاد اخى ، فسست الامر الى آخره ... » (١) وطلب منهم أن يكون حكم مصر له ، فحلفوا له ووافقوه على رايه . ونقضوا ما كان منهم قبل ذلك ، وخلعوا الملك الصبى المنصور محمد يوم الخميس ٢١ شوال ٥٩٦هـ / أغسطس ١٢٠٠م ، واقيمت الخطبة للملك العادل فى اليوم التالى ، ولم تدم سلطنة الملك المنصور الا سنة واحدة وثمانية أشهر وعشرين يوما .

من هذا النص نرى أن الملك العادل لجأ الى تقرير مبدأ خطير يمس نظام الحكم الأساسى فى الدولة لكى يبرر ما اقدم عليه لخلع الملك المنصور محمد حينما خاطب الامراء بقوله : « انه قبيح بى أن اكون اتابك صبى صغير مع الشيخوخة والتقدم والملك ليس هو بالارث وانما هو لمن غلب » . فكان من الممكن أن يفهم قول العادل على انه مناداة بمبدأ جديد يعارض به نظام الحكم الوراثى لو أنه كان يعنى ما يقول حقا ، ولكننا نلاحظ انه لم يستشهد بهذا الرأى الا لخدمة مصالحه الخاصة ، بدليل انه جعل الحكم من بعده وراثيا فى ابنائه ، بل لقد ظل الحكم فى مصر بوجه خاص وهى أهم اقسام الدولة فى سلالة العادل حتى نهاية هذه الدولة .

اخذت الامور تستقر للملك العادل فى مصر ، وامر بتعميم الخطبة له فى مصر والشام وحران والرها وميافارقين ، وضربت السكة باسمه ، وتلقب بالسلطان الملك العادل سيف الدين ابو بكر بن ايوب ، وارسل الى ولده الكامل محمد يستدعيه فحضر الى القاهرة ونصبه نائبا عنه بالديار المصرية ، واقطعه أعمال الشرقية التى كان اقطعها صلاح الدين الايوبى الى العادل نفسه ، وجعله (أى الكامل) ولى عهده ، واقسم الامراء له يمين الولاء . كما أناب العادل عنه بدمشق ابنه الملك المعظم شرف الدين عيسى ، وجعل

---

(١) راجع النص كاملا عند المقريزى : جـ ١ ص ١٨٣ ، وابن واصل : جـ ٣ ص ١١٠ وما بعدها .

ابنه الفائز نائبا عنه فى بلاد المشرق ، واقر ابن اخيه الملك الظاهر غازى ابن صلاح الدين على حلب ، كما اقر الملك المنصور بن تقى الدين عمر على حماه(١) .

ولكى يضمن استمرار الامور فى مصر أخرج الملك الصبى المنصور بن العزيز عثمان ومعه اخوته واخوانه ووالدته الى الرها ، فهربوا منها الى حلب ماعدا الملك المنصور فظل فى الرها(٢) الى أن مات سنة ٦٢٠هـ / ١٢٢٤م .

ومع ذلك لم تهدأ بذور الفتنة ، فقد تحرك بعض الأمراء من أصحاب الميول الى الافضل ، ممن يرفضون سلطان الملك العادل ، وخبثت نياتهم فى طاعته ، فراسلوا الملك الظاهر بحلب ، والملك الافضل بصرخد ، وتكررت المكاتبات والمراسلات بينهم ، واتفقوا على مهاجمة دمشق وانتزاعها من يد السلطان العادل . وصلت هذه الاخبار الى العادل فخرج بعسكره من مصر ووصل الى نابلس حيث ارسل بمجموعة من جنوده الى دمشق ، فدخلوها قبل أن يصل الافضل والظاهر اليها .

هاجمت جنود الافضل والظاهر دمشق ، وحاصروها وضايقوا اهلها وشددوا هجماتهم عليهم ، وتكررت هذه الهجمات حتى اوشكت المدينة على السقوط فى أيديهم . وتغلبت روح الطمع والأنانية عند الملك الظاهر فارسل الى أخيه الملك الافضل يقول له : « اذا فتحت دمشق تسلمتها أنا ، وسيرت العساكر معك الى مصر ليفتحوها لك » وحاول الافضل أن يحرك عاطفة أخيه كى يترك دمشق ليسكنها أفراد البيت الايوبى المشردون والذين اخرجوا من مصر ولكن دون جدوى ، ولجا السلطان العادل الى الوقيعة بين الاخوين كعادته فدب النزاع بينهما وتمكن الخلاف منهما ، لدرجة ان الافضل أذن

---

(١) ابو الفداء : المختصر ، جـ ٣ ص ٦٤ [illegible]

(٢) يذكر أبو الفداء : (نفس المرجع ص ٨٢) ان المنصور أقام عند عمه الملك الظاهر فى حلب .

لجنوده بالذهاب الى السلطان العادل والدخول فى خدمته ، ورحل كل من الظاهر والافضل عن دمشق فى أول المحرم سنة ٥٩٨هـ / أكتوبر ١٢٠١م ، ودخلا فى طاعة السلطان العـادل ، الذى أصـبح له ملك مصر ودمشق ، والسواحل وبيت المقدس ، وجميع ما هو فى يـده ويـد أولاده من بلدان الشرق (١) .

لم تكن حالة مصر السياسية فقط على هذه الصورة السيئة ، بل تردت حالتها الاقتصادية الى أقصى منازل السوء ، فقد تعذرت الأقوات ، وتزايدت الاسعار ، وعظم الغلاء ، حتى اكل الناس الميتات ، واكل بعضهم بعضا ، وتبع ذلك فناء عظيم ، فقد بلغ عدد من كفنهم الملك العادل ٢٢٠ الف شخص فى مدة قصيرة ، ولجأ الناس الى قتل الاطفال وذبحهم وأكلهم ، وخـــرج من مصر أعداد كثيرة من الأسرات متجهين الى الشام ، ولكنهم ماتوا من الجوع فى الطرقات (٢) .

ولكن على الرغم من هذه المآسى السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، فقد انتظمت البلاد فى حكم الملك العادل ، واستقرت أمورها فى يده ، وعادت وحدة الدولة الايوبية اليه ، واعيدت الحياة الى الجبهة الاسلامية فى منطقة الشرق الادنى ، وأخذ يعـد نفسه لقيادة الامة الاسلامية فى جهادها ضـد الصليبيين .

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ١٩١ .
(٢) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ١٨٨-١٩١ .

الفصل الثامن

السلطان الملك العادل وجهاده ضد الصليبيين

راقب الصليبيون ما يحدث فى الدولة الايوبية بحرص ، وترقبوا فرصة تواتيهم ليستعيدوا بيت المقدس الذى استرده صلاح الدين الايوبى منهم ، لأنهم لم ولن ينسوا لصلاح الدين هذا العمل الذى حطم به كبرياءهم ، وأذل أطماعهم فى بلاد المسلمين . ولذلك تكررت محاولاتهم وهجماتهم على القدس الشريف وغيره من المدن الاسلامية القريبة منه لاستردادها منتهزين فترة الصراع بين أبناء البيت الايوبى ، وما أصاب دولة بنى ايوب من ضعف .

ففى أواخر سنة ٥٩٩هـ/١٢٠٤م بدأ الصليبيون يفدون من الغرب الأوربى ومن المدن الصليبية الباقية فى المشرق الاسلامى الى عكا ، وقد بلغ عددهم ٧٠ ألفا ، وكان غرضهم عقد صلح مع الأرمن والتكتل سويا لقتال المسلمين لاسترجاع بيت المقدس ، وعندما وصلت هذه الاخبار الى السلطان العادل خرج اليهم من دمشق سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٤م ، وطلب النجدات من سائر البلاد الاسلامية ، ونزل بعساكره قريبا من عكا ، وعسكر الصليبيون بمرج عكا ، وأغاروا على كفر كَنّا(١) وأسروا من كانوا به وقتلوا ونهبوا وسبوا(٢) ، والعادل فى عسكره لا يحرك ساكنا .

ويبدو ان العادل امتنع عن الدخول فى حرب مع الصليبيين فى هذا الوقت لانه لم يمض على انتهاء الصراع الذى كان قائما بينه وبين أبناء صلاح الدين سوى وقت قصير . ولم يكن يأمن جانبهم ، وكان يخشى من مؤيديهم واتباعهم فربما وثبوا على ملكه اثناء حربه ضد الصليبيين ، كما انه كان يخاف تدفق الامدادات من مؤن ورجال وعتاد على هؤلاء الصليبيين من الغرب الاوربى ان هو دخل معهم فى حرب ، ولذلك آثر التريث وتمهل

---

(١) بلد بين طبرية والناصرة ـ ياقوت : جـ ٤ ص ٢٩٠ .
(٢) ابن الاثير : جـ ١٢ ص ١٩٤ـ١٩٥ .

حتى تقرر الصلح وعقدت الهدنة بينه وبين الصليبيين سنة ٦٠١هـ / سبتمبر ١٢٠٤م لمدة محددة ، واشترط الصليبيون ان تكون يافا لهم ، مع مناصفات جميع دخل اللد والرملة (١) ووافق الملك العادل على ذلك ، ثم تفرقت العساكر ، وعاد العادل الى القاهرة وأخذ يرتب امورها ، بينما استمر ابنه الكامل بقلعة الجبل .

ويبدو ان سياسة الملك العادل تجاه الصليبيين كانت لينة الى حد الضعف وخاصة فى بداية سلطنته ، فقد خرج اسطول للصليبيين فى سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٤م واتجه الى مصر ، وعبر النيل من جهة رشيد ، فوصل الى (فوه) واقام بها خمسة ايام ينهبون ويسلبون ، وعساكر مصر تقف تجاههم فى البر ، لا يستطيعون الوصول اليهم ، لعدم وجود الاسطول العادلى (٢) .

٩ كذلك قام الصليبيون سنة ٦٠١هـ/١٢٠٤م بمناوشات ضد المدن الاسلامية فاغاروا على حمص ، فقتلوا واسروا من اهلها ، فخرج العادل بجيش من القاهرة وعسكر على بركة الجب ، ولكنه عاد للقاهرة ثانية ، ويبدو ان الصليبيين كانوا قد انسحبوا من حمص بعد الاغارة ولم يمكثوا فيها .

وفى رمضان من نفس العام هاجم صليبيو طرابلس وحصن الاكراد مدينة حماة ، طمعا فيها ، وكان صاحبها الملك المنصور محمد بن تقى الدين عمر شاهنشاه ، الذى خرج فى قلة من جنوده ، وزحف الصليبيون الى مكان قريب من باب المدينة الغربى يعرف باسم (الرقيطا) ، وهزموا تقى الدين ومن معه (٣) ، فخرج الاهالى لقتالهم ، فقتل الصليبيون منهم جماعة ثم عادوا .

---

(١) ابن واصل : جـ ٣ ص ١٥٩ وما بعدها .
(٢) ابن واصل : مفرج ، جـ ٣ ص ١٦١ .
(٣) ابن الاثير : ج ١٢ ص ١٩٥ .

لم ينته طمع الصليبيين ولم يقف عند حد ، فكلما هاجموا مدينة ولم يتمكنوا من اخذها عنوة عقدوا هدنة مؤقتة ومشروطة مع اميرها ، واستفادوا من شروط هذه الهدنة ، وعلى ذلك خرج الصليبيون من طرابلس ، واغاروا على جبلة واللاذقية فى ذى القعدة سنة ٦٠١هـ/١٢٠٥م ، ووضعوا كمينـــا لأهلها ، واستعملوا الخداع فى حربهم ، فلما خرج عساكر جبلة انقض الكمين عليهم ، وقتل الصليبيون منهم اعدادا كثيرة ، وأسروا اعدادا أخرى ، كما سبوا وغنموا(١) .

ويبدو لنا ان الصليبيين قاموا بهذه الاغارات للحصول على المغـــانم ليتقووا بها ، وجسا لنبض القوات الاسلامية ـ كما يقولون فى التكتيك العسكرى ـ وللوقوف على أماكن الضعف والقوة التى يمكن لها مقاومـة الصليبيين ، ومن ناحية ثانية كانت هذه الاغارات نوعا من الحرب النفسية لانزال الرعب والخوف فى نفوس المسلمين ، ولاشاعة القلق والاضطراب بين عساكرهم وذلك تمهيدا لمجىء حملة صليبية يمكنها استرداد بيت المقدس .

التفكير فى الحملة الصليبية الرابعة :

فكرة ارسال هذه الحملة نبتت فى قلعة تيبالد كونت شامبانى فى نوفمبر سنة ١١٩٩م (٥٩٦هـ) عنـدما دار حديث بينــه وبين بعض أصـدقائه ، انتهى باستدعاء فولك أسقف نيللى (٢) ، وهو من دعاة الحروب الصليبية ، ليتحـدث الى هؤلاء الضيوف . وتمكن فولك بفصاحته ان يثـير حمـــاس الحاضرين ، الذين وعدوا بالاشتراك فى الحرب الصليبية ، وبعثوا برسول

---

(١) ابن واصل : نفسه ، ص ١٦٦ وما بعدها ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ١٩٧ .

(٢) يعتبر فولك نيللى اكبر مبشر للبابا فى فرنسا ، واشتهر بانه لا يخشى الأمراء ، ومن الأدلة على ذلك انه طلب من ريتشارد قلب الأسد أن ينبذ كبرياءه ، ونهمه وشهوته ، رنسيمان : جـ ٣ ص ١٩٩ .
Villehardouin : op cit. PP. 2 -6

الى البابا انوسنت الثالث ليعرض عليه مشروع الحملة ، وليعطى القرار الصالح السليم (١) .

كان البابا انوسنت الثالث قد أعرب علنا عن رغبته فى الدعوة الى حرب صليبية جديدة ، فكتب فى سنة ١١٩٩م الى ايمار بطريرك بيت المقدس يطلب منه تقريرا مسهبا عن مملكة الفرنج (٢) وعن احوال المسلمين وقوتهم فى بلاد الشام ومصر . ولذلك أبدى ارتياحه وترحيبه الحار لمشروع الحملة التى اقترحها كونت شامبانى . وتزعم بنفسه الدعوة لقيام هذه الحملة الصليبية الرابعة .

وكان من أهم الأسباب التى دعت البابا انوسنت الثالث لقيام هذه الحملة ، رغبته ورغبة الاوربيين فى محو العار الذى لحق بهم فى الحرب الصليبية الثالثة على يد صلاح الدين الايوبى ، وذلك باسترداد بيت المقدس من أيدى المسلمين . ولذلك حشدت البابوية كل امكاناتها لتوجيه الصليبيين الى مصر لاحتلالها ، لانها أكبر عدو للصليبيين ، ولانها مركز الثقل فى العالم العربى الاسلامى ، ولن يتمكن الصليبيون من استرداد بيت المقدس طالما ظلت مصر بعيدة عن أيديهم .

ولكى يمهد لنجاح هذه الحملة اصدر مرسوما يحرم على التجار الاوربيين التعامل مع المسلمين ، وحرم عليهم تزويد المسلمين بكل المواد التى تعينهم على قتال المسيحيين وخصوصا مواد الحديد والخشب وما يستعان به فى الحروب (٣) .

قيام الحملة الصليبية الرابعة ونتائجها :

استعادت البابوية سلطتها فى جنوب ايطاليا ، بعد ما ادى اليه تشابك

---

(١) رنسيمان : جـ٣ ص ١٩٥ .
Villehardouin: La Conqu. Constan. vol. I. p.p. 2-6
(٢) Rohricht. op. cit. pp. 202-203.
(٣) كلارى : فتح القسطنطينية ، ص ٦ .

المصالح من نزع بين ملوك أوربا العظام ، واخذ انوسنت الثالث يمهد لهذه الحملة ، فبدأ باجراء المفاوضات مع الامبراطور البيزنطى الكسيوس الثالث لتوحيد الكنيستين الشرقية والغربية (١) واعطى تعليماته الى فولك أن يطوف بالبلاد ، ويحث اهل الريف على الانخراط فى الحرب المقدسة وحمل السلاح لاستعادة بيت المقدس من أيدى المسلمين ، واحتلال مصر . انضم عدد كبير من البارونات للاشتراك فى هذه الحملة بغرض امتلاك اراضى جديدة بعيدة جدا عن أوربا وليس بدافع من الدين . قبل جميع البارونات أن يتولى تيبالد كونت شامبانى قيادة الحملة الصليبية ، ولكنه مات فجاة فى مارس سنة ١٢٠١ فتولى بونيفاس ماركيز مونتفرات قيادتها سنة ١٢٠١م/٥٩٨هـ (٢) .

واجه بونيفاس أول مشكلة من المشاكل التى واجهت الحملة وهى عدم وجود سفن عند أمراء الحملة من الصليبيين ، فاتفقوا على أن ينوب عنهم جفرى هاردوين فى الاتفاق على تاجير سفن لنقل جنود الحملة الى سواحل الشام (٣) . وسافر جفرى الى جنوه وفاوض المسئولين فيها لمساعدتهم فى نقل ٤٥٠٠ فارس بمعداتهم وحوالى ٣٠ الف راجل باسلحتهم وآلاتهم ، ولكن الجنويين ابدوا اسفهم لعدم قدرتهم . فتوجه جفرى الى البندقية وخاطب حاكمها الدوق هنرى داندلو الذى استشار حاشيته وقبل ذلك ، ، وطلب مائة الف مارك ايجارا للسفن ، ثم شرط عليهم أن يمضى معهم بنصف أهل البندقية القادرين على حمل السلاح ، وان يكون لهم النصف فى جميع الغنائم ، وسوف يكون لأهل البندقية مراكبهم الخاصة بهم (خمسين غرابا) يتولى البنادقة الانفاق عليها . وسوف يتم نقل جنود الحملة فى مدى عام من اليوم الذى نحدده الى اى بلد شئتم (٤) .

---

(١) رنسيمان : جـ ٣ ص ١٩٩ .
(٢) كلارى : نفسه ، ص ٣٦ وما بعدها .
(٣) رنسيمان : نفسه ص ٢٠١ .
(٤) كلارى : نفسه (ص ٤٠ - ٤٢) ولكنه بالغ فى عدد الجنود فجعلهم مائة الف وما أثبتناه هنا عن رنسيمان (جـ ٣ ص ٢٠٥) .

تم الاتفاق بين الطرفين على تخفيض المبلغ الى ٨٥ الف مارك فضية كولونية ، واقسم دوق البندقية وجفرى هاردوين على تنفيذ هذه الاتفاقية التى عقدت بينهما فى يونية ١٢٠٢م ، ثم شرع الصليبيون فى المجىء الى البندقية لكى تنقلهم السفن الى المشرق ، فلما اكتملت اعدادهم وطلبوا من البندقية أن تبحر السفن بهم ، طلب الدوق داندلو المبلغ الذى اتفق عليه قبل رحيل السفن . وعجز الصليبيون عن دفع كل المبلغ المحدد .

عندئذ ظهرت بعض المصاعب والمشاكل التى اثرت فى سير الحملة من أهمهـا :

١ ـ اشتد ضجر مجموعات من الصليبيين لتأخرهم هذه المدة الطويلة فى البندقية دون الرحيل الى الأراضى المقدسة ، وخاصة عندما علموا ان وجهة الحملة هى مصر وليس بيت المقدس .

٢ ـ عمل أهل البندقية على تشجيع هذا التذمر بين الصليبيين ، لان البنادقة لم يكن فى نيتهم تقديم مساعدة ما لمهاجمة مصر . نظرا للامتيازات الكثيرة والجليلة التى منحها الملك العادل للتجار الايطاليين فى مصر .

٣ ـ أوفد الدوق هنرى داندلو حاكم البندقية(١) سفراءه الى القاهرة فى نفس الوقت الذى كان يساوم الصليبيين حول نقل الحملة ، وتم عقد اتفاق تجارى فى ربيع سنة ١٢٠٢م/٥٩٨هـ مع نائب الملك العادل ، وقد اكد الدوق داندلو لمبعـوث الملك العـادل انه لن يساند اى حمـلة تتجه الى مصر(٢) .

استغل دوق البندقية هذه الظروف لصالح بلاده ، فعمل على توجيه

---

(١) يذكره ريسيمان (جـ ٣ ص ٢٠٨) انريكو داندلو Anriero Dandello

(٢) رنسيمان : نفسه ، ص ٢٠٦ وقد ذكر Villhardouin (ص ٥٢ ـ ٥٤) بعض العيوب والمآخذ التى نجمت عن هذه الحملة ، وتشير بعض المراجع الى ان العادل ارسل الى الدوق هدايا عظيمة والف مارك من الذهب ، وقدم الكثير من الامتيازات لتجار البندقية وانه طلب من الدوق تحويل مسير الحملة عن مصر . راجع ، شارل ديل : البندقية جمهورية استقراطية ، ص ٥٩ .

الحملة ضد ملك المجر لتخليص مدينة زارا عاصمة الساحل الدلماشي من يده والتى استمرت الحروب من اجلها عشرات السنين بين جمهورية البندقية والمجر (١) . واعلن الصليبيون فى سبتمبر ١٢٠٢م قبولهم لكل ما تعرضه البندقية عليهم ، لكى يتم نقلهم بعد ذلك الى الاراضى المقدسة .

ابحر الأسطول من البندقية فى ٨ نوفمبر ١٢٠٢م ، فوصل زارا بعد يومين ، وهاجمها الصليبيون بعنف ، فاستسلمت بعد خمسة ايام ، واستباحها العساكر . وبعد ثلاثة أيام وقع القتال بين البنادقة والصليبيين بسبب اقتسام الغنائم . غير ان الامور سويت بين الجانبين ، وقرر داندلو مع بونيفاس قائد الحملة البقاء حتى ينتهى فصل الشتاء . وفى خلال هذا الوقت اتفق زعماء الحملة مع داندلو على توجيه الحملة الىالقسطنطينية (٢) . ويذكر البعض ان فيليب دوق سوابيا أرسل الى قائد الحملة بونيفاس عرضا محددا من صهره الكسيوس الصغير يطلب فيه أن تتوجه الحملة الصليبية الى القسطنطينية وتثبته على عرش الامبراطورية ، وفى مقابل ذلك يقوم الكسيوس بسداد ديون الحملة الى البنادقة ويمدهم بالمال والمؤن لمساعدتهم على فتح مصر ، ويرسل معهم فرقة من الجيش البيزنطى قوامها عشرة آلاف جندى ، ويتولى الانفاق على ٥٠٠ فارس صليبى فى الأراضى المقدسة ، ويخضع كنيسة بيزنطة الى الكنيسة الأم فى روما (٣) . وعلى الرغم من ان البابا انوسنت الثالث كان قد اصدر قرار الحرمان لأفراد الحملة لمهاجمتهم ملك المجر فى زارا ، الا أنه عاد وأصدر قرارا بالعفو عنهم ، بل انه ساند

---

(١) راجع الأسباب الشخصية التى دفعت داندلو لمهاجمة زارا فى رنسيمان ج ٣ ص ٢٠٧-٢٠٨ .

(٢) أومان : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٢١٧ .

Bury : Comb Med - Hist pp. 415-416.

كلارى : نفسه ، ص ٥٠-٥١ .

Villehardouin; I. op. cit., pp. 76-90.

(٣) رنسمان : نفسه ، ص ٢٠٩ - ٢١٢ .

Duggan: The Story of the Cru.ades, p. 205 ff. ; Hodyson: The Early History of venice, p. 349 ff.

الرأى بذهاب الحملة لمهاجمة القسطنطينية (١) لضم كنيستها وتوحيد العالم المسيحى تحت سلطانه ٠

الحملة تبحر نحـو القسطنطينية ١٢٠٣م :

وصل الكسيوس الصغير ابن الامبراطور السابق المخلوع اسحق قادما من المانيا ورافق الحملة التى ستعيد له عرش ابيه ، وتم عقد معاهدة بينـه وبين حلفائه الصليبيين والبنادقة لتاكيد ما سبق أن عرضه بواسطة صهره فيليب دوق سوابيا ، وفى ٢٤ يونيه ١٢٠٣م/٦٠٠هـ وصلت سفن الحمـلة امام القسطنطينية (٢) ٠

ولم يتخذ الامبراطور الكسيوس الثالث ، الذى استولى على العـرش عن طريق مؤامرة خبيثة ضد أخيه الامبراطور السـابق اسحق ، أى تدابير لمنع وصول جنـود الحملة اليـه ٠ واعتقد الصليبيون والبنادقة فيما قاله الكسيوس الصغير من أن بيزنطة كلها سوف تهب للترحيب به ٠ ولكن الدهشة استبدت برجال الحملة حينما اكتشفوا ان جميع أبواب القسطنطينية اغلقت فى وجوههم ، وان الجنود البيزنطيين مرابطون فوق أسوارها ، وفشلت المحاولات الاولى التى قام بها أسطول الصليبيين لمهاجمة الأسوار ٠ وبعد قتال عنيف تمكن البنادقة من فتح ثغرة بالأسوار فى ١٧ يوليو ، وفكر الكسيوس الثالث فى الفرار مع ابنته التى يكن لها اعزازا خاصا ، ولجا الى مدينة موزينو فى تراقيا ، فما كان من حاشية القصر الا أنهم أخرجوا الامبراطور السابق اسحق – الذى سلمه أخوه – من السجن واعادوه على عرشه ، وبذلك

---

(١) The Novogorod Chronicle, p. 241, ed. Lasonov. ، رنسيمان : نفسه ص ٢١٢ ٠

(٢) Robert of Clary; pp. 30-40. وكذلك : Villehardouin; I. pp. 110-128

توقف القتال ، وتم الاتفاق على تنصيب الكسيوس الصغير قسيما لابيه فى حكم الامبراطورية(١) وتسمى الكسيوس الرابع سنة ١٢٠٣م ٠

مارس الكسيوس الرابع شئون الامبراطورية منفردا لان أباه قد فقد بصره ، وبدا فى تنفيذ وعوده السابقة فحاول ارغام رجال الدين بقبول سيادة بابا روما ولكنه وجد مقاومة عنيفة ، وفشلت محاولته ٠ اغدق الهدايا الوافرة على الصليبيين فاثار نهمهم الى المزيد ، فقل مال الخزانة ولم يتمكن من دفع ديون الصليبيين للدوق داندلو حاكم البندقية (بقية قيمة ايجار السفن) فاضطر الى فرض ضرائب جديدة فغضب عليه البيزنطيون ٠ صادر كميات ضخمة من ممتلكات الكنيسة (ذهب وفضة) وأمر بصهرها وضربها نقودا وتسليمها للبنادقة ، فحقد عليه رجال الكنيسة وغضبوا منه ٠ وزاد من غضب الشعب البيزنطى وتحريك الثورة فى نفسه ما ارتكبه الصليبيون من سلب ونهب فى القرى المحيطة بالمدينة ، وتدمير حى باكمله بسبب حماقة بعض الفرنسيين من جنود الحملة الذين حرقوا مسجدا للتجار المسلمين فى المدينة ، فامتدت النار منه ودمرت الحى باكمله ، واحترق فيه ناس كثير ٠ بالاضافة الى كل ذلك لم يكن الكسيوس الرابع (الصغير) على مستوى حكم الامبراطورية ،اذ كان مبتذلا فى حياته محبا للهو ٠ مما أدى الى وقوع ثورة فى القصر الامبراطورى فى فبراير سنة ١٢٠٤م/رجب ٦٠٠هـ وتم عزل الكسيوس الرابع والقى به فى السجن حيث توفى ، ولحق أبوه به فمات كمدا بعد فترة قصيرة ٠ وتولى العرش مورتسوفلوس ، وتسمى الكسيوس الخامس(٢) ٠

---

(١) راجع ابن الاثير : جـ ١٢ ص ١٩٠ـ١٩١ ،
Villehardouin, I, pp. 154-184.
وتعتبر رواية فيلهاردوين أوفى الروايات التاريخية التى تمثل وجهة نظر الصليبيين ، وانظر كذلك رنسيمان : نفسه ، ص ٢١٣ـ٢١٥ ٠

(٢) Robert of Clary, pp. 58-59.

سقوط القسطنطينية واقامة امبراطورية لاتينية :

كان الكسيوس الخامس شديد البأس ، ومكروها ، عزل كثيرا من الوزراء ورجال القصر ، ومنهم المؤرخ تكنياس خرنياتس الذى انتقم لنفسه فيما كتبه عنه . كما فشل فى محاولته اصلاح اسوار القسطنطينيه للدفاع عنها بسبب استمرار الثورات بالمدينة .

اتفق رأى البنادقة وأمراء الحملة الصليبية على ضرورة احتلال المدينة ، وبداوا هجومهم فى ٦ ابريل ١٢٠٤م ولكنهم تكبدوا خسائر فادحة ، فعاودوا الهجوم بعد ستة ايام وشددوا الزحف على قصر الامبراطور وتمكنوا عن طريق بذل الاموال للخونة فى داخل المدينه من الوصول الى داخلها ودخول القصر بعد ان هرب الامبراطور الكسيوس الخامس وزوجته .

استبيحت القسطنطينية للنهب والسلب بطريقة ليس لها مثيل فى التاريخ(١) فقد ادرك البنادقة قيمة الأعمال الفنية ، وما وجدوه من تحف وآثار وصناعات ابدعتها أيادى مهرة من البيزنطيين ، ولذلك نقلوا ما وصلت اياديهم اليه الى البندقية فزينوا به قصورهم وكنائسهم وميادينهم . اما الفرنسيون وغيرهم من الصليبيين فقد دمروا كل ما وقعت انظارهم عليه بدون تمييز ، ولم يفلت من هذا التخريب والتدمير الاديرة والكنائس والمكتبات لدرجة ان وصفهم بعض المؤرخين بالرعاع المسعورة(٢) .

كان لابد من اختيار امبراطور جديد للدولة اللاتينيه ، ودارت مناقشات بين البنادقة والصليبيين انتهت باختيار بلدوين التاسع كونت فلاندر الذى تولى عرش الامبراطورية سنة ١١٠٤م/٦٠٠هـ اما بونيفاس مونتفرات قائد الحملة فقد اصبح ملكا على سالونيك ومقدونيا ، كما تم تعيين توماس

---

(١) رنسيمان : نفسه ، ص ٢٢٢ .

(٢) رنسيمان : نفس المرجع والصفحة ، وقد أشار المترجم الى رسالة بلدوين كونت فلاندر التى بعث بها الى البابا أنوسنت الثالث بتفاصيل ما وقع من مظاهر الرعب فى القسطنطينية .

موروسينى وهو من البنادقة بطريركا فى كنيسة القسطنطينية ، واقتسم البنادقة والصليبيون المغانم لكل فريق منهم ٣/٨ واعطى الامبراطور بلدوين التاسع الربع ، وبذلك انتهت الامبراطورية البيزنطية ، وقامت امبراطورية لاتينية غربية استمرت من ١٢٠٤ الى ١٢٦١م (١) .. وهكذا انتهت الحملة الصليبية الرابعة ..

اهم نتائج الحملة الصليبية الرابعة :

لا شك ان ما ارتكبه الصليبيون والبنادقة من الجرائم فى القسطنطينية يعتبر جرحا غائرا فى جبين الانسانية ، فإلى جانب القتل والسلب والنهب فقد تم تبديد وتدمير ما احتفظت به بيزنطة من كنوز حضارية من أزمان غابرة .

انهت الحملة الصليبية الرابعة الدور التاريخى الذى كانت تقوم به بيزنطة فى حراسة أوربا من البوابة الشرقية امام أى هجمات سواء من المسيحيين الشرقيين أو من المتبربرين القادمين من اقصى الشمال ، فقد قاومتهم بجيوشها ، وروضتهم بمدنيتها وحضارتها .

اضحى الطريق البرى الممتد من أوربا الى سوريا وبلاد الشام بالغ الصعوبة كما أضحى الطريق البحرى غير ميسر ، لان السفن الايطالية كانت تؤثر نقل المسافرين الى البسفور والجزائر اليونانية ، على الابحار الى عكا أو موانى سورية .

كما اجتذبت الدولة اللاتينية فى القسطنطينية كثيرا من العناصر الصليبية فى الشام فرحلوا اليها والى بلاد اليونان ، مما دفع ملك بيت المقدس الصليبى الى تجديد الهدنة مع الملك العادل سنة ١٢١٠م/٦٠٧هـ وكان ذلك فى جانب

---

(١) سرهنك : حقائق الاخبار جـ ٢ ص ١٥٨ ، أبو الفداء : المختصر ، جـ ٣ ص ١١٠-١١١ ، ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٣٢٨ ، ابن الاثير : جـ ١٢ ص ١٦٠-١٩١ ، رنسيمان : نفسه ، ص ٢٢٤-٢٣١ ، وانظر كذلك : Ostrogorsky; geschi. Byzant. Staat. 2. ausg. SS. 337-359.

السياسة الناجحة التى تقوم على الدبلوماسية الهادئة والسلام التى اتبعها العادل فى السنوات الاولى من حكمه مع الصليبيين .

تحطمت وحدة العالم البيزنطى بضياع القسطنطينية ، وأصبح من الصعب جدا اصلاح ما تحطم ، وأخذت بذور الكراهية بين العالمين المسيحى فى الشرق والغرب تنمو ، وقضى تماما على أمال البابا انوسنت الثالث الرائعة ، وما زعمه الصليبيون من مفاخرات خادعة ، بخصوص توحيد الكنيستين . وأصبحت الكراهية مستقرة فى الصدور لانه كان من الصعب جدا أن ينسى البيزنطيون ما حل بهم فى الحملة الصليبية الرابعة .

حملة الأطفال الصليبية سنة ١٢١٢م :

فى أحد ايام شهر مايو سنة ١٢١٢م/ذى الحجة ٦٠٨هـ ظهر فى سان دينيه حيث كان فيليب اوجست ملك فرنسا يعقد محكمته ، صبى صغير من الرعاة ، يسمى ستيفن Steven ، وكان فى حوالى الثانية عشر من عمره ، دخل على الملك وقدم له رسالة زعم انها من السيد المسيح نفسه ، وقد أمره بأن يدعوا الى حرب صليبية ، فلم يعره الملك فيليب التفاتا ، وطلب منه الانصراف .

خرج ستيفن من أمام الملك ، وذهب الى مدخل دير القديس دينيه وأخذ يدعو الى حملة صليبية من الأطفال يقودها لانقاذ العالم المسيحى . وسوف تجف أمامهم البحار ويجتازونها كما حدث مع موسى ـ عليه السلام ـ وكان هذا الصبى فصيحا مؤثرا عند الحديث ، فهرع اليه الأطفال ، وتأثر بكلامه الكبار . وأخذ يطوف بأنحاء فرنسا يدعو الأطفال ، وواعدهم فى (فندوم) بعد شهر حيث يتحركون منها الى الأراضى المقدسة .

تجمع حوالى ثلاثين الف طفل من البنين والبنات فى عمر الزهور حيث لا يتجاوز الواحد منهم الثانية عشر ربيعا ، وتحركت حملتهم نحو الجنوب سائرين على الأقدام باستثناء قائدهم ستيفن الذى أعدت له عربة متقنة

الزخرفة فركبها وركب معه بعض أطفال الاسرات النبيلة · وبعد أن لاقى الاطفال كثيرا من متاعب الطرقات وصلوا بحملتهم الى مرسيليا وكان الجو صيفا ، شديد الحرارة ، فماتت اعداد كثيرة منهم ·

فى مرسيليا انتظر افراد الحملة أن ينشق البحر ويجف ليسيروا فوق رماله ، ولكن لم يحدث مما حدثهم ستيفن به شيئا ، فهاج أكثرهم عليه ، واتهموه بالخداع · وبعد أيام قليلة ظهر لهم تاجران من مرسيليا وعرضا على هؤلاء الاطفال نقلهم الى فلسطين فى سبع سفن بدون أجر من أجل مجـد الله ، وفعلا تم نقل هؤلاء الاطفال من الميناء ، واقلعت السفن بهم ·

فى تلك الفترة شرع صبى آخر اسمه نقولا فى بلاد الراين (المانيا) يقلد ستيفن ويدعو للاشتراك فى حملة أخرى للاطفال ، وكانت دعوة نقولا تحويل الكفار (ربما يقصد المسلمين) الى المسيحية ، وليست للحرب فى الاراضى المقدسة كما كان يدعو ستيفن(١) ·

تجمع الآلاف من الاطفال فى خولن Koln وكانت اعمارهم (بنين وبنات) تزيد قليلا عن الاطفال الفرنسيين الذين خرجوا مع ستيفن ، وقد انضـم الى حمـلة نقولا عـدد من ذوى السـمعة السـيئة من المتشردين والعاهرات ·

انقسمت حملة نقولا الى قسمين ، الاول بلغ تعداده عشرون الفـا قادهم نقولا نفسه وتحرك بهم عن طريق الراين فاجتاز جنيف ، ثم عبر جبـال الالب فى رحلة شاقة فلم يصل منهم الى جنوه فى نهاية اغسطس من نفس العام (١٢١٢م) الا الثلث تقريبا ، وكما حدث لاطفال ستيفن حدث لأطفال نقولا ، وانتهت حملة الاطفال ببيعهم فى موانى تونس والجزائر والاسكندرية

---

(١) رنسيمان : جـ ٣ ص ٢٤٩ – ٢٥٢ ·

حيث اصبحوا فى عداد الرقيق(١) ، ومن تخلف منهم اضحى من مواطنى البلدان التى عاشوا فيها ٠

ويروى رنسيمان(٢) ان قسا من الشرق وصل الى فرنسا سنة ١٢٣٠م وزعم انه كان احد أطفال حملة ستيفن فى مرسيليا ، وروى انه بعد ان اقلعت السفن بهم فى عرض البحر ، تعرضوا لطقس سىء ، وتحطمت سفينتان بالقرب من سردينيا وأما الخمس سفن الباقية ، فقد بيع ما عليها من أطفال الى أسطول اسلامى بناء على اتفاق سابق حيث حملوا وبيعوا فى أسواق الرقيق بالمدن الاسلامية ٠ ومما ذكره هذا القس ان السلطان العادل اشترى من هؤلاء الاطفال مجموعة ليكونوا عنده مترجمون ومعلمون وكتابا لانه كان شغوفا باللغات والآداب الغربية ، ولم يحملهم على الاسلام ، وانهم يعيشون فى القاهرة عيشة مريحة سهلة(٣) ٠

مهاجمة الملك العادل للصليبيين :

على الرغم من وجود الهدنة بين المسلمين والصليبيين ، فان الاغارات الصليبية على بعض مدن المسلمين لم تتوقف ، وذلك بسبب كثرة الوافدين من الغرب الاوربى فى تلك الفترة - أوائل القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى ٠ ففى سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٧م اتفق الصليبيون مع فرسان الاسبتارية فى حصن الأكراد على مهاجمة حمص ، وتكرر هجومهم عدة مرات بقصد الاستيلاء عليها ، وكان اميرها أسد الدين شيركوه (الثانى) بن محمد ابن شيركوه غير قادر على مجابهة هذا التحالف ، فاستنجد بالملك الظاهر غازى - صاحب حلب - وغيره من ملوك الشام(٤) فلم يتقدم لمساعدته سوى

---

(١) Gray, G. Z.; The Children Crusades, p. 71.

(٢) الحروب الصليبية ، جـ ٣ ص ٢٥٥ - ٢٥٦ ٠

(٣) Rohricht; Der Kinderkreuzzug : in Historische Zeitung. B. 36 : Winckelmann; geschi. Kaiser Friedricks des Zweiten, B. I. SS. 221-222.

(٤) ابن الاثير : الكامل جـ ١٢ ص ٢٧٣ ٠

الظاهر ، الذى ارسل اليه عسكرا اقاموا عنده ، ومنعـوا الصليبيين من الاغـارة على المدينة .

وفى نفس العام هاجم صليبيو قبرص أسطولا للمسلمين ، وأخذوا عدة قطع من أسطول مصر ، وأسروا من فيها . ووصلت هذه الاخبار الى الملك العـادل ، الذى كان يراقب العدو باستمرار . فكتب الى الوصى على عرش مملكة بيت المقدس الصليبية حنا دى أبلين يذكره بالهدنة ، ويطلب منـه التدخل مع الصليبيين من أهل قبرص ليردوا ما أخذوه من قطع الاسطول وليعيدوا الاسرى ، ولكن الوصى أجابه بانه ليس له عليهم سلطان ، وان مرجعهم الى الفرنج الموجودين بالقسطنطينية(١) .

ثم أشار فى رده كذلك الى ان الصليبيين فى بلاد الشام ليس لهم حكم على قبرص خصوصا بعد وفاة الملك عمورى الثانى دى لوز جنـان سـنة ٦٠٢هـ/١٢٠٥م ، وانفصال قبرص عن مملكة بيت المقدس الصليبية .

عندئذ رأى الملك العادل ضرورة خروجه بالعساكر فوصل العباسة ، ثم اسرع السير الى الشام ، فأغار على عكا فصالحه أهلها واطلقوا جميـع ما عندهم من الأسرى المسلمين(٢) وأذعنوا . ثم وصل العادل بعساكره الى دمشق ، فاجتمع عليه خلق كثير بالمساجد ، وطالبوه بمواصلة الجهـاد ، ويقال ان امرأة مسلمة قطعت شعرها وأرسلته الى العادل وقالت « اجعله قيدا لفرسك فى سبيل الله »(٣) فاثارت بذلك حماسته ، فعقد العزم وخرج على نية الجهـاد(٤) .

وصل الملك العادل الى حمص ، ونزل على بحيرة قدس ، واستدعى الملوك من أهل بيته والعساكر ، فجاءوه من كل صوب ، ومنهم الملك المنصور

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ٦ ص ١٩٦ .
(٢) ابن واصل : مفرج ، جـ ٣ ص ١٧٢ .
(٣) أبو شامة : الروضتين ص ٧٠ .
(٤) ابن واصل : نفسه ، ص ١٧٣ .

صاحب حماه ، والملك المجاهد أسد الدين شيركوه (الثانى) صاحب حمص ، والملك الأمجد صاحب بعلبك ، ووالده الملك المعظم عيسى ، والملك الأشرف موسى ونجدة من ابن أخيه الملك الظـاهر غازى بن صلاح الدين وعسكر سنجار والموصل والجزيرة وآمد(١) ، وبلغت عساكره حوالى عشرة آلاف فارس(٢) ولكى يضـلل الصليبيين ويبعـد انظارهم عن المكان الذى سيهاجمه اشاع ان عساكره متجهة الى طرابلس ، ولكنه هاجم حصن الأكراد فى شوال سنة ٦٠٣هـ/١٢٠٧م وقاتل الاسبتارية أشد قتال ، واستولى على قلعة قريبة من الحصن أسماها (أعناز) وأسر منها ٥٠٠ رجل ، وغنم منها أموالا وأسلحة كثيرة ٠

ثم زحف على طرابس وهاجمها وحصرها وضيق على أهلها الخناق ، ولكى يصيب الصليبيين بالأضرار سمح لجنوده يخربون البلد وما حولها ، ويتلفون زروعها وبساتينها ، وقطعوا أشجارها ، وهدموا أسوارها فى ظاهر المدينة ، وقطعوا العين الواصلة اليها ، وخربوا الطرق المؤدية لها ٠ وكان قصد الملك العادل من وراء ذلك أن يخضعهم ويجبرهم على الاستسلام ٠ ولكنه اضطر للعودة بعساكره الى بحيرة قدس بالقرب من حمص نظـرا لضجر الجنود(٣) وظهور استيائهم ٠ ومع ان مدة الهجوم على طرابلس لم تدم أكثر من اثنى عشر يوما الا انه أنزل الرعب فى قلب أميرها الصليبى بوهيمند الرابع فطلب الصلح ، وبعث للملك العادل بمال وهدية ، وثلاثمائة أسير ، وأبدى خضوعه ، فوافق العادل على الصلح فى آخر ذى الحجة سنة ٦٠٣هـ/١٢٠٧م(٤) ٠

انتهز الملك العادل فرصة هذه الانتصارات وأراد أن يضفى على حكمه الشرعية فأرسل فى أوائل سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٧م الى الخليفة العباسى الناصر

---

(١) ابن الاثير : جـ ١٢ ص ٢٧٣ ٠
(٢) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ١٦٦ ٠
(٣) ابن واصل : مفرج ، جـ ٣ ص ١٧٣ ٠
(٤) أبو الفداء : المختصر ، جـ ٣ ص ١٠٨ ٠

لدين الله يطلب منه أن يشرفه بالتقليد والخلع فاستجاب الخليفة له وبذلك اصبح حكمه فى مصر والشام شرعيا من قبل الخلافة ، وخوطب العادل بلقب شاهنشاه ملك الملوك خليل أمير المؤمنين(١) .

تغيرت الظروف فى عكا مركز الصليبيين فى المشرق الاسلامى ، اذ تزوجت الأميرة مارى بالأمير حنا دى برين وكان فى الستين من عمره ، فاكتسب بهذا الزواج الشرعيـة وأصـبح ملـكا على مملكة بيت المقـدس الصليبية سـنة ٦٠٧هـ/١٢١٠م(٢) .

كان الملك العادل فى تلك الفـترة منصرفا الى المحافظة على ملكه ، ولا يريد الدخول فى حرب مع الصليبيين نظرا لالتزامه بالهدنة التى سبق أن عقدها معهم لـمدة عشرة سنوات . ويبدو ان بعض المجموعات الصليبية بدأت فى مناوشتها ضد المسلمين بعدما وصلت أعداد كثيرة من الصليبيين الأوربيين الى عكا فى هذه الفترة(٣) . وشدت من أزر من بها من الصليبيين ، ولأن الهدنة كان انتهى أجلها فى يولية سنة ١٢١٠م .

رأى الملك العـادل ضرورة خروجه بالعسكر من دمشق لمواجهة هـذه الهجمات ولكن الرسل ترددت بينه وبين صليبيى عكا وابرمت الهدنة بينهما لـمدة معلومة خمس سنوات تبدأ فى يولية سنة ١٢١٢م .

وفى نفس العـام توفيت الملكة مارى بعـد أن وضعت طفـلة اسمهـا (ايزابيلا) واشتهرت باسم (يولاندا) وانتقل حكم المملكة الصليبية اليها ، واصبح أبوها يوحنا دى برين وصيا عليها ويحكم باسمها . ثم بدأ فى تحريض الغرب الأوربى على ارسال حملة صليبية جديدة ، وكتب بذلك الى البابوية

---

(١) ابن واصل : نفسه ، ص ١٨٠ وما بعدها ، والمقريزى : نفسه ، ص ١٦٧ .

(٢) رنسيمان : جـ ٣ ص ٢٣٧-٢٣٩ وقد ذكر ان تتويجهما تم فى صور فى أكتوبر .

(٣) ابن واصل : مفرج ، جـ ٣ ص ٢٠١ .

والى ملوك أوربا ، على أن يكون قدوم الحملة الى مصر قبل انتهـاء أجل الهـدنة (١٢١٧م) ٠

ولكن الاشتباكات تجددت فى العام التالى (٦١٠هـ/١٢١٣م) لأن طائفة الاسماعيلية الباطنية قتلت ريموند أكبر أبناء بوهيمند الرابع صاحب انطاكية وطرابلس فى كنيسة انطرطوس وكان شابا فى الثامنة عشر من عمره ، ويرجح البعض(١) ان ذلك كان بتحريض من الاسبتارية ثم قتلت الاسماعيلية كذلك (البرت) بطريق بيت المقدس بعد عام ، فعظم ذلك على الفرنج وخافوا واحترزوا لأنفسهم(٢) وقرروا الانتقام من الاسماعيلية ومن المسلمين ٠ وتمت تجمعاتهم من قبرص وطرابلس وعكا وانطاكية وانضم اليهم عسكر الأرمن ، ونزلوا قريبا من حصن الأكراد حيث توجد الاسبتارية ، فخاف ملوك البلدان الاسلامية القريبة وأخبروا الملك الظاهر صاحب حلب ، فارسل الى الصليبيين يطلب منهم عدم التعرض لمدينة حماه وانتهى الامر بصلح بين الطرفين ٠

ثم تحول الصليبيون الى حصن الخوابى وضربوا عليه الحصار بشدة ، انتقاما من الاسماعيلية الذين قتلوا ريموند بن بوهيموند ، ولما علم الملك الظاهر خرج بعساكره ليدفع الصليبيين عن الخوابى ، فلما علم الصليبيون بخروجه رحلوا عن الحصن وتوجهـوا الى انكاطيـة ٠ وأخذت الشائعات تتردد عن قدوم حمـلة صليبية جديدة ، فادى ذلك الى توحيـد العـالم الاسلامى ، وأخذ الملك الظاهر يسعى الى صداقة عمه الملك العادل ٠

أهم الأعمال الداخلية للملك العـادل :

بعد أن عقد الملك العادل الهدنة مع الصليبيين فى سنة ٦٠١هـ/١٢٠٤-١٢٠٥م أصبح لديه بعض الوقت للاصلاحات واقامة منشآت فى مصر والشام ، فبدأ بتدبير شئون مصر وترتيب دواوينها ، فقبض على الأسعد أبى المكارم بن مهدى بن مماتى صاحب الديوان فى جمادى الاخرة سنة ٦٠٢هـ/١٢٠٥م

---

(١) رنسيمان : جـ ٣ ص ٢٤٧ ٠
(٢) ابن واصل : نفسه ، ص ٢١٩ ٠

وعوقب وعذب ، كما قبض على الامير عبد الكريم اخى القاضى الفاضل عبد الرحيم ، والزم بدفع غرامة قدرها عشرون الف دينار دفعها توا ، كما غرم آخرون مبالغ مختلفة . كما أسند ديوان الجيش لابن الكعكى ، وتم عزل قاضى العسكر الصاحب بن شكر البدر بن الابيض ، وعين بدلا منه نجم الدين خليل بن المصمودى الحموى .

ووصل تقليد الخليفة العباسى للملك العادل بولاية مصر والشام والشرق وخلاط وكان الشيخ شهاب الدين السهروردى مبعوث الخليفة فى هذا الأمر ، كما بعث الخليفة الخلع لأولاد الملك العادل (الملك المعظم عيسى ، والملك الأشرف موسى ، والملك الكامل محمد) ، وقد تسلم الملك العادل هذه الخلع وهو نازل فى دار رضوان بدمشق(١) ، وبعد أن قرىء التقليد وارتدى الملك العادل الخلعة خوطب بلقب شاهنشاه خليل أمير المؤمنين .

وفى خلال هذا العام ٦٠٤هـ/١٢٠٧م أمر الملك العادل بعمارة قلعة دمشق ، ووزع مسئولية أبراجها على الأمراء فعمروها من اموالهم . ولما رأى اتساع مملكته ، واستقرار الأمور فيها قسمها بين أولاده ، فاختص الملك الكامل محمدا بديار مصر ، ورتب عنده القاضى الأعز فخر الدين مقدام ابن شكر ، كما اختص الملك المعظم عيسى بالامارة على البلدان من العريش الى حمص ، وأدخل فى ولايته بلاد الساحل الاسلامية ، وبلاد الغور وأرض فلسطين ، والقدس والكرك والشوبك وصرخد . واعطى الملك الأشرف موسى البلاد الشرقية وهى الرها وتوابعها ، وحران وغيرها . كما اعطى الملك الأوحد نجم الدين أيوب خلاط ومبافارقين ومدن تلك النواحى .

وعندما تم بناء قلعة الجبل ، سكنها الملك الكامل وترك دار الوزارة بالقاهرة فكان اول من سكنها من ملوك مصر ، ولكى يامن انقلاب بقايا الخلافة الفاطمية عليه نقل الى هذه القلعة أولاد الخليفة العاضد الفاطمى

---

(١) راجع تفاصيل هذه الخلع فى المقريزى : (السلوك جـ ١ ص ٢٠١) والاحتفال الذى اقيم بخصوصها .

وأقاربه فى بيت منفصل (تحديد اقامة) فاقاموا فى هذا البيت الى أن تحولوا عنه سنة ٦٧١هـ/١٢٧٢م .

الدعوة الى حملة صليبية جديدة ضد مصر سنة ١٢١٥م :

نظرا لما أصاب حملة الأطفال من ضياع ، ونظرا لتحول الحملة الصليبية الرابعة الى عاصمة الدولة البيزنطية وعدم استرداد بيت المقدس من أيدى المسلمين وانزال ضربة قاصمة بهم ، قرر البابا انوسنت الثالث أن يعقد مجمعا دينيا كبيرا سنة ١٢١٥م للنظر فى ادماج كنيسة بيزنطة فى كنيسة روما ، وتوجيه حملة صليبية الى الشرق الاسلامى ، خصوصا بعدما وصلته مكاتبة يوحنا دى برين فى هذا الخصوص . وعقد المجمع الكنسى فعلا فى لاتران سنة ١٢١٥م وطلب بطريق بيت المقدس المساعدة وتحدث البابا انوسنت عن أحوال بيت المقدس ، وأعلن أساتذة جامعة باريس ان كل من وعد بالاشتراك فى الحملة الصليبية المقبلة ، ثم حاول أن يتجنب الوفاء بوعده ، يعتبر مرتكبا لجريمة عقوبتها الاعدام(١) ، وأشاعت الكنيسة بعض ما يراه البابا من أحلام عن الصليب ... لكى يدفع الناس للانضمام للحملة ، ووصلت به الأحلام أن كتب الى الملك العادل يحذره مما سيحل به من الغضب ، ويحثه على تسليم بيت المقدس له فى هدوء .

ويبدو أن جيرفاس رئيس دير بريمونتريه أحس بأن احلام البابا من وحى الخيال فكتب اليه فى السر وأخبره بأن نبلاء فرنسا أخذوا يتجاهلون آراء أساتذة جامعة باريس ، وقدم اليه نصيحة خالصة بعدم اشتراك الفرنسيين والألمان معا فى حملة واحدة لعدم انسجام الأمتين ، كما أشار الى الأعداد الهائلة من الفقراء المعدمين قد تجمعوا فى حماس شديد لحمل شارة الصليب وينبغى ألا تثبط همتهم بتأجيل مسير الحملة(٢) .

---

(١) رنسيمان : جـ ٣ ، ص ٢٥٨ .

(٢) Luchaire; Innocent III et la question d'Orient, pp. 281-289

توفى البابا انوسنت الثالث فى ١٦ يولية سنة ١٢١٦م (٦١٣هـ) ولم يحقق حلم حياته فى استرداد بيت المقدس ، وتم انتخاب الكاردينال سافيللى ليصبح البابا هونوريوس الثالث . ولم تمض بضع أيام حتى كتب هذا البابا الى الملك يوحنا بريين فى عكا يخبره بان الحملة الصليبية على وشك القدوم اليه ، كما كتب الى ملوك أوربا لاشتراكهم فى الحملة ، ولكن الاستجابة كانت غير مرضية ، وبذلك لم تتحرك الحملة سنة ١٢١٦م وتأجل مسيرها .

على ان معوقات أخرى لمسير الحملة ظهرت فى الأفق ، وكانت هذه المرة من فلسطين ، اذ أرسل جيمس فيترى أسقف عكا الذى وصل اليها منذ وقت قريب تقريرا شديد المرارة عن أحوال الصليبيين أوضح فيه ان المسيحيين الوطنيين يكرهون اللاتين ويؤثرون حكم المسلمين ، بينما انصاع اللاتين أنفسهم الى حياة الخمول والبذخ والأخلاق البذيئة ، وغلب عليهم الصفة الشرقية ، وفسد رجال الدين اللاتين ، ونزعوا الى الجشع والتآمر ، كما ان الحسد المتبادل بين المدن الايطالية الكبرى أمثال البندقية وجنوه وبيزا فى الجوانب التجارية جعلهم عاجزين دائما عن التعاون معا ، ثم يقرر جيمس فيترى حقيقة واضحة وهى عدم رغبة الفرنج فى الشرق الأدنى الى قدوم حملة صليبية جديدة نظرا لما نعموا به من السلام مدة عشرين سنة تقريبا مما زاد فى رخائهم المادى ، خصوصا وان المسلمين لم يلجأوا للاعتداء عليهم (على الصليبيين) منذ وفاة صلاح الدين نظرا لازدياد النشاط التجارى وما جنوه من الارباح ، ثم أشار الى ظاهرة البذخ عند الفرنج فى القصر الذى شيده يوحنا ابلين فى بيروت ، وان الجاليات الايطالية أحست بالرضا والسعادة فى حياتها فآثرت الاستقرار بمصر(١) .

ومع ذلك وصل عدد من ملوك أوربا مع عساكرهم فى سنة ١٢١٧م الى عكا منهم ليوبولد السادس دوق النمسا ، واندريه الثانى ملك هنغاريا ،

---

(١) رنسيمان : نفسه ، ص ٢٦١-٢٦٢ وقد اعتمد على
James of Vitry; History of Jerusalem pp. 56-91. (Stewart نقلا عن)

وهيو ملك قبرص بالاضافة الى أعداد كثيرة من الألمــان وشعب هنغاريا (المجـر)(١) ٠

اتفق الصليبيون على مهاجمة قلعة الطور التى بناها الملك العــادل قريبا من عكا ، والتى كانت بمثابة الخط الاول لمواجهــة الصليبيين عنــد تحركهم ٠ ووصلت الاخبار الى الملك العادل ، فخرج من مصر بالعساكر المصرية ، وسار الى نابلس ليقطع الطريق على الصليبيين عند عين جالوت ، ولكن الصليبيين كانوا يراقبون تحركاته ، فبرزوا من عكا فى جموع حاشدة لم ير مثلها فى الحملة الصليبية الثالثة ووصلوا سريعا الى عين جالوت ، فعاد الملك العادل بجيشه الى بيسان ولكنه انسحب منها حينما تقدمت الحملة الصليبية بجحافلها نحوه(٢) ، وارسل الملك العادل ابنه الملك المعظم عيسى - صاحب دمشق - للدفاع عن بيت المقدس ، بينما انتظر بعساكره فى عجلون ، واتم استعداده لمنع أى هجوم على دمشق ، ويبدو ان انسحاب الملك العادل كان مرجعه الى قلة عدد جنوده ، وخوفه من الكثرة التى كانت لجيش الصليبيين ، واحترازه لعدم المواجهة والهجوم خشية أن يهزم جيشه فلا تقوم للاسلام قائمة ٠ على أن بعض المؤرخين(٣) أشاروا الى ان خوف العادل لم يكن له ما يبرره ، نظرا لان الجيوش الصليبية على الرغم من كثرتها ومظهرها المرعب ، كانت تفتقر الى النظام ، وكانت القيادات مختلفة مع بعضها مما أدى بعساكرهم بعد أن نهبوا بيسان وعاثوا فيها فسادا وخرابا أن يسيروا على غير هدى ودون هدف ، فعبروا نهر الاردن ، وساروا على الضفة الشرقية لبحر الجليل ، ثم تجاوزوه الى الكنيسة راجعين الى عكا ، وكان جل اهتمامهم هو الحصول على المخلفات الدينية ٠ لدرجة ان الملك

---

(١) راجع ابن واصل : مرجع سابق ص ٢٥٤ ، وابن الاثير : مرجع سابق ، ص ٣٢٠ ، وعاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ٩٥٧ ٠

(٢) راجع ما ارتكبه الصليبيون من حماقات مع أهل بيسان (عند ابن واصل : مرجع سابق ص ٢٥٥ ، والمقريزى : نفسه ، ص ١٨٧ ، وابن الاثير : نفسه ، ص ٣٢١) ٠

(٣) رنسيمان : ج ٣ ص ٢٦٣ وما بعدها ٠

اندريه الثانى الهنغارى استبد به الفزع عندما حصل على اباريق للماء مما تستخدم فى حفلات الزواج بكفر كانة فى الجليل(١) .

والحقيقة ، وعلى الرغم من افتقار الجيش الصليبى الى النظام ، ان الصليبيين أنزلوا ضربات موجعة بالمسلمين فالمراجع العربية(٢) تشير الى ذلك بوضوح « وقد انكوا فى المسلمين أعظم نكاية ، وامتلأت أيديهم بالأسرى ، والسبى والغنائم ، وأتلفوا بالقتل والتحريق ما يجاوز الوصف » . ومع ذلك فبعض المؤرخين المسلمين يرون فى احجام الملك العادل عن الدخول فى معارك مع الصليبيين كان للحفاظ على الدولة الاسلامية ، وعدم المخاطرة فى الوقت الذى تفرق فيه العسكر الاسلامى ، ولذلك وصفوا العادل بالحزم والتبصر فى العواقب »(٣) ولذلك فان العسكريين فى عصرنا هذا يعترفون بان الانسحاب المنظم والحفاظ على جسم القوة الرئيسية الضاربة فى الجيش ، والاحتفاظ بالاسلحة والمعدات فى اى معركة أمام العدو تكون مساوية لنصر كبير(٤) .

دفع نجاح الصليبيين فى غارتهم على بيسان الى الهجوم على قلعة الطور التى سبق أن اشرنا اليها ، فضربوا عليها الحصار وكادوا يتملكوها لولا انهم انسحبوا وتراجعوا عنها بسبب مقتل أحد قواد جيشهم(٥) . وادرك الملك العادل صعوبة الدفاع عن هذه القلعة ، وخشى أن يعود الصليبيون اليها

---

(١) Johannes Thivrocz; Chronica Hungarorum (Scriptores Rerum Hungaricarum, vol. I, p. 149 - in Runciman, p. 264).

(٢) راجع ابن الاثير : جـ ١٢ ص ٣٢١ ، وابن واصل : جـ ٣ ص ٢٥٥ ، والمقريزى : جـ ١ ص ١٨٧ .

(٣) ابن الاثير : جـ ١٢ ص ٣٢٢ ، وابن واصل : ج ٣ ص ٢٥٥ .

(٤) حدث هذا للجيش المصرى سنة ١٩٥٦ عندما انسحب بنظام من سيناء وعاد الى مصر وفوت على قوى التحالف الثلاثية (انجلترا وفرنسا واسرائيل) فرصة ابادة الجيش المصرى فى سيناء بعد عزله عندما يحتلون بورسعيد ومنطقة القنال ، ولكن للأسف فشلت مصر سنة ١٩٦٧ واختل انسحاب الجيش فأصيب بالهزيمة المروعة .

(٥) ابن الاثير : جـ ١٢ ص ٣٢٢ ، ورنسيمان : نفسه ص ٢٦٤ .

ويستفيدوا منها فى هجومهم ضد المسلمين ، فبعث ابنه الملك المعظم عيسى على رأس كتيبة من العساكر فهدم القلعة وسواها بالارض .

وربما كان السبب فى فشلهم فى تملك قلعة الطور على الرغم من قربها من عكا ، يرجع الى تفكك الجيوش الصليبية وانفراد كل جيش وقائده بالعمل كما يتراءى له ، والدليل على ذلك ان قوة من الجيش الهنغارى قامت بمهاجمة منطقة البقاع فى مستهل عام ١٢١٨م / أواخر ٦١٤هـ دون أن تحفل بنصيحة أهل عكا من الصليبيين ، وبدون موافقة الملك الصليبى ، وقد صادفت هذه القوة عاصفة ثلجية كادت تهلكها بأجمعها عندما كانت تعبر جبال لبنان(١) . وقد أعقب ذلك عودة الملك أندريه الثانى الى أوربا ، بينما توفى هيو ملك قبرص فى يناير ١٢١٨م ، تاركا ملكه الى ابنه هنرى وهو طفل لم يتجاوز عمره بضع شهور ، وأصبحت الوصية عليه أرملته (أليس) ملكة بيت المقدس .

---

(١) رنسيمان : نفسه ، ص ٢٦٥ .

الفصل التاسع

الحملة الصليبية الخامسة سنة ١٢١٨م

لا شك ان قادة الصليبيين كانوا يدركون ما لمصر من اهمية ومكانة فى العالم العربى المسلم ، فقد سبق لملك انجلترا ريتشارد قلب الأسد أن نصح بمهاجمة مصر والاستيلاء عليها حتى يمكنهم الاستيلاء على بيت المقدس وعلى بلاد الشام ، كما أشار مجمع لاتيران الى ذلك أيضا ، باعتبار مصر هى الهدف الاساسى للحملة . لانها المورد الاساسى لتغذية الجيوش الاسلامية بالبشر والمـال ، فاذا أمكن للصليبيين الاستيلاء عليها وطرد المسلمين من وادى النيل ، فان المسلمين لن يفقدوا بذلك اغنى اقليم لديهم فحسب ، بل انهم لن يستطيعوا ايضا المحافظة على اسطولهم فى شرق البحر الابيض المتوسط ، ولن يكون بوسعهم الابقـاء على بيت المقدس فى أيديهم زمنـا طويلا(١) ، وكانت خطتهم فى ذلك مهاجمة مزدوجة من عكا ومن السويس . ومن الطبيعى ان الصليبيين قـدروا فى حـالة استيلائهم على مصر مـدى ما تمدهم به من موارد اقتصادية يعتمدون عليها ، ويقلل من اعتمادهم على الغرب الاوربى ، ويجنبهم الخوف من بعـد المسافة فيما بينهم وبين الغرب الاوربى .

اكتمل وصـول السفن الصليبية الى عكا فى العاشر من مايو ١٢١٨م (٦١٥هـ) واستقر رأى قادة الصليبيين على مهاجمة مصر من ميناء دمياط فهى المفتاح المؤدى الى النيل(٢) فوصل اسطولهم الى مشارف مصب دمياط فى ٢٧ مايو ، ثم لحق به بقية الاسطول بعد يومين وتمكنت القوات الصليبية من النزول على الجانب الغربى للنيل ، وكانت دمياط على بعد حوالى ثلاث

---

(١) رنسيمان : نفسه ، ص ٢٦٧ .

(٢) Ernoul, op. cit., pp. 414-415. & James of Vitry; Epistolae (in Zeitschrift fur Kurchen geschichte, vol. XV, SS 568-57

كيلومترات على الجانب الشرقى ، وكان لابد للصليبيين لكى ينجحوا فى دخولها من الهجوم عليها من البر والبحر معا .

اغلق المسلمون مدخل فرع النيل عند التقائه بالبحر بواسطة المآصر(١) وهى جنزير من الحديد امتد من الجانب الشرقى الى برج ضخم مقام على جزيرة بالقرب من الجانب الغربى - كما حدث سنة ١١٦٩م - واقيم خلف المآصر جسر من السفن فجعل الصليبيون هدفهم الاساسى تحطيم البرج .

وصلت أخبار الحملة الى الملك العادل وكان قد أضحى شيخا متقدما فى العمر ، وكان يامل أن يمضى السنوات الاخيرة من حياته فى هدوء ، الا ان المتاعب كانت تلاحقه ، فالملك الظاهر غازى - أمير حلب - كان قد توفى سنة ١٢١٦م/٦١٣هـ ، وترك طفلا صغيرا اسمه العزيز تولى الوصاية عليه الطواشى طغرل ، وظهر الافضل شقيق الظاهر على مسرح الاحداث يطالب بان يرث ملك اخيه واستعان بالسلطان السلجوقى فى قونيه وهو (كيكارس)، وتصدى الأشرف موسى بن العادل للسلاجقة والافضل وهزمهم بالقرب من بزاغة .

ارسل الملك الكامل محمد معظم عساكر مصر الى دمياط فنزلوا عند العادلية(٢) ، كما ارسل العادل عساكر من الشام . وفى آخر يونيه هاجم الصليبيون برج السلسلة(٣) بعنف ، ولكنهم فشلوا . فاقترح أوليفر بادر يورن أقامة برج كبير على سفينتين(٤) يحكم ربطهما معا بالحبال ، وتمت تغطيته

---

(١) راجع شرح المآصر فى هذا الكتاب ص ٨٥ هـ ٢ .

(٢) العادلية : بليدة أسسها الملك العادل سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م عندما وصلته أخبار تدفق الصليبيين من الغرب الأوربى على عكا وتهديدهم دمياط ، فأقام هذه البليدة لتكون مركز دفاع أساسى عن دمياط .

(٣) أبو شامة : الذيل على الروضتين ، جـ ٢ ص ١٠٩ (ويسمى برج السلسلة الذى يعد قفل الديار المصرية) .

(٤) هكذا فى المراجع الأوربية (رنسيمان : جـ ٣ ص ٢٧١ ، وأوليفر : تاريخ دمياط ، ص ١٧٩-١٨٢) بينما ذكرت المراجع العربية ان الفرنجة بنوا برجا ضخما على (بطسة) وهى احدى السفن الكبيرة .

بالجلد ، وتزود بالسلالم ، وبذلك تعرض برج المسلمين للهجوم من البحر والبر معا ٠

عاود الصليبيون هجومهم بعد ظهر يوم ٢٤ اغسطس على برج السلسلة بضراوة وشراسة للاستيلاء عليه ، واستماتت الجنود المسلمون فى الدفاع عنه ، وحطموا معظم أبراج العدو ، واعملوا سيوفهم فى جنود الحامية التى ظلت تقاتل حتى آخر اللحظات ، حتى لم يبق منهم على قيد الحياة الا مائة مقاتل ، وعندئذ اضطروا الى التسليم ، فاستولى الصليبيون على ما كان فى البرج من مغانم ضخمة نقلوها الى معسكرهم فى الضفة الغربية ، ثم حطموا المآصر (الجنزير الحديدى) الذى يغلق المدخل الى فرع النيل ، فاصبح من السهل على سفنهم أن تجتاز النيل الى أسوار دمياط (١) ٠

كان لسقوط برج السلسلة وقع شديد على نفوس الجميع ٠ ويكفى أن نشير الى ما ذكرته المراجع العربية من أن الملك العادل عندما سمع ووصلته الاخبار وهو بالشام أصيب بصدمة شديدة لم يحتملها لكبر سنه فتوفى يوم ٣١ اغسطس(٢) وبذلك انتقل عبء الجهاد وتحمل مسئولية حكم الدولة الأيوبية الى ابنه الملك الكامل محمد ٠

أقام الملك الكامل جسرا كبيرا من التراب والاحجار فى مدخل النهر ليسد به الطريق أمام اسطول الفرنجة ، وذلك عوضا عن المآصر والبرج اللذان تم تحطيمهما ، ودار القتال فوق الجسر عنيفا ، ومتتابعا بكثرة ، حتى تمكن الصليبيون من قطع هذا الجسر وبطل مفعوله ٠ ولم يستسلم الملك الكامل ولم يتوقف عن صد الصليبيين ومنعهم من الدخول لكى لا يصلوا الى دمياط ،

---

(١) Oliver; Historia Damiatana, pp. 182-184.

(٢) كان معروفا عند الفرنج باسم Saphadin = سيف الدين وعندما توفى كان عمره حوالى ٧٥ سنة ، راجع رنسيمان : نفسه ص ٢٧٣ وابن الاثير : جـ ١٢ ص ٣٢٤ ، ٣٥٠-٣٥٢ ٠

فاخذ مجموعة من المراكب وحملهـا باحجار وأثقـال واغرقها فى مدخـل النيل(١) ، فمنعت سفن الصليبيين من العبور .

ولكن الصليبيين قصدوا خليجا قديما اطلق عليه ابن الأثير(٢) الأزرق وحفروه وعمقوا مياهه ، ودخلت مراكبهم الى مكان يقال له (البورة) ، ليقاتلوا الملك الكامل الذى كان متحصنا فى العادلية ، وبدأت المناوشات بين الجانبين ، كل ذلك ومدينة دمياط نفسها حصينة قوية ، تحيط بها الاسوار وتحميها ، وابوابها مفتوحة تصل اليها الامدادات والمؤن باستمرار ، وكان من الممكن أن تستمر طويلا فى الدفاع عن نفسها ، ولكن الشر نبت فى معسكر الكامل نفسه ، فقد حاول أحد قواده الكبار واسمه عماد الدين أحمد بن المشطوب مع بعض الامراء تدبير مؤامرة لعزل الملك الكامل وتولية أخيـه الاصغر الملك الفائز ليتحكموا هم فى البلاد ويصبح أمر الدولة فى أيديهم(٣) . فلما وصلت الأخبار الى الملك الكامل خشى على نفسه وعرشه وانسحب من العادلية فى جوف الليل بجيشه وعسكر عند مدينة اشموم طناح(٤) جنوب دمياط . وانتهز الصليبيون هذه الفرصة التى أتاحها لهم ابن المشطوب بخيانته وجريمته التى حاول القيام بها ، واسرعوا فى الوصول الى البر الشرقى من النيل (بر دمياط) دون أى مقاومة أثناء عبورهم فى أول فبراير سنة ١٢١٩م / ٦١٥هـ ، واحتلوا العادلية .

---

(١) لجأت مصر الى هذه الطريقة فى حرب سنة ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ اذ أغرقت قيادة الجيش بعضا من السفن الكبيرة التى كانت للسلاح البحرى المصرى عند نشاته وكنت قد صعدت الى احداها فى ميناء الاسكندرية سنة ١٩٤٨ وكان يطلق عليها (البعبعة) وهى حاملة للجنود والمعـدات من مخلفات الجيش البريطانى فى الحرب العالمية الثانية ، فأغرقتها فى مدخل قناة السويس من جهة بورسعيد حتى تمنع أساطيل الدول الثلاث المعتدية من الدخول الى مدن القنال واحتلالها ، وقد نجحت هذه الطريقة فعلا .

(٢) الكامل : جـ ١٢ ص ٣٢٤ .

(٣) ابن الاثير : نفسه ص ٣٢٥ .

(٤) كان موقعها على بحر يحمل نفس الاسم ، ويعرف الان بالبحر الصـغير .

ضرب الصليبيون الحصار على دمياط بعد أن نهبوا وسلبوا أهل الاطراف وكاد الملك الكامل يترك الديار المصرية للصدمة التى أصابته من ابن المشطوب فافقدته الثقة بكل قواده وامرائه ، ولكن القدر كان رحيما به اذ وصل اليه أخوه الملك المعظم عيسى بعد يومين ، فتقوى به ، وأخرج ابن المشطوب من مصر(١) ، وأمر بحبسه فى الكرك ، كما أخرج أخاه الملك الفائز الى سنجار(٢) وأخذ الكامل يعد نفسه للهجوم على مؤخرة الصليبيين وضرب معسكره فى فارسكور على بعد ستة أميال جنوبى دمياط ، ولكن موقف الجيشين الصليبى والمصرى كان حرجا لتربص كل منهما بالآخر ، وظلت دمياط تقاوم بما أوتى أهلها من شجاعة ، على الرغم من تناقص اعدادهم بسبب ما أصابهم من أمراض • ولم يجرؤ الصليبيون على دخولها • وأخذت المؤن بالمدينة تنقص وكادت تنفد ، وغلت الاسعار ، وانتشرت الامراض ، وكثرت الموتى ، وكان الملك الكامل على اتصال مستمر باهالى المدينة عن طريق العوامين ، وقد عرف منهم رجل اسمه (شمائل) لعب دورا خطيرا فى الاتصال باهالى المدينة المحاصرين وحمل اخبارهم •

وكان وصول الامدادات للصليبيين من الغرب وخصوصا من فرنسا ومن قبرص فى فبراير ١٢١٩م (ذو الحجة ٦١٥هـ) عاملا مساعدا لاستمرار حصارهم لدمياط ولمواصلة حربهم ضد الملك الكامل • بينما كانت الظروف المحيطة بالملك الكامل سيئة للغاية ، أدت الى اضعاف المسلمين واحباط معنوياتهم ، فقد وصلته الاخبار بان التتار هاجموا الدولة الخوارزمية فى الشرق ، وبات خطرهم قريبا من بلاد الشام ، وكان مجبرا على التفكير فيما يدفع به هذا الخطر عن الجبهة الشرقية من ملكه • خصوصا بعد ان استولى المغول على بلاد ما وراء النهر ، ومعظم بلاد فارس سنة ١٢٢٠م (٦١٧هـ) وبدأوا يتوغلون نحو بغداد(٣) ، بالاضافة الى ذلك فقد اتصل الفرنج بنجاشى

(١) ابن الاثير : جـ ١٢ ص ٣٢٧ •
(٢) رنسيمان : جـ ٣ ص ٢٧٩ •
(٣) ابن الاثير : جـ ١٢ ص ٣٢٧ ، ٣٦٠ •

الحبشة المسيحى ليتعاون معهم فى غزو الحجاز وهدم الكعبة(١) .

ومن المصاعب التى صادفت الكامل كذلك انه بعد موت والده الملك العادل لجأ الأعراب على اختلاف قبائلهم ، ونهبوا البلاد المجاورة لدمياط ، وقطعوا الطريق ، وافسدوا وبالغوا فى الافساد ، فكانوا أشد على المسلمين من الفرنجة(٢) . فاذا أضفنا الى ذلك مؤامرة ابن المشطوب لوضح أمامنا موقف الكامل الحرج . ولذلك فكر فى عقد الصلح معهم ، وعرض عليهم اعادة البلاد التى فتحها صلاح الدين الايوبى بعد موقعة حطين باستثناء حصن الكرك(٣) فى مقابل الانسحاب من الديار المصرية . وقبل الملك حنا دى بريين باعتباره ملك المملكة الصليبية ، ولكن حدثت اختلافات كبيرة بينه وبين مندوب البابوية بلاجيوس وانقسم الصليبيون على انفسهم نظرا لما قام به الملك المعظم عيسى من تدمير لاسوار بيت المقدس واستحكاماتها حتى لا يستفيد بها الفرنجة ، ووقفت المجموعات الايطالية وامراؤها الى جانب بلاجيوس ورفضت الصلح الذى تقدم به الملك الكامل لانهم كانوا يطمعون أن تصبح دمياط مركزا لتجارتهم(٤) .

لم يجد الملك الكامل طريقا سوى الجهاد . واستمر الصليبيون فى الزحف على دمياط ، وشددوا الحصار عليها ، حتى عدمت الاقوات ، وامتلأت الطرق بالاموات ، ولم يبق فى المدينة من أهلها البالغ ٢٠ الف نسمة سوى ٣ آلاف رجل سقط نصفهم مرضى وانهكت قواهم .

أحس الفرنج بسوء احوال المدينة ، وشعروا بضعف المقاومة ، فاقتحم الصليبيون المدينة ، وعرضوا على أهلها التسليم واعطوهم الامان ، فاستسمت

---

(١) عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ٢ ص ٩٦٥ .

(٢) ابن الاثير : نفسه ، ص ٣٢٦ .

(٣) Setton; Hist. of Crus. vol. II, p. 409.

ومعنى ذلك ان الكامل يرد لهم بيت المقدس .

(٤) رنسيمان : جـ ٣ ص ٢٨٧ معتمدا على :

Rohricht; Studien zur Geschichte des funften Kreuzzuges, p. 46.

دمياط لهم يوم ١٠ مرضان سنة ٦١٦هـ / ديسمبر ١٢١٩م بعد حصار استمر ١٦ شهرا و ٢٢ يوما(١) . ومع ذلك غـدر الصليبيون بأهل دميـاط ولم يحفظوا تعهدهم فقتلوا وأسروا وسبوا الكثير ، حتى الاطفـال أخذوهم وارسلوا بهم لينصروهم وليكونوا فى خدمة الكنيسة . كما ارتكبوا الكثير من الفضائح مع البنات والنساء وحولوا مسجد المدينة الى كنيسة(٢) . ولم يلبث النزاع ان وقع بين قادة الصليبيين بسبب اختلاف رأيهم فى وضع دمياط فالملك يوحنا دى بريين كان يرى أن تصبح دمياط تابعة لملكة بيت المقدس ، بينما يرى بيلاجيوس ان تكون تابعة للكنيسة فى روما .

اقام الملك الكامل بعسـاكره فى موقع المنصـورة الحالية وشـيد بهـا مدينة(٣) ليكون قريبـا من الصليبيين ليصـدهم عن التـوغل فى الأراضى المصرية ، وبث الصليبيون سراياهم فى القـرى يقتلون ويأسرون ، فعظم الخطب ، واشتد البلاء ، وأرسل الملك الكامل مندوبين عنـه الى الممـالك الاسلامية فى الشرق يستصرخون الناس لانقاذ أرض مصر من أيدى الفرنج(٤) .

استرداد دمياط من الصليبيين :

اثار الفقهاء حمية المسلمين وحرضوهم على الجهاد ، ونشط الامراء فى حشد المجاهدين عندما وصلتهم الاخبار بأن الصليبيين جعلوا دمياط اقطاعا لامرائهم ، وانهم يريدون أخذ مصر وبقية الديار المصرية ، فاجتمع من المسلمين عالم ليس له حصر . كما توحدت رغبة اخوة الملك الكامل فى الشام والشرق على نجدته وانقاذ مصر من أيدى الصليبيين ، وأسرع بالقدوم الى مصر الملك الاشرف موسى صاحب ديار الجـزيرة وأرمينية وغـيرها ، واستبشر الكامل بقدوم أخيه بعساكره اليه ، ثم وصل بعد ذلك الملك المجاهد أسد الدين شيركوه

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ٦ ص ٢٣٨ وابن واصل : مفرج ، جـ ٤ ص ٣٣ .
(٢) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٢٠١ ، ورنسيمان : جـ ٣ ص ٢٩٣ .
(٣) ابن واصل : جـ ٤ ص ٣٣ .
(٤) ابن الاثير : جـ ١٢ ص ٣٢٧ .

(الثانى) صاحب حمص ، والملك الامجد بهرام شاه بن فرخشاه صاحب بعلبك فى عساكرهما(١) ثم تتابع مجىء العساكر تباعا ، ونزلوا بالمنصورة ٠

قويت عزيمة الكامل بهذه النجدات ، وأنزل قسما من عساكره حوالى الفى فارس ومعهم أعداد كثيرة جدا من الاعراب عند قرية (شارمساح) ليقطعوا الطريق على الصليبيين فلا يستطيعون الوصـــول الى دميـاط ، ولا يتمكنون من الزحف على المنصورة ، ولا يستطيعون التقدم الى القاهرة ٠ كما قطع الاسطول المصرى الطريق فى النيل على الاسطول الصليبى ودارت موقعة انتصر فيها المسلمون واستولوا على ثلاث قطــع (شـــوانى) من الصليبيين بمن فيها من الرجال وما فيها من سلاح وأموال ، ففرح المسلمون واستبشروا وقويت نفوسهم واستطالوا على عدوهم(٢) ٠

على الرغم من الامدادات البشرية والمادية التى كانت قــد وصـلت للصليبيين فى دمياط من قبل ، حيث وصلت أعداد سفنهم ٦٣٠ سفينة مختلفة الاحجام ، و ٥٠٠٠ فارس ، و ٤٠٠٠ رام ، واربعين الف راجل ، بالاضافة الى آلاف لا تعد من المتطوعين المسـيين (الحجاج)(٣) الا أن الله عز وجل قذف فى قلوبهم الرعب عندما رأوا الجيوش الاسلامية وقد تجمعت كلها فى المنصورة تحت قيادة الملك الكامل ومساعدة أخوته المعظم والاشرف ٠

ووقفت عوامل الطبيعة الى جانب المسلمين ، ففى يوم السبت ٢٤ يوليه سنة ١٢٢١م (٢ جمادى الاخرة سنة ٦١٨هـ) أضحى الجيش الصليبى يرابط على امتداد البحر الصغير(٤) فى مواجهة الجيوش الاسلامية ، وعبرت قوات المعظم والاشرف واتخذت مواقعها بين الصليبيين وبين دمياط ، فعزلوا

---

(١) ابن واصل : مفرج ، جـ ٤ ص ٩٣-٩٤ ٠
(٢) ابن واصل : مفرج ، جـ ٤ ص ٦٥ ، وابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ٦ ص ٢٤٠-٢٤١ ٠
(٣) رنسيمان : جـ ٣ ص ٢٩٧ ٠
(٤) هو بحر المحلة المتصل بفرع النيل وينتهى عند دمياط ٠

من بها من الصليبيين ، ولم تلبث المياه ان ارتفعت بشكل ظاهر فى النيل وفى البحر ، فامتلأت القناة الواقعة جنوبى شرمساح ، فدخلت سفن مصر اليها وقطعت على الاسطول الصليبى سبيل الانسحاب أو الهروب(١) .

أدرك الصليبيون مدى تفوق المسلمين عليهم ، وأصبحوا بين فكى كماشة الجيوش الاسلامية ، وفت من عضدهم نفاد التموينات من عندهم ، فلم يكن لديهم منها الا ما يكفى عشرين يوما ، ووقع الخلف بين قادتهم ، وصمم الالمان على خروج الاسطول وارتداده ، وبدأ تقهقرهم ليلة الخيمس ٢٦ اغسطس سنة ١٢٢١م / (رجب سنة ٦١٨هـ) ووقع الخلل فى صفوفهم ، وازدادت حالتهم سوءاً وكربا عندما أمر الملك الكامل بفتح القناطر المقامة على الشاطىء الايمن لفرع النيل ، فغمرت المياه أرض معسكر الصليبيين ، والاراضى التى يجب أن يمشوا فوقها اثناء الانسحاب ، فتحولت كلها الى سبخة طينية موحلة لا يقدر الانسان على اجتيازها مما مكن للجيوش الاسلامية اصطيادهم وهم على هذه الحالة وقتلوا منهم آلافا من الرجالة(٢) الذين كانوا يترنحون سكارى لانهم شربوا ما كان عندهم فى معسكرهم من نبيذ صعب عليهم تركه .

ومع ان الاسطول المصرى كان قد سد منافذ الهرب على الاسطول الصليبى الا أن سرعة جريان المياه وشدتها دفعت ببعض سفن الصليبيين ومن ضمنها السفينة التى كان على سطحها (بيلاجيوس) قائد الحملة ومندوب البابوية والمتصرف فى شئون الصليبيين ، وتمكن من الهرب وكان هروبه كارثة أخرى أصابت الصليبيين ، نظرا لما كانت تحمله السفينة من الامدادات الطبية اللازمة للجنود ، وقدرا كبيرا من تموين الجيش ، وعدم وجود القيادة مما أدى الى تخبط قيادات السفن الاخرى وساعد الاسطول المصرى

---

(١) رنسيمان : نفسه ص ٢٩٨ ، والمقريزى : جـ ١ ص ٢٠٣ ، وأبو الفداء : المختصر جـ ٣ ص ١٢٩ .

(٢) ابن واصل : جـ ٤ ص ٩٥-٩٦ .

على الاستيلاء على عدد منها(١) . « واتفق فى تلك الحال انه وصل الى الفرنج مركب عظيم يسمى مرمة وحوله عدة حراقات يحمونه ، والجميع مملوء من الميرة والسلاح ، وما يحتاجون اليه . فوقعت عليه شوانى المسلمين وقاتلوهم قتالا شديدا ، فظفر المسلمون بالمرمة وما معها من الحراقات فاخذوها» (٢) .

تحقق الصليبيون من ان الهزيمة لاحقة بهم لا محالة ، بعد ان ذلت نفوسهم نتيجة ما حدث لهم . فراسلوا الملك الكامل واخويه الملك الاشرف والملك المعظم يعرضون تسليم دمياط اليهم بدون اى شرط فى مقابل منحهم الأمان على أنفسهم . وبعد مشاورة تمت بين امراء المسلمين تم الاتفاق على اجابة الصليبيين لمطلبهم واشترط الكامل ان ياخذ بعضا من ملوكهم وامرائهم رهائن حتى يتم تسليم دمياط اليه حتى لا بخدعوه ، فطلب الصليبيون ابن الملك الكامل مقابل ملوكهم وبعض حاشيته فقبل الطرفان ، وتم الصلح فى ٧ رجب سنة ٦١٨هـ / ٢٩ أغسطس سنة ١٢٢١م(٣) وعقدت الهدنة لمدة ثمان سنوات .

وتم تسليم دمياط الى المسلمين فى ١٩ رجب / ٨ سبتمبر سنة ١٢٢١م ولما دخلها المسلمون وجدوا ان الصليبيين حصنوها تحصينا عظيما ، لأنهم كانوا يطمعون الاقامة المستمرة فيها ، وقد تولى امارتها شجاع الدين جلدك المظفرى التقوى(٤) ، الذى رفض ان يرد للصليبيين مجموعة من الصوارى العظام تذكروها بعد انسحابهم ، فاشتكى الصليبيون الى الملك الكامل فكتب اليه ان يرد هذه الصوارى عليهم ، فاصر جلدك على الامتناع وقال : « ان

---

(١) أورد المقريزى (جـ ١ ص ٢٠٣) اعدادهم وقال : ست شوانى ، وجلاسة ، وبطسة وكذلك ثلاث قطائع = (قطع) .

(٢) ابن واصل : جـ ٤ ص ٩٦ ، رنسيمان : جـ ٣ ص ٢٩٩ .

(٣) ابن الاثير : جـ ١٢ ص ٣٣٠ .

(٤) هو من مماليك الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب : أبو الفداء : المختصر ، جـ ٣ ص ١٣٠ .

الفرنج أخذوا منبر جامع دمياط وكسروه ، وأهدوا كل قطعة منه الى ملك من ملوكهم فيأمرهم السلطان الكامل أن يردوا الينا المنبر ، لنرد عليهم الصوارى »(٢) فلما كتب السلطان اليهم بذلك عجزوا وأعرضوا عن الكلام فى هذا الموضوع . وهكذا اعيدت دمياط الى المسلمين ، ونجح أبناء أيوب فى طردهم من الديار المصرية عندما اتفقوا وتوحدوا وتماسكوا فى الدفاع عن مصر ، ولم يفقد المسلمون أيًا من بلدان الشام التى كان الكامل قد أعد نفسه لاعادتها للصليبيين فى مقابل انسحابهم من مصر . وقد تبارى الشعراء فى تسجيل هذا النصر فى قصائدهم التى مدحوا بها الملك الكامل واخوته ومن ضمنها تلك الابيات التى اخترناها من قصيدة لشرف الدين بن عنين :

سلو صهوات الخيل يوم الوغى عنا

اذا جُهلت آياتنا والقنا اللدنا

غداة لقينا دون دمياط جحفلا

من الروم لا يحصى يقينا ولا ظنا

قد اتفقوا رأيا وعزما وهمة

ودينا وان كانو اقد اختلفوا لسنا

★★★

سقيناهم كاسا نفت عنهم الكرى

وكيف ينام الليل من عدم الأمنا

لقوا الموت من زرق الأسنة أحمرا

فالقوا بايديهم الينا فاحسنا

★★★

وقد عرفت أسيافنا ورقابهم

مواقعها فيها فان عاودوا عدنا

---

(١) ابن واصل : جـ ٤ ص ٩٩-١٠٠ .

منحناهم منـــا حيـــاة جـديدة
فعاشـوا باعنـــاق مقـلدة منــا
ولـو ملـكوا لم ياتلـــوا فى دمائنـــا
ولوغا ولكنـــا ملكنـــا فاسجحنـا

★★★

لاشك ان الحملة الصليبية فشلت فشلا ذريعا فى تحقيق الهـدف الذى جاءت من الغرب الاوربى لتحقيقه وهو احتلال مصر ، للبقاء باستمرار فى الاراضى الفلسطينية وامكان استعادة بيت المقدس من أيدى المسلمين بعـد أن استرده صلاح الدين الايوبى بالجهاد . ويكاد المؤرخون المعاصرون لهـذه الحملة يجمعون على ان أسباب فشلها يرجع الى قيادتها المضطربة وضعف شخصية الملك يوحنا دى بريين الذى تولى قيادة الحملة فى أول أمرها ، فلما تولى بيلاجيوس مندوب البابوية القيادة بعد رحيل دى بريين لم ينجح نظرا لانه كان متغطرسا ومجردا من الكياسة واللباقة مما جعله مكروها من عامـة الصليبيين وكان لهروبه باحدى سفن الاسطول اثناء موقعة دمياط اثر بالغ على جنود الحملة وكشف بنفسه عن أكبر الخطائه . بالاضافة الى ذلك انه رفض عرضا من الملك الكامل بان يتنازل لهم عن بيت المقدس وكل المدن التى فتحت بعد حطين فى مقابل خروجهم من مصر ، وكانت هذه فرصة ذهبية نادرة لم ولن تتكرر ولو انه اقتنصها لتغير تاريخ منطقة الشرق الادنى ، الا انه اندفع وراء غروره وأملا فى مساعدات الغرب المسيحى وطمعا فى أن يحتل مصر باكملها ويستعيد بيت المقدس ومدن الشام ، ولكن خابت ظنونه كلها أمام توحيد كلمة المسلمين بقيادة الكامل واخوته من بنى أيوب .

احوال البيت الأيوبى بعد الحملة الخامسة :

لم يلبث ملوك البيت الايوبى بعد رحيلهمالى اماراتهمان وقع الخلاف بينهم ، فالملك المعظم عيسى صاحب دمشق هاجم حماة لان صاحبها الملك الناصر كان قد التزم له بمال يحمله اليه عندما يؤول اليه حكم حماة ، ولكنه لم يفعل . وبعد قتال يسير تركها المعظم عيسى وهاجم سلمية واستولى عليها

وعين عليها نائبا من قبله ، ثم سار الى المعرة واستولى عليها وعين عليها نائبا كذلك . سار الملك الاشرف موسى الى مصر واقام عند اخيه الملك الكامل وانكر الاخوان على أخيهم المعظم عيسى ما قام به وارسل الكامل يطلب منه العودة الى امارته فى دمشق ، فتحملت النفوس من بعضها . عندئذ أرسل المعظم عيسى الى أخيه المظفر غازى صاحب خلاط يزين له العصيان على الاشرف .. فوافقه على ذلك .

وعندما عاد الاشرف موسى الى دمشق ابدى المعظم سرورا عظيما واكرمه اكراما زائدا ، واستماله الى جانبه ضد الملك الكامل ، والملك المجاهد صاحب حمص والناصر صاحب حماة(١) .

تمكنت الخلافات بين الاخوة من البيت الايوبى ، ولعبت بهم الظنون ، فارسل الملك الكامل أحد امرائه الى الامبراطور فردريك يشجعه على القدوم الى الشرق ، واعطاه وعدا بان يقدم له بعض البلدان الاسلامية على الساحل ، فلما علم المعظم عيسى بما فعله الكامل استعان بالسلطان جلال الدين الخوارزمى على أخيه ، ووعده ان يدخل فى طاعته ويجعل الخطبة له ، ويضرب السكة باسمه ، فبعث السلطان الخوارزمى له خلعة لبسها ، وطاف بها أحياء دمشق ، وقطع الخطبة للملك الكامل(٢) .

عندما علم الكامل بما فعله أخوه المعظم عيسى خرج من القاهرة بقواته سنة ٦٢٤هـ / ١٢٢٧م ، ونزل على بلبيس ، فكتب اليه المعظم يشككه فى جنوده ، ويوحى له بأن معظم الجنود ستنضم اليه ، وانه سوف يهلك نفسه اذا أصر على القدوم اليه ، وتدخلت الاقدار لتخفف حدة هذه الوحشة فتوفى المعظم عيسى صاحب دمشق فى آخر ذى القعدة ٦٢٤هـ / نوفمبر ١٢٢٧م. فارتاحت نفس الملك الكامل لذلك ، ولكنه جلس للعزاء ، ثم سير الخلعة

---

(١) المقريزى : جـ ١ ص ٢٢١ .
(٢) المقريزى : نفسه ، ص ٢٢٢ .

وسنجق السلطنة للملك الناصر داود بن الملك المعظم عيسى ، وكان عمره واحدا وعشرين عاما .

أرسل الملك الكامل الى ابن أخيه الملك الناصر يطلب منه أن يترك له حصن الشوبك فرفض ، فوقعت الوحشة بينهما . وعزم الكامل على المسير الى دمشق لأخذها من ابن أخيه متعللا فى ذلك بانه ظلم الناس ، وأخذ اموالهم ، وانغمس فى اللهو ، واعرض عن مصالح الدولة . فاعد نفسه للخروج وأناب عنه فى مصر ولده الملك الصالح نجم الدين أيوب .

وعندما علم الناصر داود بخروج الملك الكامل فى شعبان سنة ٦٢٥هـ / ١٢٢٧م التجا الى عمه الاشرف موسى ، ولكن لم يلبث ان تعاطف الاشرف موسى مع الملك الكامل واتفقا على اخذ دمشق منه ، واعطائه حران والرها والرقة ورأس عين من بلدان الاشرف الذى يأخذ دمشق . وأخذ العادل والاشرف يوزعان الممالك بين الملوك والامراء ، ومع ذلك وقف الامير عز الدين ايبك اكبر أمراء الناصر داود وتصدى لما أعلنه الاشرف ، ووافقه الناصر داود ودخلا دمشق للتحصن بها والدفاع عنها ، وحاصر الاشرف دمشق ، وفى غمار هذا الخلاف بين البيت الايوبى داهم الصليبيون البلاد بمجىء الحملة السادسة .

الحملة الصليبية السادسة :

انتهت الحملة الطيبية الخامسة بالفشل - كما راينا - وعاشت الامارات الصليبية فى الشام فى أعقابها فترة من القلق والاضطراب ، وأخذت البابوية وملوك الغرب الاوربى يفكرون فى ارسال حملة جديدة ترد لهم اعتبارهم ، وتمحوا روح اليأس وتزيل خيبة الامل التى أصيب بها الصليبيون فى الشام . ولكن كيف السبيل الى ذلك والغرب المسيحى يعانى فى تلك الفترة (النصف الاول من القرن الثالث عشر) من مشاكل داخلية تجسمت فى الخلاف بين البابوية والامبراطورية المقدسة ، التى كان على راسها الامبراطور الألماني فردريك

الثانى(١) ، الذى كان مدينا للبابوية فى اعتلائه عرش الامبراطورية وتخلصه من خصمه اتو الرابع فى عام ١٢١٤م (٦١١هـ) .

ويبدو عدم اهتمام فردريك بغضب البابوية انه بمجرد ان استقر نفوذه فى المانيا ضم اليه صقلية وجنوبى ايطاليا فهدد بذلك مصالح البابوية فى عقر دارها خصوصا عندما حاول أن يمد سلطانه الى شمال ايطاليا ، فخاف البابا على أملاك البابوية وزاد من خوفه ما اشتهر به فردريك من سلوك خاص وما انغمس فيه من مباذل شهوانية بجميع انواعها مما يعتبر صدمة عند المستويات المنحلة فى الشرق المسيحى . فالامبراطور فردريك لم يف بوعوده التى سبق أن قطعها على نفسه للبابا انوسنت الثالث سنة ١٢١٥م / ٦١٢هـ . من حيث قيامه بحملة صليبية على الشرق ، وعلى الرغم من انه جدد هذا الوعد عندما توج امبراطورا سنة ١٢٢٠م فى كنيسة القديس بطرس بروما فانه لم يفعل ، ثم ان نتائج الحملة الخامسة وما اصيبت به من فشل جعل البابوية توجه اليه النقد باعتباره احد الاسباب التى ادت الى هذه النتيجة لعدم خروجه فى حملة لمساعدة الصليبيين للاستيلاء على مصر .

ومما يشير الى سوء احوال الغرب الاوربى فى تلك الفترة أن يوحنا دى برين ملك مملكة بيت المقدس الصليبية توجه مباشرة الى روما سنة ١٢٢٢م / ٦١٩هـ ليعرض على البابا والامبراطور فردريك حقيقة احوال الصليبيين فى الشرق الاسلامى ويحثهما على ارسال حملة صليبية جديدة ، ويطلب ان كل ما تستولى عليه الحملة الجديدة من بلاد ومدن يعطى لمملكة بيت المقدس(٢) ووافق البابا على ما طلبه . كما أرسل فردريك بموافقته ، ثم واصل الملك يوحنا دى برين رحيله الى فرنسا لزيارة صديقه القديم الملك فيليب أوجست وفى أثناء تلك الفترة ظهرت فكرة زواج يولاندا (١٧ سنة) ابنة يوحنا دى برين والملكة الشرعية لمملكة بيت المقدس ، لان اباها يحكم بالوصاية فقط ،

---

(١) عن حياة فردريك راجع ما ذكره رنسيمان ، جـ ٣ ص ٣١٠-٣١٥
(٢) رنسيمان : جـ ٣ ص ٣٠٩

بالامبراطور فردريك الثانى (٣٥ سنة) الذى توفيت زوجته منذ أربعة شهور . وتم هذا الزواج سنة ١٢٢٥م ، وتعهد للمرة الثالثة بأنه سيخرج فى حملة صليبية الى الشرق بعد عامين ، ووضع ضمانا لذلك قدره مائة الف أوقية من الذهب فى خزينة البابوية بروما(١) ومع ذلك لم يفعل ، فادى ذلك الى وجود توتر بين الجانبين ترتب عليه اعاقة سير الحملة فى موعدها وتاجلت الى حين .

رحيل فردريك الثانى الى الشرق (١٢٢٨م) :

اخذ الصراع يطفو على سطح الاحداث بين فردريك وبين اللومبارديين ، لانهم لم يقبلوا بسيطرة الألمان عليهم فى شمال ايطاليا ، ولكى يحقق فردريك أهدافه اتجه لارضاء البابوية ، واظهر حماسا كبيرا للخروج فى حملة صليبية للشرق ، ولسوء حظه فان البابا انوسنت الثالث توفى فى مارس سنة ١٢٢٧م / ٦٢٥هـ واعتلى كرسى البابوية جريجورى التاسع ، الذى كان اشد صرامة وقسوة من ابن عمه انوسنت الثالث ، وكان يكره فردريك لاختلاف طباع كل منهما ، وصمم على خروج فردريك الى الشرق .

كان فردريك قد أرسل جموعا كثيرة من جنوده الى المدن الصليبية على ساحل الشام ، ثم خرج هو على راس اسطول كبير ، ومعه عدة آلاف من الفرسان المحاربين ، ولكن فردريك أصيب بالمرض فترك الاسطول وذهب للاستشفاء فى العيون المعدنية بمدينة (بوتشولى) ، وأمر الاسطول بالابحار الى عكا تحت قيادة هنرى الرابع دوق ليمبودج ، ولما علم البابا أصدر قرار الحرمان ضد فردريك فى نوفمبر سنة ١٢٢٧م ومع ذلك أبحر فى آخر يونيه ١٢٢٨م فوصل الى عكا فى أوائل نوفمبر ، وكان الملك الكامل يعسكر بجنوده على تل العجول بالقرب من غزة ، ويبدو أنه أحس بالندم لمجىء

---

(١) رنسيمان : جـ ٣ ص ٣١٥ ، عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ٢ ص ٩٩٤ .

فردريك بعد ان توفى المعظم عيسى ، لانه لم يكن راغبا فى التفريط فى بيت المقدس(١) ٠

ترددت الرسل بين فردريك وبين الملك الكامل(٢) الذى سبق ووعده بالقدس الشريف وبعض ما فى أيدى الأمراء المسلمين ، ومن الطبيعى أن يضغط فردريك على هذه الناحية النفسية عند الكامل ، فاخذ يردد له فى مكاتباته ان مصلحة المسلمين تقتضى ان يبذلوا كل شىء للصليبيين ، حتى لا يضطر هو الى المجىء ويذكره بانه سبق له أن بذل لنائبه اثناء حصار دمياط مدن الساحل كله ، واطلاق الحقوق والامتيازات بالاسكندرية ٠٠٠ ثم يختم كتابه بقوله : ونائبى هو أقل غلمانى ، فلا أقل من اعطائى ما كنتم بذلتموه له(٣)٠ والمدقق فى معنى هذا الكلام يجد ان فردريك لجأ الى التهديد الخفى ، فى تعبيره ان مصلحة المسلمين ٠٠٠ ، ثم يذكر الكامل باستعداده لتقديم القدس وغيره عند حصار دمياط الى قائد الحملة الخامسة ، وهو أقل القواد عند فردريك فلابد أن يكون ما يقدمه الكامل له أكثر مما كان عرضه من قبل ، باعتباره الامبراطور نفسه ، ومعنى ذلك ان فردريك لم يكن فى نيته مطلقا مساعدة الكامل فى نزاعه ضد اخوته ، وانما كان يعمل لمصلحة الغرب المسيحى أولا ، ولاصلاح موقفه مع البابوية على حساب المسلمين ثانيا ٠ ولكى يعزز فردريك موقفه ويلعب باعصاب الكامل ليخضعه لمطالبه قام بمظاهرة عسكرية فى نهاية نوفمبر سنة ١٢٢٨م ، سار فيها على رأس حشد كبير من جيشه فدخل يافا ، وامر بتجديد استحكاماتها(٤) ٠ بالاضافة الى انه اصلح استحكامات صيدا من قبل(٥) ٠

٩ وربما ساعد فى حرج الملك الكامل وضعف مركزه امام الامبراطور ما قام

---

(١) رنسيمان : نفسه ص ٣٢٨ ٠
(٢) ابن الاثير : جـ ١٢ ص ٤٨٢ ٠
(٣) المقريزى : جـ ١ ص ٢٦٦ ٠
(٤) رنسيمان : جـ ٣ ص ٣٢٩ ٠
(٥) المقريزى: نفسه ص ٢٦٦ ٠

به الملك الناصر داود ، الذى خرج بجيش من دمشق قاصدا نابلس ، ليقطع خطوط التموين على عمه الكامل ، نظرا لما بينهما من صراع ، وانتهز الصليبيون الفرصة فسلبوا ونهبوا واشاعوا الفساد فى هذه النواحى ، فاضطر الملك الكامل الى وقف ما بينه وبين فردريك من مفاوضات ومراسلات ، وقبل فردريك بتقديم تعويض عن الخسائر التى نجمت بسبب جنوده ، حتى يرضى الملك الكامل وتعود المفاوضات بينهما .

ومع ذلك فان الظروف المحيطة بفردريك كانت شديدة القسوة ، وليست فى صالحه ، فقد وصلته الاخبار بان البابا اصدر قرار الحرمان ضده فى أواخر سنة ١٢٢٨م للمرة الثانية . وسمح لرعايا الكنيسة فى أوربا ان تستولى على ممتلكاته ، واشاعت البابوية أن فردريك قد مات ، ومن ثم فقد أصبح للبابا جريجورى الحق فى الوصاية على الامبراطورية لحين تنصيب امبراطور آخر . فاضطربت بهذه الاخبار نفس فردريك وفكر فى العودة الى بلاده ، ولكن خشى تضعضع مركزه اذا لم يكن قد حقق للبابوية وللعالم المسيحى الغربى شيئا ، فاخذ يسعى جاهدا لاقناع الملك الكامل بتنفيذ ما وعده به من قبل واخذ يستعطفه ويلاحقه ، لدرجة انه اذل نفسه وابدى خضوعه للملك الكامل فى سبيل ان يأخذ بيت المقدس منه ليكون الهدية التى يقدمها للبابا ولشعبه عندما يعود ، فكتب الى الكامل يقول : « ... وانا مملوكك وعتيقك وليس لى عما تامر به خروج ، وانت تعلم انى أكبر ملوك البحر ، وقد علم البابا والملوك باهتمامى وطلوعى ، فان رجعت خائبا انكسرت حرمتى بينهم ، وهذا القدس فهو أصل اعتقادهم وضجرهم ، والمسلمون قد خربوه فليس له دخل طايل ، فان رأى السلطان ان ينعم على بقبضه والزيارة فيكون صدقة منه ، ويرفع راسى بذلك بين ملوك البحر »(١) .

---

(١) عاشور : الحركة ، جـ ٢ ص ١٠١٠ مستندا الى :
Sotton, op. cit., Vol. 2 p. 454.
راجع كذلك الصفدى : الواقى بالوفيات ، ذيل الباب الثانى والسبعون .

وقع الملك الكامل فى حيرة كبيرة وعلم انه وقع فى ورطة اكبر بوعوده لفردريك واخيرا وافق على تسليم القدس فقط بدون مدن الساحل ، بشرط أن يظل على حالته من الخراب ، ولا تجدد أسواره ، ولا يكون للفرنج شىء من ظاهره البتة ، وان تكون جميع القرى للمسلمين ، وعليها حاكم مسلم يكون مقره (البيرة) فى شمال القدس ، وان يكون الحرم الشريف بما حواه من الصخرة المقدسة والمسجد الاقتصى بأيدى المسلمين ، وشعار المسلمين فيه ظاهر ، ولا يدخلها الفرنج الا للزيارة فقط ، ويتولاه قوام من المسلمين(١) ، ويقيمون فيه شعار الاسلام من الاذان والصلاة ، وان تكون القرى فيما بين عكا ويافـا ، وبين اللد والقـدس بايدى الفرنج دون ما عداها من قـرى القدس »(٢) ولكى يبرر الكامل ما وقع فيه من تفريط فى مقدسات الاسلام وتهاونه فيما لا يملك من بلدان المسلمين اخذ يقول : « انا لم نسمح للفرنج الا بكنائس ودور خراب ، والمسجد على حاله ، وشعار الاسلام قائم ، ووالى المسلمين متحكم فى الأعمال والضياع » . وكان من الطبيعى أن يقبل فردريك بما أحرزه من نصر بدون حرب ، وان يحصل من الكامل على ما فشلت فيه ثلاث حملات صليبية تكلفت الكثير من الارواح والاموال وهى الحمـلات الثالثة والرابعة والخامسة . وبذلك تم توقيع الهدنة وبدأ تنفيذها يوم ٢٨ ربيع أول ٦٢٦هـ / فبراير ١٢٢٩م ، ومدتها عشر سنين ، وستة شهور . وقد برر الكامل هذا التهاون من جانبه انه ان لم يف للامبراطور بما وعده به فسوف يفتح عليه بابا للحرب مع الفرنج ، ويتسع عليه الخرق ، ولذلك لجأ الى أن يرضيهم بمدينة القدس خرابا ، ويهادنهم مدة ، ثم انه قادر على انتزاع ذلك منهم متى شاء(٣) .

---

(١) ابن واصل ، جـ ٤ ص ٢٤١ .
(٢) المقريزى : جـ ١ ص ٢٦٨ .
(٣) المقريزى : جـ ١ ص ٢٦٨ .

ويبدو ان فردريك احس بما فى قلوب المسلمين والمسيحيين الصادقين من سكان القدس من مرارة(١) بسبب استيلائه على بيت المقدس ، فاراد أن يخفف على الملك الكامل فقال للامير فخر الدين بن شيخ الشيوخ - الذى كان يتفاوض باسم الكامل - « انه يعتذر ولولا انه يخاف انكسار جاهه ما كلف السلطان شيئا من ذلك ، وانه ما له غرض فى القدس ولا غيره ، وانما قصد حفظ ناموسه عند الفرنج »(٢) .

دخل فردريك الى القدس فى ١٧ مارس ١٢٢٩م فى قلة بالغة من البارونات وعدد محدود من الالمان والايطاليين ، واستقبله عند الباب قاضى نابلس شمس الدين فسلمه مفاتيح المدينة ، وأخذ يتجول فى المزارات وشاهد قبة الصخرة والمسجد الاقصى وابدى شديد اعجابه بهما . وقد وقف على ما دونه صلاح الدين الايوبى من نقش بالفسيفساء على القبة من حيث انه طهر هذا المسجد من الملحدين(٣) فتبسم متسائلا : من يكون هؤلاء الملحدون ؟ ولكنه ادرك ما فى تساؤله من سخرية وربما احراج لمن معه من المسلمين فعقب بقوله : والان قد بعث الله لكم الخنازير . وهى اشارة لما يستعمله عامة المسلمين على اليهود والكفرة(٤) .

ثم تعاقبت الاحداث الخاصة بفردريك وموقف الصليبيين فى عكا منه لانه توج نفسه فى كنيسة القيامة بالقدس ، ولانه محروم بقرار البابا ، ولانه ليس له الصفة الشرعية فى ابرام اتفاق بدون رضاهم ، ومع ذلك عاد فردريك الى بلاده بعد أن حقق أسمى هدف فى حياته وهو الاستيلاء على القدس وعفت البابوية عنه واسقطت قرارات الحرمان السابقة سنة ١٢٣٠م / ٦٢٨هـ وتم

(١) راجع ما ذكره رنسيمان (جـ ٣ ص ٢٣٣ وما بعدها) فى هذا الصدد .

(٢) المقريزى : نفسه ص ٢٦٩ ، وابن واصل : جـ ٤ ص ٢٤٣ .

(٣) كان فردريك يجيد ست لغات من بينها اللغة العربية التى درس بها الفلسفة . ٩

(٤) رنسيمان : نفسه ، ص ٣٣٥ .

الصلح بينه وبين البابا فى سان جرمانو وبذلك توقف الصراع بين الجانبين مدة عشر سنوات ٠

الملك الكامل وتوحيد الدولة الأيوبية ١٢٢٩م :

اطمان الملك الكامل بعد اتمام الهدنة بينه وبين فردريك ، ولم يعبأ بما اصاب المسلمين من حزن وأوجاع نفسية ومعنوية ، فاتجه لما يحدث بين افراد البيت الايوبى ، وكان اخوه الملك الاشرف موسى محاصرا لمدينة دمشق التى للملك الناصر داود بن المعظم عيسى ، فلما وصل الكامل شدد عليها الحصار ، وعظم الخطب على اهلها ، وكان صاحبها الناصر داود لا يملك المال الكافى للانفاق على جنوده ، فاضطر الى بيع حلى نسائه وملابسهن ٠ ولما لم يجد ذلك نفعا ، خرج الى عمه الملك الكامل ، ووافق على تسليم دمشق له ، وقلعة الشوبك ، على أن يبقى فى يده الكرك والغور وبيسان ونابلس(١) ٠

فتحت دمشق أبوابها فى أول شعبان سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م ووضع الكامل نائبا من قبله عليها ، الى ان تسلم من أخيه الملك الاشرف موسى ما كان الاتفاق تم عليه بينهما وهو (حران ، والرها ، والرقة ، وسروج ، ورأس العين من بلاد الجزيرة) فسلم دمشق له فدخلها واقام بها وارتحل الملك الكامل الى ديار الجزيرة حيث دبر أمورها وقواعدها وأقام العسكر بها لحمايتها ثم عاد الى مصر(٢) ٠

وفى اواخر شهر رمضان ضم الملك الكامل مدينة حماة اليه ، لان صاحبها الملك المنصور محمد بن تقى الدين عمر كان قد توفى ، وأوصى بملكه لابنه الاكبر الملك المظفر الذى تزوج بالخاتون فاطمة ابنة الملك الكامل ٠ ولكن الابن الثانى وهو قلج أرسلان والملقب صلاح الدين استولى على حماة وعلى

---

(١) ابن الاثير : جـ ١٢ ص ٤٨٤ ، وابن تغرى بردى : جـ ٦ ص ٢٧٢ ٠
(٢) المقريزى : جـ ١ ص ٢٧٥ ٠

قلعتها . فأرسل الملك الكامل اليه أن يسلم البلد الى اخيه الاكبر كوصية والدهما ، فلما رفض ، خرج الكامل بجيشه فى ٣ رمضان وضرب عليها الحصار واستولى على المدينة وجعلها فى يد الملك المظفر(١) .

خمدت حدة الحروب بين الايوبيين والصليبيين فى الشام ، وحرص الايوبيون من جانبهم على عدم اثارتهم فى تلك الفترة (١٢٢٩ - ١٢٣٦) التى نحن بصددها ويرجع السبب فى ذلك الى تخوفهم من السلطان جلال الدين منكبرتى خوارزم شاه لان الخوارزمية لم يكتفوا بتهديد الخلافة العباسية فى بغداد ، بل دأبوا على محاكاة المغول فى تدمير البلاد التى يغزونها أو التى يمرون منها ، حتى ولو كانت هذه البلاد اسلامية .

ويبدو لى ان الملك الكامل حينما استبدل دمشق مع اخيه بمدن الشرق كان يهدف للتصدى للاغارات المتوالية على هذه المناطق من جانب السلطان جلال الدين خوارزم شاه ، خصوصا انه حاصر خلاط ستة شهور الى أن فتحها واستولى عليها فى ابريل ١٢٣٠م/٦٢٧هـ ، وقد اعتدى جنوده على الأهالى بوحشية وفظاظة(٢) ، ويقال ان زوجة الملك الاشرف موسى كانت من بين الاسرى(٣) . ثم تقدم جلال الدين بجنوده ليهاجم السلاجقة .

افزعت سلوكيات الخوارزمية الهمجية حكام المسلمين فى البلدان المجاورة ، فتناسوا ما بينهم من خصومات للقضاء على ذلك الخطر الداهم ، وأسرع الملك الاشرف المسير وتحالف مع عدو الايوبيين السابق علاء الدين كيقباد الاول سلطان سلاجقة الروم ضد الخوارزمية(٤) . وتجمعت عساكر الحليفين فى سيواس ومنها زحفوا على خلاط حيث دارت المعركة بين الفريقين بالقرب من ارزنجان فى اغسطس ١٢٣٠م/٦٢٧هـ . واصيب الخوارزميون

---

(١) ابن الاثير : نفسه ، ص ٤٨٦-٤٨٧ .
(٢) أبو الفداء : المختصر ، جـ ٣ ص ١٤٦ .
(٣) راجع ما ذكره أبو الفداء (المختصر ، جـ ٣ حوادث سنة ٦٢٨هـ) عما ارتكبه السلطان نفسه من جريمة نكراء مع هذه السيدة .
(٤) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ٦ ص ٢٧٣ .

بالهزيمة الساحقة ، حيث قتل منهم أعداد كثيرة ، وفر السلطان جلال الدين مهزوما الى تبريز(١) ٠

نتيجة لهذه الموقعة استعاد الملك الاشرف خلاط ، وبعد زمن قصير تم عقد الصلح مع السلطان الخوارزمى جلال الدين ، ولكنه لم يلبث أن قتل بواسطة الأكراد سنة ٦٢٨هـ/١٢٣١م(٢) ، وبذلك تمزقت الدولة الخوارزمية وتشتت شعبها فى كثير من بلاد الشرق الاسلامى ، يعرضون خدماتهم على حكام البلدان الاسلامية مقابل ما يدفعونه من أموال ٠

لم تصف الحياة للملك الكامل على الرغم من اتمام الهدنة مع الصليبيين ، فقد عاد الصراع مرة أخرى بين افراد البيت الايوبى ، وانتهز الصليبيون فرصة هذا الصراع وغاروا من وقت لآخر هنا وهناك على المدن الاسلامية ، كما صادفت الكامل بعض منغصات الحياة فقد وردت اليه الاخبار بوفاة ولده المسعود يوسف فى مكة ، وكان عمره ستا وعشرين سنة وهو آخر ملوك اليمن من بنى أيوب ، وكان أبوه الملك الكامل قد استدعاه من اليمن ليوليه دمشق بعد وفاة المعظم عيسى(٣) ، فلما توفى حزن الكامل عليه حزنا شديدا ٠

كما انتهز الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل فرصة غياب ابيه عن مصر ، وتواجده بالرقة لمواجهة السلطان الخوارزمى الذى امتلك خلاط ، وحاول نزع ابيه من ملك مصر والاستيلاء على الحكم ، وكان قد مهد لذلك بشراء الكثير من المماليك الاتراك من بيت المال ، واستدان من تجار مصر فاخذ الكثير من الاموال ، فبعثت اليه زوجته أم لملك العادل تشكو اليه من ولده الصالح أيوب وتخبره بما عزم عليه : « ومتى لم تتدارك البلاد ، والا

---

(١) المقريزى : جـ ١ ص ٢٧٧-٢٧٩ ٠
(٢) أبو الفداء : جـ ٣ ص ١٥١ ٠
(٣) الخزرجى : العقود ، جـ ١ ص ٣٠-٤٤ ، والقلقشندى : صبح ، جـ ٥ ص ٣٠ ٠

غلب عليها ، واخرجنى انا وابنك الملك العادل منها »(١) فانزعج الملك الكامل لهذه الاخبار ، وزاد انزعاجه وغضبه عندما وصلته الاخبار بأن ابنه الصالح أيوب هذا اشترى الف مملوك ، فرحل مسرعا الى مصر وغضب على ولده وتغير منه وقبض على مجموعة من اصحابه وسجنهم ، والزمهم بدفع الاموال التى فرط فيها وخلعه من ولاية العهد .

واستغل الصليبيون هذه الظروف التى تحيط بالملك الكامل فأغاروا على حماة ، فخرج اليهم صاحبها الملك المظفر محمود بن المنصور والتقى بهم عند قرية يقال لها افنون(٢) وانزل بهم هزيمة واسعة ، ودخل المظفر حماة منتصرا فى رمضان سنة ٦٢٨هـ/١٢٣٠م (يوليه) . كما اغـار الصليبيون من قبل على بارين ونهبوا ما بها وسلبوا واسروا وسبوا ، وكانت بارين للناصر قلج ارسلان بن اخى الملك الكامل .

لم يكن خطر الخوارزمية هو الذى اقلق الملك الكامل وملوك الايوبيين ، وانما كان هناك خطر أشد تمثل فى جحافل المغول حيث بدا زحفهم سنة ٦٢٨هـ/١٢٣٠م وتمكنوا من الاستيلاء على ارمينية وخلاط وكل مدن السلطان جلال الدين الخوارزمى ، وبذلك اصبح الطريق ممهدا امامهم لغزو العراق والاستيلاء على ملك الايوبيين فى الجزيرة وعلى ملك سلاجقة الروم فى آسيا الصـغرى .

كان الموقف العسـكرى يحـتم على الملك الكامل وملوك الايوبيين ان يتحالفوا مع سلاجقة الروم ليقفوا جميعا ضد الخطر المغولى - كما تحالفوا من قبل ضـد السلطان الخوارزمى - ولكن سلطان السلاجقة عـلاء الدين كيقباذ(٣) استغل مقتل جلال الدين الخوارزمى لينتزع مدن خلاط والرها وحران(٤) من أيدى الايوبيين . وعندما أدرك الملك الكامل حقيقة نوايا

---

(١) المقريزى : جـ ١ ص ٢٧٧ .
(٢) هكذا وقد ذكرها ابو الفداء (جـ ٣ ص ١٤٧) افيون .
(٣) حكم من ٦١٦-٦٣٤هـ/١٢١٩-١٢٣٧م .
(٤) أبو الفداء : جـ ٣ ص ١٥٧ .

كيقباذ سلطان سلاجقة الروم ، جمع عليه ملوك الايوبيين فى الشام وعساكرهم وخرج فى رمضان سنة ٦٣١هـ/١٢٣٤م لمنازلة السلاجقة فى الاناضول ، فلما وصلوا الى (خرتبرت)(١) دخلوا فى القتـال مع السلاجقة الذين انزلوا الهزيمة بهم ، وحاصرهم كيقباذ ، وكان الملك الكامل بالسويدا ، وقد أحس من ملوك الايوبيين بالتقاعس وعدم الرغبة فى مواصلة القتال ضد السلاجقة ، لانهم فيما يبدو خافوا عاقبة ازدياد نفوذ الكامل وخشوا ان هو نجح فى السيطرة على سلاجقة الروم أن يصبح من السهل عليه أن يقضى عليهم جميعا أو يستبد بهم ، ولذلك تآمروا عليه وانضموا الى عدوه السلطان كيقباذ وكتبوا اليه فى السر يعلنونه بانضمامهم اليه ضد أخيهم الملك الكامل . ولذلك اضطر الكامل الى الرجوع الى القاهرة فى السنة التالية ، كما عاد ملوك الايوبيين كل الى بلده(٢) .

نتيجة لذلك استحكمت الوحشة بين الاخوين الكامل والاشرف فى أواخر سنة ٦٣٤هـ ومستهل ٦٣٥هـ / ١٢٣٧م ، حيث أصيب الاشرف موسى بمرض الدوسنطاريا وضعفت صحته جدا ، فعهد الى أخيه الصالح اسماعيل بن العادل - صاحب بصرى - ولكن لم ينته شهر المحرم من هذه السنة الا وتوفى الاشرف موسى عن عمر يقارب الستين عاما ، وكانت مدة حكمه لدمشق ثمان سنوات وعدة شهور(٣) .

نتج عن وفاة الاشرف موسى ان أصبح أخوه الصالح اسماعيل حاكما على دمشق وأراد ان تستمر حلقة التآمر على اخيهم الاكبر الملك الكامل ، ولكن الملك المظفر صاحب حماة خرج من هذه الحلقة وأخبر الكامل وانضم اليه ، وبذلك قويت جبهته .

---

(١) اسم ارمنى يطلق على حصن زياد ، من بلاد الروم ، فى اقصى ديار بكر - ياقوت : المعجم جـ ٢ ص ٤١٩ .

(٢) أبو الفداء : جـ ٣ ص ١٥٥-١٥٩ .

(٣) أبو الفداء : نفسه ص ١٦٠ .

استيلاء الكامل على دمشق ووفاته :

سار الكامل الى دمشق ومعه الناصر داود صاحب الكرك وعساكرهما ، واستعد الصالح اسماعيل للحصار ، ووصلت اليه نجدات من حلب وحمص وامر الصالح اسماعيل بحرق أسواق ومحلات العقيبة ، وضرب الكامل بعساكره الحصار على دمشق فى شدة برد الشتاء (جمادى الاولى سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٨م) ولما وجد الصالح اسماعيل انه لا قدرة له على مواجهة الكامل سلم اليه دمشق(١) وعوضه الكامل عنها بعلبك والبقاع وبصرى . واراد الكامل ان يؤدب اسد الدين شيركوه (الثانى) صاحب حمص لانه كان متزعما حلقة التآمر ، فامر عساكره بالمسير الى حمص ، كما كتب الى المظفر صاحب حماة ن يخرج بعساكره الى حمص ، فلما وصلت العساكر الى الرستن خاف اسد الدين شيركوه (الثانى) على نفسه وملكه فارسل نساءه يتشفعن له عند الكامل فلم يلتفت اليهن(٢) .

ولكن الحياة لم تمهل الكامل اذ اصابه المرض وتوفى يوم ٢١ رجب / ٩ مارس ١٢٣٨م وكان عمره حوالى الستين عاما ، حكم مصر خلالها ٢٠ عاما نائبا عن أبيه الملك العادل و ٢٠ عاما سلطانا على مصر(٣) .

يعتبر الملك الكامل اعظم شخصية فى أسرة بنى أيوب بعد صلاح الدين فالى جانب صفاته الخلقية وحبه للعلم والعلماء ... الخ فانه تميز بكراهية للحروب وميله الى المفاوضات لحل المنازعات ، وكان يتجنب العقبات التى تؤدى الى تعثر هذه المفاوضات ومع ان جمعا من المؤرخين وملوك الايوبيين انكروا عليه ما عقده من اتفاق مع الامبراطور فردريك الثانى ، الا اننا نجد هؤلاء الملوك انفسهم عقدوا مثل هذه الاتفاقيات مع الخوارزمية ثم مع سلاجقة الروم . على ان قلة من المؤرخين ترى ان شخصية الكامل بشخصية

---

(١) المقريزى : جـ ١ ص ٢٩٨ .
(٢) ابو الفداء : جـ ٣ ص ١٦١ .
(٣) المقريزى : نفسه ، ص ٢٩٩ .

فردريك كانتا تتفقان فى كثير من الفهم والحكم على الاشياء ، ففد كانت تغلب عليهما شخصية الحاكم المثقف الادارى الذى يعنى باصلاح ونشر العلم وحرية الفكر وانشاء المدارس والمعاهد أكثر من عنايته بالحروب ، وكان كل منهما لا يلجأ الى الحرب الا مضطرا • وقد نتج عن ذلك وجود حالة من السلم لم تكن معروفة من قبل فى الحروب الصليبية ، حيث كان يسود فى ذلك العصر روح التعصب الدينى والتذمت ••• وعلى ذلك يمكن تقبل القول بأن شخصيتهما وثقافتهما وعقليتهما كانتا تسبقان العصر الذى عاشا فيه • وكما يقول Kantrowitz مؤرخ فردريك الثانى كان الملك الكامل صورة شرقية من الامبراطور ان لم يكن أقرب الى الصحة أن نقول ان الامبراطور كان صورة قريبة من السلطان الملك الكامل(١) • ومع قبولنا لهذا الرأى الا أننا نقصره على الجانب العسكرى والسياسى ، لان هناك اختلافا كبيرا بين الرجلين فى سلوكهما ونشاتهما وحياتهما وهذا ثابت فى المراجع التاريخية •

ولم يكن جنوح الملك الكامل الى الجانب السلمى ناتج عن ضعف أو عدم قدرة فى الجانب الحربى ، فقد أثبتت الاحداث التاريخية ان الكامل كان دائما يخرج من معاركه ضد الصليبيين منتصرا وظافرا ، وحدث ذلك كذلك بالنسبة للسلاجقة وملوك البيت الايوبى الذين تآمروا عليه •

---

(١) Gattschalk, H., Almalek El Kamel vorwort

الفصل العاشر

ضعف الدولة الأيوبية وسقوطها

تولى الملك العادل الثانى بن الكامل السلطنة باعتباره وليا للعهد ونائبا عن أبيه فى مصر ، اما أخوه الاكبر الصالح أيوب فقد كان نائبا على اقاليم الشرق وديار بكر . وقد راى الامراء الذين التفوا حول العادل الثانى لصغر سنه ، لانه لم يتجاوز الثانية عشر من عمره ، أن يكون ابن عمه الملك الجواد يونس نائبا عنه فى دمشق . وقد ترتب على هذا الوضع شرخ فى كيان البيت الايوبى ، نظرا للصراعات التى ظهرت على مسرح الاحداث ، والتى بدات فى عهد الملك الكامل . فالملك الناصر صلاح الدين يوسف – صاحب حلب – لم يعترف بسلطان العادل الثانى ، ولم يقبل الصالح أيوب بهذا الوضع فتحرك بعساكره الى دمشق ودخلها فى جمادى الاخرة سنة ٦٣٦هـ / ١٢٣٩م فخرج اليه الملك الجواد يونس واتفق معه على مقايضة دمشق بسنجار وعانه(١) لان الجواد يونس لم يكن قادرا على ادارة شئون الشام ، كما انه كان يخاف من الملك العادل الثانى أن ياخذ دمشق منه(٢) . ثم ان الملك الصالح أيوب كان يرنو الى الاستيلاء على مصر واخراج أخيه العادل الثانى منها . وطلب من عمه الملك الصالح اسماعيل صاحب بعلبك أن يؤيده فى ذلك .

توجه الملك الصالح ايوب الى نابلس واستولى عليها ، كما استولى على الكرك ، فذهب صاحبها الملك الناصر داود الى مصر ودخل فى طاعة وخدمة العادل الثانى ، وكان الناصر داود يطمع هو الاخر فى الاستيلاء على مصر ، والقضاء على العادل الثانى الذى أكرمه واحسن استقباله – وكان الصالح

---

(١) تقع بين الرقة وهيت ، وهى من أعمال الجزيرة ، وتطل على الفرات ، راجع ابن تغرى بردى : النجوم : جـ ٦ ص ٣٠٥ .

(٢) ابو الفداء : جـ ٣ ص ١٦٣ .

اسماعيل يطمع هو الاخر فى الاستيلاء على دمشق من يد الصالح أيوب ، ولذلك لم يستجب لما طلبه منه من تاييد ضد أخيه العادل الثانى . وقد تمكن الصالح اسماعيل من الاتفاق مع أسد الدين شيركوه (الثانى) صاحب حمص وسارا معا بعساكرهما ودخلوا دمشق فى أواخر صفر سنة ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م . وعندما وصلت هذه الاخبار للصالح أيوب فى نابلس اضطرب امراؤه وخافوا على عائلاتهم ، فانصرفوا اليهـا وتركوا الملك الصـالح أيوب فى قـلة من أتباعه(١) ، وسمع الملك الناصر داود وهو بالكرك بهذه الاخبار ، فنزل على نابلس وقبض على الملك الصالح أيوب وامر باعتقاله فى الكرك ، وبذلك تفرق اتباعه عنه. وقد حاول الملك العادل الثانى أن يأخذ أخاه الصالح أيوب ويدفع للناصر داود مائة الف دينار فلم يوافق ، وكاتبه بعـد ذلك بعض أمراء البيت الايوبى لكى يرسل الصالح أيوب الى مصر لانه كان يخشى منه على ملكه ، ولكن الناصر داود اصر على الرفض ، على ان الناصر داود افرج عن الصالح أيوب فى ١٧ رمضان ٦٣٧هـ / ١٢٤٠م فاجتمع عليه عساكره ومماليكه الذين كانوا عند الناصر داود .

استرداد بيت المقدس من الصليبيين :

حاول الخليفة العباسى أن يصلح بين أمراء البيت الايوبى ولكن باءت محاولته بالفشل . ولعبت الظروف المحيطة بالدولة الايوبية دورها اذ انتهت مدة الهدنة التى كان الملك الكامل قد عقدها مع الصليبيين فى تلك الفترة (١٢٣٩ – ١٢٤٠م) وقد افاد الصليبيون من صراع أمراء البيت الايوبى ، فاقاموا الاستحكامات فى بيت المقدس مخالفين بذلك نصوص المعاهدة التى وقعها فردريك الثانى ، كما طردوا المسلمين من القدس ، وقد انتهز الملك الناصر داود فرصة مخالفة الصليبيين لنصوص المعاهدة فاسرع بدخول بيت المقدس واستولى عليه بحجـة نقضهم لشروطها ، وخـرب القلعـة وبرج داود(٢) .

---

(١) أبو الفداء : جـ ٣ ص ١٦٥ .
(٢) أبو الفداء : نفس المرجع والصفحة ، ورنسيمان : جـ ٣ ص ٣٧٦ وما بعدها .

أحدث تملك المسلمين لبيت المقدس فى يناير ١٢٤٠م صدمة للصليبيين ، وبعد مناقشات فيما بينهم استقر رايهم على التوجه الى عسقلان لهدم تحصيناتها والاستيلاء عليها ، وبعدها يقصدون الى دمشق باعتبارها مركز التجمعات الاسلامية فى بلاد الشام(١) .

توجه الصالح أيوب والناصر داود الى بيت المقدس ليحلفا يمين الاخلاص والوفاء على اساس أن يكون الصالح أيوب سلطانا على مصر ، وان يحكم الناصر داود الشام واقليم الجزيرة . كان من نتيجة هذا التحالف ان توثقت علاقات العادل الثانى مع الصالح اسماعيل امير دمشق ، واستعدا معاً لمنازلة خصومهما ، وخشى الصالح أيوب والناصر داود من هذا التقارب ، فلجأ كل منهما الى الكرك حتى لا تقع قواتهما فى يد قوات مصر ودمشق(٢) .

خرج الملك العادل الثانى بقواته وضرب معسكره فى بلبيس ، وانتهز امراؤه هذه الفرصة ليتخلصوا منه ، بسبب انه اساء السيرة فى امرائه وحاشيته ، وتقدم الجنود الأتراك واحاطوا بخيمته وقبضوا عليه فى ٩ شوال سنة ٦٣٧هـ / ٣ مايو ١٢٤٠م ، وارسلوا الى الصالح أيوب يدعونه للقدوم الى مصر ، فوصل ومعه الناصر داود وبعض الامراء الى بلبيس فى الرابع والعشرين من ذى القعدة ، ونزل فى خيمة الملك العادل الثانى(٣) . ولم يلبث ان دخل الصالح ايوب القاهرة وأخذت أموره فى الاستقرار وخاف الملك الناصر داود ان ينقلب الملك الصالح عليه فيعتقله ، فاستاذن وعاد الى امارته فى الكرك ، خاصة وان الصالح ايوب امر بحبس اخيه العادل بقلعة الجبل .

اعمال الملك الصالح ايوب فى مصر :

وجد الصالح ايوب انه فى مسيس الحاجة الى الاموال لتستقر امور

---

(١) Stevenson; The Crusaders in the East, p. 317.
وكذلك عاشور : الايوبيين والمماليك ، ص ١٢٧ .
(٢) المقريزى : جـ ١ ق ٢ ص ٢٩٤ .
(٣) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ٦ ص ٣١١ ، وبو الفداء : نفسه ، ص ١٦٦ .

دولته ، فلجأ الى مصادرة اموال الموظفين بعد أن اتهمهم بتبديد الاموال العامة ، لانهم التفوا حول الكامل واسرفوا فى صرف الاموال وتبذيرها فى امور لا تتعلق بمصلحة الدولة ، وبهذه الوسيلة جمع نحوا من ٧٥٠ الف دينار والفى الف وثلاثمائة الف درهم(١) ، ومع ذلك لم يفرج عنهم ، بل ظلوا فى الحبس .

قام الصالح ايوب بتطهير الجيش من العناصر التى يمكن أن تنقلب عليه فامر بالقبض على العناصر التى تمردت على العادل الثانى واعتقلته وعزلته لأن هذه العناصر من السهل عليها أن تعيد المحاولة مرة أخرى مع الصالح أيوب نفسه .

ثم ادخل طائفة من المماليك الاتراك الموالين له فى الجيش بدلا من الذين اعفاهم ومع ذلك كان شديد الحرص على نفسه ، وخشى البقاء فى القلعة ، فلجأ الى جزيرة الروضة وبنى بها قلعة خاصة له واقام بها بعد أن حصنها بسور يحيط بها وبقصره ، وقد تكلف بناء القصر والقلعة اموالا طائلة .

دفعت الكراهية الصالح اسماعيل - صاحب دمشق - ان يطلب المساعدة من الصليبيين ضد السلطان الجديد الصالح أيوب فى مصر ، والناصر داود فى الاردن وتعهد لهم باعادة بيت المقدس اليهم ، واعادة المملكة الصليبية كما كانت عليه من قبل ، ولكى يبرهن الصالح اسماعيل على حسن نيته للصليبيين أسرع بتسليم شقيف ارنون وصفد والقدس وطبريه وعسقلان لهم ، بالاضافة الى بعض الحصون فى الشام والتى كانت بايدى المسلمين(٢) .

واذن الصالح اسماعيل للصليبيين ان يدخلوا الى دمشق لشراء المؤن والاسلحة لجيوشهم ، فانكر المسلمون ذلك ، واعلن الفقهاء بان هذه التجارة

---

(١) اثبتنا هذا الرقم كما هو من المقريزى (نفسه ، ص ٢٩٨) بعد ان وجدناه شائعا فى كتب المؤرخين وان كان البعض منهم حوله الى الرقم الحسابى المعتاد فكتبه ٠٠٠ر٣٠٠ر٢ دينار ولكننا نجد المبالغة واضحة لان مثل هذا الرقم من الدراهم يصبح اقل كثيرا عند تحويله الى دنانير .

(٢) المقريزى : جـ ١ ص ٣٠٣ ، وابو الفداء : جـ ٣ ص ١٧٢ .

تخالف التشريع الاسلامى ، ونتيجة لذلك التجا بعض العلماء الى مصر اعلانا عن غضبهم ٠

وقد خرج الصالح اسماعيل بعساكره ومعــه الملك المنصور ابراهيم بعساكر حمص وحلب وغيرها ، وساروا الى البلقاء حيث قابلوا الناصر داود بعساكره ، فانزلوا الهزيمة به ، واستولوا على اسلحته ، وأسروا جماعة من اصحابه ٠ فقوى مركز الصالح اسماعيل بهذا النصر ، وأراد أن يهاجم مصر ، فرحل حتى نزل على تل العجول (بالقرب من غزة) ٠

قام الصليبيون بتحصين قلعتى طبرية وعسقلان ، ثم رابطوا بين يافا وعسقلان استعدادا للخطوة التالية ، وقد وعدهم الصالح اسماعيل بانه اذا تملك مصر أعطاهم جزءا منها ، ففرحوا واتجهوا صوب غزة عازمين على غزو مصر (١) وانضموا الى عساكر الملك الصالح اسماعيل وحلفائه ٠

عندما بلغت هذه الاخبار للملك الصــالح أيوب استعان بالخوارزمية الذين انضموا الى جيش مصر بقيــادة ركن الدين بيبرس مملوك الصـــالح أيوب ، والتقى الفريقان بظاهر غزة ، وفى بداية القتــال انضمت القــوات الشامية التابعة للصالح اسماعيل ، والمنصور ابراهيم الى قوات الصالح أيوب، لان الشاميين رفضوا فكرة طعن اخوانهم المصريين ودارت رحى الحرب على الصليبيين ومن معهم من الحلفاء وهزموا هزيمة منكرة ، وقتل منهم أعداد كثيرة ، وأرسلت اسراهم الى القاهرة ، وانسحب الصليبيون الى عسقلان وعقدوا الصلح مع الملك الصالح أيوب سلطان مصر (٢) (٦٣٨هـ / ١٢٤٠م) ٠

ترتب على موقعة غزة وانضمام عساكر دمشــق الى القــوات المصرية وازدياد كراهية أهل دمشق للصـــالح اسماعيل ، ان اعلن الصــالح اسماعيل الخطبة باسم سلطان سلاجقة الروم ، ثم أعادها فى العام التالى باسم سلطان

---

(١) ابن تغرى بردى : جـ ٦ ص ٣٢٢ ٠
(٢) المقريزى : جـ ١ ص ٣٠٥ ٠

مصر . وتم الاتفاق بين الصالح اسماعيل ، والصالح ايوب على انتزاع امارة الكرك من الناصر داود(١) وأن تضم الى سلطنة دمشق . وأن تكون خطبة الجمعة باسم سلطان مصر وان ينقش اسمه على السكة ، ومع ذلك أخل الصالح ايوب بشروط الوفاق فى اللحظات الاخيرة ، لانه حرض الخوارزمية على مهاجمة دمشق .

اغارت الخوارزمية على دمشق وكانت أعدادها تربوا على ١٠ الاف مقاتل واشاعوا الذعر والاضطراب والخراب والدمار فى الأماكن التى مروا بها حتى استولوا على طبرية ونابلس واتجهوا الى بيت المقدس ، وأدرك الصليبيون ما يحيط بهم من الخطر ، فسارعوا ومعهم الداوية والاسبتارية الى تعزيز حصونهم ولكن الخوارزمية اقتحمت هذه الاستحكامات ودخلت مدينة بيت المقدس يوم ١١ يوليه ١٢٤٤ / ٦٤٢هـ(٢) . وطلب الصليبيون النجدة من الملك الناصر داود صاحب الكرك ولكنه لم يفعل لهم شيئا سوى انه توسط لهم فى الخروج لمن يرغب منهم من بيت المقدس ، فخرج حوالى ٦٠٠٠ قاصدين يافا فى شهر اغسطس ، الا أن الخوارزمية انقضوا عليهم فى الطريق فأبادوهم ، ولم يدخل يافا منهم سوى ٣٠٠ شخص(٢) . وبذلك ضاع بيت المقدس نهائيا من أيدى المسيحيين الغربيين ، ولم بقدر لأى جيش صليبى فى عصر الحروب الصليبية ان يدخلها بعد ذلك أبدا حتى اندلعت الحرب العالمية الاولى(٤) (١٩١٤ — ١٩١٨) .

---

(١) ابن تغرى بردى : جـ ٦ ص ٣٢١ .
(٢) Cahen: La Syrie du Nord pp. 648-649.
(٣) ابن تغرى بردى : نفسه ، جـ ٦ ص ٣٢٣—٣٢٥ ،
(٤) رنسيمان : مرجع سابق جـ ٢ ص ٣٩٣ .

الصالح أيوب وتوحيد الدولة الأيوبية

بعد ان استعادت الخوارزمية بيت المقدس وبعض المدن الشامية من ايدى الصليبيين توجهوا الى غزة للانضمام الى القوات المصرية التى ارسلها الصالح أيوب باعتبار ما بينهما من تحالف . وفى هذه الاثناء اجتمعت جيوش الصليبيين وقوات دمشق وحمص والكرك قرب عكا ، واتجهوا نحو مصر لغزوها ، فوقعت معركة عنيفة بينهم وبين الجيش المصرى المكون من مماليك الصالح أيوب والخوارزمية فى شمال شرقى غزة (فى اكتوبر ١٢٤٤م / جمادى الاولى ٦٤٢هـ) وكان الصليبيون فى ميمنة جيوش العدو ، وعساكر الكرك فى الميسرة ، وعساكر حمص فى القلب ، وهجمت هذه الجيوش على الجيش المصرى والخوارزمية ، ودارت معركة شديدة العنف بين الجانبين قتل فيها من عساكر الشام والصليبيين ما يزيد عن ثلاثين الفا ، وأسر منهم نحو ثمانمائة رجل(١) .

ومع ان الجيش الصليبى فى هذه الموقعة يعتبر اضخم جيش مسيحى اجتمع فى ساحة قتال بعد موقعة حطين(٢) ، لدرجة ان المؤرخين اطلقوا عليها اسم (حطين الثانية)(٣) الا ان هذا الجيش قضى عليه خلال ساعات ، وقتل معظم قادته ، وأسر منهم مجموعة ، وهرب من استطاع الى ذلك سبيلا(٤) . وقد حصل الخوارزمية من الأموال والمغانم ما يجل وصفه ، وزينت القاهرة لهذا الانتصار العظيم .

كان الخوارزمية عقدوا الامال على الصالح ايوب بعد احرازهم هذا النصر مع القوات المصرية ، الا انه أدرك خطورتهم وخاف على نفسه ودولته

---

(١) المقريزى : جـ ١ ص ٣١٧ ، وابن كثير : البداية ، جـ ١٣ ص ١٦٥ ، Setton; vol. II, p. 489

(٢) راجع ما ورد عنها فى هذا الكتاب ، ص ١٢٤ وما بعدها .

(٣) Grousset; III, p. 415.

(٤) جوزيف : العدوان الصليبى ، ص ٥٠ ، رنسيمان : جـ ٣ ص ٣٩٥ .

منهم ، فلم يسمح لهم باجتياز الحدود للدخول الى القاهرة ، وتركهم يغيرون على المدن الصليبية حتى وصلوا الى قرب عكا ، بينما زحف الجيش المصرى على دمشق والكرك ، وقد استولى على القدس والخليل والأغوار من الناصر داود صاحب الكرك ، اما دمشق فقد استسلمت فى ٦٤٣هـ / اكتوبر ١٢٤٥م ، وأعطى الصالح اسماعيل بعلبك وبصرى عوضا عنها(١) .

تحركت نفوس الخوارزمية ضد الصالح ايوب ، فاتصلوا بالامير ركن الدين بيبرس الصالحى(٢) قائد جيش الصالح أيوب - ووعدوه أن يزوجوه منهم - واقنعوه بالانضمام اليهم فقبل ذلك(٣) . وانضم اليهم الملك الناصر داود - صاحب الكرك - وبذلك تكون حلف جديد ضد الصالح ايوب ، ونجحوا فى أخذ نابلس والقدس والخليل وبيت جبريل والأغوار(٤) ، ومعنى ذلك أن الصالح ايوب يفقد كل البلاد التى اخذها واستولى عليها فى الشام وخصوصا القدس ، ثم ان دمشق سوف تصبح موطن الخطر عليه اذا قدر لهذا التحالف ان ينجح . واخذ الصالح ايوب يضرب هؤلاء المتحالفين بعضهم ببعض ، فاتفق مع أهل حلب على محاربة الخوارزمية الذين كانوا يضربون الحصار الشديد على دمشق ، فانهكوا قواها لمدة ثلاثة شهور ، ثم استمال الصالح أيوب اليه الملك المنصور ابراهيم - صاحب حمص - فلما سمع الخوارزمية بذلك تركوا دمشق ورحلوا يريدون محاربة صاحب حمص ليضربوا هذا التحالف . ثم تمكن الصالح ايوب عن طريق الحيلة ان يستدعى اليه قائد جيشه السابق واكبر مماليكه ركن الدين بيبرس الصالحى ، فلما عاد الى مصر اعتقله ثم أمر بقتله(٥) . وقد هزمت الخوارزمية على يد المنصور ابراهيم هزيمة قضت عليهم ولم تقم لهم بعدها قائمة فى المحرم ٦٤٤هـ /

---

(١) المقريزى : جـ ١ ص ٣٢١ .
(٢) راجع المقريزى : جـ ١ ص ٣٢٣ .
(٣) ابن تغرى بردى : جـ ٦ ص ٣٢٥ .
(٤) المقريزى : جـ ١ ص ٣٢٢ .
(٥) فى المقريزى (جـ ١ ص ٣٢٣) فاعتقل بقلعة الجبل ، وكان آخر العهد به .

مايو ١٢٤٦م ، وقتل مقدمهم بركة خان(١)٠ وانضمت فلول المنهزمين من الخوارزمية وتحالفوا مع الصالح اسماعيل طريد دمشق ، ونزلوا على حلب ، فاكرم صاحبها الناصر يوسف بن العزيز الملك الصالح اسماعيل ، ولكنه قبض على الخوارزمية(٢) ٠ وعندما وصلت هذه الاخبار الى الصالح أيوب زينت القاهرة ومصر والقلعتان(٣) ٠

وتم الصلح بين الصالح أيوب ، والمنصور ابراهيم ، والناصر يوسف ، وأصبح الصالح اسماعيل وحيدا ليس له بلد ياوى اليه ولا اهل ولا ولد ولا مال يعيش منه فنزل فى ضيافة ابن اخته الناصر يوسف بن العزيز ، ودخلت بلاد الشام فى حكم الصالح ايوب ، الذى خرج بالعساكر من قلعة الجبل فى شوال٦٤٤هـ/فبراير١٢٤٧م وأناب فى مصر حسام الدين بن ابى على، فوصل الى دمشق ودخلها فى ١٧ ذى القعدة ، وكان دخوله اليها يوما مشهودا(٤) ٠

اتجهت عساكر الصالح أيوب عند عودتها من دمشق الى ما بقى من المدن الصليبية ، فاستولت على عسقلان بعد أن خربتها ، ودخلها جيش مصر فى ١٢ جمادى الاخرة ٦٤٥هـ / ١٥ أكتوبر ١٢٤٧م وكانت العساكر قد استولت من قبل ذلك على طبرية ، وبذلك انحسرت حدود الصليبيين الى أبواب يافا(٥) ٠ وبذلك استعاد الملك الصالح أيوب وحدة الدولة الايوبية ، وأصبح سلطانا على مصر ودمشق وبيت المقدس ، وأقام فى دمشق خلال عامى ٦٤٦ - ٦٤٧هـ (نوفمبر ١٢٤٨ - ابريل ١٢٤٩م) حيث وفد عليه أمراء

---

(١) ابن كثير : جـ ١٣ ص ١٦٧ ، والمقريزى : نفسه ، ص ٣٢٣ - ٣٢٥ ٠

(٢) أبو الفداء : جـ ٣ ص ١٧٥ ٠

(٣) القلعتان هما قلعة الجبل ، وقلعة الروضة التى انتقل اليها الصالح أيوب بالجزيرة - راجع ابن تغرى : نفسه ، ص ٣٢٦ ٠

(٤) راجع اعمال الصالح ايوب فى دمشق فى السلوك : جـ ١ ق ٢ ص ٣٢٦ - ٣٢٧ ٠

(٥) العينى : عقد الجمان ، حوادث ٦٤٥هـ ، وأبو الفداء : جـ ٣ ص ١٧٦ ، ورنسيمان : نفسه ص ٣٩٩ ٠

البيت الايوبى واعلنوا طاعتهم له ، كما انه زار بيت المقدس بعد أن رجع الى أحضان الدولة الاسلامية ، وأمر بتجديد عمارته وتقوية حصونه واسواره(١) .

الحملة الصليبية السابعة على مصر :

بعد هزيمة الصليبيين فى معركة غزة فى نوفمبر ١٢٤٤م ، ارتحل القس جاليران اسقف بيروت الى الغرب الاوربى ليطلب من ملوك اوربا وامرائها باسم بطريرك بيت المقدس ارسال حملة صليبية جديدة لتقوية المملكة الصليبية حتى لا تسقط فى يد المسلمين . وقد ازداد حماس البابوية لهذا الطلب خصوصا بعدما سقطت القدس فى أيدى المسلمين (الخوارزمية والصالح أيوب) واصبح رد الفعل قويا فى الغرب الاوربى كما هو العادة عقب كل كارثة تصيب الصليبيين فى الشرق الاسلامى .

وافق البابا انوسنت الرابع وملك فرنسا لويس التاسع على ارسال هذه الحملة وأعلن لويس التاسع أنه سيخرج على قيادتها طبقا لنذر قد نذره بسبب شفائه من مرض اصابه(٢) . واستمر لويس التاسع يجهز لهذه الحملة ثلاث سنوات ، وفرض ضرائب اضافية لكى ينفق منها على الحملة ، وعهد لأمه (بلانش) بالوصاية على عرش فرنسا اثناء غيابه ، ونجح فى اقناع ملك انجلترا بالمحافظة على السلام أثناء غيابه مع الحملة الصليبية(٣) . كما حمل ملك صقلية على التزام الهدوء والسلام . واتفق مع جنوه ومرسيليا ان تقدما السفن اللازمة لنقل جنود الحملة ، ولم يقبل أهل البندقية الانضمام الى هذا الاتفاق ، نظرا لعلاقاتهم التجارية الطيبة مع مصر ، وخوفا على مصالحهم فيها .

كان الملك لويس التاسع تباحث مع فردريك الثانى بشان هذه الحملة ،

---

(١) Cahen: La Syrie du Nord: p. 650.

(٢) رنسيمان : نفسه ، ص ٤٤٠ ــ ٤٤١ .

(٣) Joinville: Hist. de Saint Louis, Paris 1874, pp. 41-42.

باعتباره والد كونراد الملك الشرعى لبيت المقدس ، وكان من مصلحة فردريك ان تفشل الحملة للحفاظ على ملك ابنه كونراد ، فقام فردريك بنقل أخبار هذه الحملة الى الملك الصالح أيوب وان كان قد تظاهر بالتعاطف معها(١) وكان الصالح أيوب مريضا فى دمشق عندما بلغته هذه الاخبار ، فعاد الى مصر ، ونزل عند اشموم طنـاح ليكون على مقربة من مسرح الاحـداث الحـربية .

مسـير الحمـلة :

خرجت الحملة من موانى فرنسا الجنوبية فى أغسطس ١٢٤٨م / ٦٤٦هـ وكانت حملة كبيرة وخطيرة بلغ عدد جنودها ٨٠ الف جندى ، ٨٠٠ سفينة ، وأسلحة وعتاد بكميات لا تحصى ، وأبحرت السفن الى قبرص ، وصحب الملك لويس معه زوجته الملكة واثنان من اخوته هما روبرت أمير أرتوا ، وشارل أمير انجو ، ولحق بهم جموع من الامراء والدوقات الذين سبق لبعضهم الاشتراك فى الحروب الصليبية واستقبلهم جميعا هنرى ملك قبرص بمظاهر الود والترحيب فى سبتمبر ١٢٤٨م(٢) .

وفى قبرص نوقشت خطة الحملة ، ووافق الامراء جميعا على أن تكون مصر هى الهدف لانها أخصب أقاليم الدولة الايوبية ، وأسهل منالا عنـد الهجوم اذ من الممكن ان يتنازل السلطان عن بيت المقدس ومدن الشـام الساحلية فى مقابل الجلاء عن دمياط كما حدث فى الحملة الخامسة .

وفات الصليبيون انهم وقعوا فى خطأ عسكرى كبير عندما أبحروا الى قبرص ، ومكثوا بها سبعة شهور تقريبا ، فقد أعطوا الفرصة كاملة للصالح أيوب أن يكمل استعدادات جيوشه لمواجهة هذه الحملة ، بعدما أعلمه بهـا فردريك الثانى .

---

(١) العينى : مرجع سابق ، ص ٢٠١ ، رنسيمان : نفسه ، ص ٤٤٢ ، والمقريزى : المواعظ ، جـ ١ ص ٢١٩ (ط . بولاق) .

(٢) Joinville, op. cit., pp. 46-47.

ويبدو ان الصليبيين قد استقر فى عقولهم فكرة الاستيلاء على مصر باعتبارها الطريق الى احتلال بيت المقدس منذ الحملة الخامسة ، ولذلك كانت وجهتهم مصر كذلك فى هذه الحملة السابعة ٠

كما يبدو لنا ان لويس التاسع أراد أن يقلد التتار فى حروبهم بتحطيم نفسية عدوهم بالحرب النفسية والدعاية القوية والرسائل التهديدية والوعيد والمبالغة الى حاكم البلد الذى يفكرون فى غزوه حتى يستسلم بدون حرب ٠

تحركت السفن بالحملة من قبرص فى مايو ١٢٤٩م فوصلت الى مشارف دمياط فى ٤ يونيه(١) (٦٤٧هـ) ، وكان الصالح أيوب قد عهد الى الامير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ وزيره بقيادة الجيش المصرى والتصدى للصليبيين ، نظرا لان المرض قد اشتد عليه مما يعوقه عن القيادة ، وكان الصالح أيوب قد شحن دمياط بالمؤن الوافرة ، ورتب بها حامية من عرب كنانة المشهورين بالفروسية والباس فى القتال(٢) ٠

بدأت الحملة الصليبية السابعة تنزل جنودها الى البر الغربى لفرع دمياط يوم ٢٠ صفر ٦٤٧هـ / ٥ يونيه ١٢٤٩م ٠ وكان لويس قد أرسل الى الصالح أيوب رسالة شديدة اللهجة يذكره بموقف المسلمين السىء فى الاندلس ، ويطلب منه التسليم فورا ، وقد جاء فى هذه الرسالة : « وقد عرفتك وحذرتك من عساكر قد حضرت فى طاعتى تملأ السهل والجبل ، وعددهم كعدد الحصى ، وهم مرسلون اليك باسياف القضاء » فلما وصلت الرسالة الى الصالح أيوب ، واحس بوطأة المرض عليه دمعت عيناه لعدم قدرته على مواجهة ذلك الغرور بنفسه ومع ذلك بعث رده على لويس التاسع يندد بغروره ، ويذكره بما فعله المسلمون بالصليبيين وينذره بانه سوف يندم حيث لا ينفع الندم(٣) ٠

---

(١) رنسيمان : نفسه ، ص ٤٥٠ ـ ٤٥١ ، Joinville, pp. 52-53.

(٢) أبو الفداء : جـ ٣ ص ١٣٨ ٠

(٣) المقريزى : نفسه ، ص ٣٣٤ ـ ٣٣٥ ، عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ١٠٥٨ وما بعدها ٠

حاول فخر الدين يوسف قائد الجيش المصرى أن يمنع الصليبيين من النزول الى البر الغربى ، وتصدى لهم ، فنشبت معركة ضارية بين الفريقين ، لعب فيها الفرسان المقيمون فى المدن الصليبية بقيادة يوحنا ابلين أمير يافا دورا كبيرا ، وأبدوا من البسالة والاقدام ما أجبر الجيش المصرى وقائده المتقدم فى العمر على الانسحاب بعد أن تكبدوا كثيرا من الخسائر ، وتحت ستار الليل اجتاز المسلمون جسرا من السفن ودخلوا دمياط ، فلما رآهم أهل دمياط أصابهم الذعر ، واضطربت حامية المدينة ، فضعف قائد الجيش فخر الدين يوسف وترك المدينة وهرب ومعه المدنيون من أهلها بعد أن حطموا أسواقها وأشعلوا فيها النيران ، كماهرب بنو كنانة الذين عهد الصالح ايوب اليهم بالدفاع عن المدينة ، وتركوا أبوابها مفتوحة(١) ، وفاتهم عند فرارهم ان يحطموا جسر السفن الذى يربط دمياط بالضفة الغربية(٢) التى يعسكر الصليبيون عليها ٠

عبر الصليبيون النهر على الجسر الذى تركه المسلمون صباح يوم الاحد ٢٢ صفر ٦٤٧هـ / ٦ يونيه ١٢٤٩م وساروا الى دمياط ، فلما رأوا أبوابها مفتحة وبدون حماية ، خافوا أن يكون فى الامر مكيدة ، وتمهلوا حتى تاكدوا من خلوها من الجند ومن الناس فدخلوها بدون مشقة ولا عناء ، مما اثار دهشتهم(٣) ، واستولوا على ما فيها من آلات ومؤن وأسلحة وأموال وأمتعة وغير ذلك(٤) ٠

يرى بعض المؤرخين(٥) ان الحملة وقعت فى خطا كبير لانها لم تستفد من أخطاء الحملة الخامسة ، وكان ينبغى على الملك لويس التاسع أن يواصل زحفه الى داخل مصر للقضاء على الجيش الايوبى ، وردنا على ذلك أن

---

(١) المقريزى : نفسه ، ص ٣٣٦ ٠
(٢) رنسيمان : نفسه ، ص ٤٥٢ ٠
(٣) رنسيمان : نفسه ، ص ٤٥٣ ٠
(٤) المقريزى : نفسه ، ص ٣٣٦ ٠
(٥) عاشور : الايوبيون والمماليك ، ص ١٤١ ٠

لويس افاد حقيقة من اخطاء الحملة الخامسة بدليل أنه رفض ان يواصل زحفه ويبحر بهذا الاسطول الكبير آلا بعد ان تهبط مياه فيضان النيل ، حتى لا تجرف مياه الفيضان هذه السفن وتغرقها ، ثم انه كان مضطرا للانتظار حتى يصل اخيه الفونسو (كونت بواتو) بمدد جديد من فرنسا(١) ، لانه كان يتحسب ويخشى أن يمتد زمن الحملة فى مصر ، فعمل على توفير المؤن اللازمة والميرة الكافية لجنود الحملة ، الذين قدرتهم المراجع ما بين ٥٠ الف و ٨٠ الف مقاتل . ويمكن القول انلويس التاسع اخطأ اذ لم يتجه بالحملة الى الاسكندرية وينزل جنوده بها ، ثم يتقدم صوب القاهرة ، لان ذلك أيسر وأسهل ، ويبدو ان نابليون بونابرت تنبه لذلك اثناء الحملة الفرنسية على مصر فنزل بجنوده على الاسكندرية وتقدم منها الى القاهرة ، كما تنبه نلسون وقادة الجيش البريطانى الى ذلك كذلك عندما جاءوا لاحتلال مصر سنة ١٨٨٢م ونزلوا على الاسكندرية أولا .

وصلت العساكر المصرية الى اشموم طناح حيث يقيم الصالح أيوب ، فاشتد حنقه على قائد جيشه فخر الدين يوسف ووبخه وعزله ، ثم أمر بشنق الكنانية جميعا جزاء لهروبهم من المدينة وكانت كل امكانات الدفاع متوفرة لديهم بدرجة اكثر مما كانت عليه دمياط اثناء حصارها فى الحملة الخامسة ، ومع ذلك صمد أهل دمياط ودافعوا عن مدينتهم ولم يفروا كما فعلوا فى هذه **المرة** .

تحولت مدينة دمياط الى مدينة صليبية منذ الساعات الاولى التى وطئت فيها اقدام الفرنجة أرضها ، فقد حولوا مسجد المدينة الى كنيسة كما حدث سنة ١٢١٩م ، ووزعت عمائرها على الطوائف الدينية العسكرية الثلاث ، ووزعت الاموال التى وجدوها على كبار رجال الحملة ، واعطى الجنويون والبيازنة سوقا وشارعا لكل منهما ، ووجد اقباط المدينة اليعاقبة من الملك

---

(١) رنسيمان : نفسه ، ص ٤٥٣ .

لويس التاسع معاملة طيبة وعادلة(١) . كما قام الصليبيون بعد ذلك بتحصين اسوار المدينة ، وشحنوها بالمقاتلة .

انتقل الملك الصالح أيوب وحاشيته الى المنصورة ، ودعا عامة الناس الى جهاد الصليبيين ، فتجمع عنده خلق كثير ، وبدات العربان تغير على الصليبيين فى أطراف دمياط ، وياسرون منهم فى كل مرة أعدادا غير قليلة(٢) . وفى نفس الوقت أخذ يعيد ترتيب جيشه ، وينظم شئون الدفاع عن مصر ، على الرغم من شدة المرض الذى أودى بحياته فيما بعد .

طالت مدة بقاء الصليبيين فى دمياط نحو ستة شهور ، فادى ذلك الى ضعف الروح القتالية عند الجند ، وأخذت الاقوات والمؤن فى النفاد ، وبدأت الامراض والاوبئة تنتشر فى معسكرهم . ولكن خفف من حدتها وصول الفونسو (كونت بواتو) الشقيق الثانى للملك لويس بالامدادات فى أواخر اكتوبر ١٢٤٩م ، وفى ٢٠ نوفمبر تحركت جنود الحملة من دمياط متجهين الى المنصورة ، وبقى فى المدينة حامية قوية ، مع الملكة زوجة لويس ، وبطريك بيت المقدس(٣) .

ويبدو ان الحظ لعب دوره فى جانب لويس التاسع ، اذ توفى الملك الصالح أيوب فى ٢٣ نوفمبر - بعد خروج الحملة بثلاثة أيام - (١٥ شعبان ٦٤٧هـ) وخسرت مصر والبلدان الاسلامية بفقده قائدا شجاعا فى تلك الظـروف الحرجة ، خاصة وانه لا يوجد من يحل محله بسرعة فى حكم البلاد وفى التصدى للغزو الصليبى .

---

(١) رنسيمان : نفسه ، ص ٤٥٣ .

(٢) راجع ما ذكره المقريزى : جـ ١ ص ٣٣٧ ، رنسيمان : نفسه ، ص ٤٥٥ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم : جـ ٦ ص ٣٣٣ وما بعدها ،
Wiet; op. cit., p. 377.

كان الصالح أيوب شديد الميل الى العزلة ، كثير التجبر والتعاظم على اصحابه ، لا تتوفر عنده صفات السخاء والكرم ، الا انه كان سلطانا كفئا ذا همة عالية يعتبره المؤرخون آخر سلاطين الايوبيين واعظمهم واحسنهم رايا وشجاعة بعد صلاح الدين(١) ٠

ومن المآخذ على الملك الصالح أيوب انه اشتهر بروح التآمر ، ويبرر البعض ذلك الى اقاربه ونضالهم ضده طول فترة حكمه ، فكان مضطرا ان يقابل تآمرهم بمثله ٠

ولذلك امر الصالح ايوب بحبس عدد كبير من امرائه دفعة واحدة ، وصادر ممتلكاتهم ومات فى السجن ما يزيد على خمسة آلاف شخص ، ولم يعبا بالمماليك الذين اتخذهم جندا له ، فاغرق منهم فى النيل عددا كبيرا(٢) ٠

ولم يكن الناس يامنون سطوته ولا يقدرون على الاحتراس منه خاصة وانه امر بقتل اخيه الملك العادل(٣) ، ويعلل البعض ذلك بان الصالح ايوب كان يخشى أن يعود العادل الى السلطنة بعد موته ، لاسيما وانه أدرك قرب منيته بسبب مرضه بالسل ، وان ابنه توران شاه لا يصلح لشىء(٤) ٠ ولكن مع كل ما يوجه الى الصالح ايوب فانه قام بتشييد المبانى بما لم يقم به سلطان أيوبى قبله ، فمدينة الصالحية بالشرقية تنسب اليه(٥) ، واذا كان معظم ما شيده الصالح أيوب قد اندثر ، فان جانبا واحدا من احد هذه الآثار لايزال باقيا وهو المدرسة الصالحية قرب خان الخليلى ، وهى أول مدرسة أعدت للدراسات الدينية على المذاهب الأربعة ، وقد دفن بهـا ، والكتابة المدونة على المقبرة يرجع تاريخها الى فترة وجود الصليبيين فى المنصورة(٦) ٠

---

(١) ابن تغرى بردى : جـ ٦ ص ٣٣٥ ــ ٣٣٦ ٠
(٢) ابن تغرى بردى : نفس المرجع والصفحة ٠
(٣) راجع تفصيل ذلك عند المقريزى : مرجع سابق جـ ١ ص ٣٢٧، ٣٢٩
(٤) ابن تغرى بردى : نفسه ، ص ٣٤٧ ٠
(٥) أبو الفداء : جـ ٣ ص ١٤٠ ٠
(٦) Wiet, op. cit., p. 379.

معركة المنصورة ١٢٥٠ :

كان توران شاه هو الابن الوحيد الباقى للصالح ايوب ، وكان نائبا عن ابيه فى حصن كيفا وديار بكر(١) وكان أبوه لا يرى فيه خيرا لاستهتاره وعدم خبرته لدرجة انه كان يرى تسليم البلاد الى الخليفة العباسى المستعصم لعدم قدرة توران شاه على تحمل مسئولية الحكم .

ومع ذلك ارسلت شجر الدر(٢) زوج أبيه الصالح أيوب تستدعيه للحضور ليتسلم الحكم ، وقامت هى بتصريف شئون الدولة والجيش ، وأخفت موت السلطان الصالح أيوب عن الجميع باستثناء الوزير القائد فخر الدين يوسف ، الذى أعاده الصالح ايوب الى عمله قبل موته ، وكذلك الطواشى جمال الدين محسن ، اللذان كتما الامر خوفا من الصليبيين واخذت شجر الدر تخرج الكتب والمناشير والمراسم وعليها علامة (توقيع) الصالح ايوب ، كان يكتبها خادم يقال له السهيلى(٣) فلا يشك احد فى انه خط السلطان .

ومع ذلك تسربت انباء عن موت الصالح أيوب ، ورأى الملك لويس التاسع أن يستغل هذه الفرصة السيئة التى تحيط بالبلاد وينزل بالمسلمين هزيمة مرة قبل أن يصل توران شاه ، وبعد مناوشات وهجمات على الصليبيين وسفنهم عبر البحر الصغير تمكنوا بواسطة أحد الأقباط ، الذى دلهم على مخاضة(٤) يعبرون منها مقابل ٥٠٠ دينار ، من عبور هذا البحر الذى وجدوا فوق مياهه الكثير من المصاعب . وتمكن الصليبيون من مهاجمة المسلمين فى المنصورة على فجاة ، ولقى عدد كبير منهم مصرعهم قبل أن

---

(١) أبو الفداء : نفس المرجع والصفحة .

(٢) يقال انها أرمينية الاصل ، وكانت جارية للملك الصالح أيوب قبل أن يتزوجها : رنسيمان : نفسه ص ٤٥٦ .

(٣) أبو الفداء : جـ ٣ ص ١٤٠ ، وقد ذكر المقريزى (جـ ١ ص ٣٣٩) ان الصالح نجم الدين أيوب (علم قبل موته عشرة آلاف علامة يستعان بها فى المكاتبات على كتمان موته) ونحن لا نميل الى هذا الرأى للمبالغة الواضحة ، ولأن الصالح كان المرض قد اشتد به كثيرا .

(٤) تسمى مخاضة سلمون : رنسيمان : نفسه ، ص ٤٥٨ .

ياخذوا اسلحتهم ، وقتل قائد الجيش فخر الدين يوسف الذى خرج من الحمام على عجل وامتطى صهوة جواده دون أن يلبس الدرع الواقى فالتف به جمع من الصليبيين وقتلوه ، وكان ذلك يوم ٥ ذى القعدة سنة ٦٤٧هـ / ١٠ فبراير ١٢٥٠م(١) ٠

ولكن الصليبيين ارتكبوا حماقة أوقعت بهم هزيمة منكرة ، فقد تسرع فريق منهم بالهجوم والتوغل داخل احياء المنصورة ، ولم يلتفتوا الى أوامر لويس بضرورة التريث والانتظار حتى ياتى باقى الصليبيين ، وكان المسلمون قد قطعوا عليهم الطريق المؤدى الى دمياط بفضل هجمات المماليك البحرية وزعيمهم بيبرس البندقدارى الصالحى ٠ وتمكن المسلمون من القضاء على الصليبيين الذين هاجموهم وتوغلوا فى دروب المنصورة الضيقة وقتلوا منهم اعدادا كثيرة ، تقدر بالآلاف ، وحتى الذين تمكنوا من الهرب راجلين على الاقدام بعد أن تركوا خيولهم ، وقعوا فى النيل فغرقوا فيه ٠

اعادت انتصارات المسلمين فى المنصورة الثقة الى نفوسهم ، فازدادت هجماتهم واشتدت على الصليبيين ، وتماسك لويس التاسع أمام هذه الهجمات ، واخذ يعيد تنظيم جنوده ، بعد أن نقصت اعدادهم كثيرا بسبب المعارك ، وبسبب ما أصابهم من الامراض التى قضت على كثير منهم ٠

توران شاه والصليبيون ونهاية الدولة :

خرج توران شاه من حصن كيفا مسرعا ، حتى اذا ما وصل الى دمشق نودى به سلطانا ، ثم عاود مسيره حتى وصل الى المنصورة فى أواخر فبراير سنة ١٢٥٠م ٠ فارتفعت الروح المعنوية عند المصريين ، وبعث فيهم الحركة والنشاط فامر بتصنيع اسطول من السفن الخفيفة على وجه السرعة ، ثم نقلها على ظهور الابل وانزلها فى فروع النيل ودخلت الى القنوات المتعددة والمتفرعة والمرتبطة بمثلث تحده من الشمال الشرقى بحيرة المنزلة ، ومن الغرب فرع دمياط ، ومن الجنوب الشرقى فرع اشموم طناح الذى يعرف

---

(١) أبو الفداء : نفس المرجع والصفحة ٠

اليوم باسم البحر الصغير ، واخذت سفن المصريين تعترض طريق السفن الصليبية التى تجلب لهم المؤن والاغذية من دمياط الى معسكرهم عند المنصورة ، فاستولى الاسطول المصرى على ما يزيد عن ٨٠ سفينة للصليبيين الواحدة بعد الاخرى ، وحدث يوم ١٦ مارس ان هاجم الاسطول المصرى قافلة صليبية مكونة من ٣٢ سفينة واخذها جميعا بمن فيها وما فيها ، وقد نتج عن عدم وصول المؤن الى الصليبيين ان ضربهم الجوع واصابهم المرض وتفشى فيهم التيفود(١) .

حاول الملك لويس التاسع ان ينقذ جيوشه من وخامة معسكرهم ، وأن يعود الى دمياط ، فارسل الى توران شاه يعرض عليه الجلاء عن دمياط مقابل بيت المقدس ، ولكن المصريين رفضوا المفاوضات ، لأنهم وقفوا على الحالة السيئة التى وصل اليها لويس وجيشه ، ثم انه سبق أن رفض مثل هذا الاقتراح من جانب المصريين ، ودفعته الغطرسة والتكبر على القول بانه لا يقبل المفاوضة مع مسلم البته .

عندئذ تقرر اخلاء المعسكر الصليبى ، ونقل المرضى منهم فى السفن ، اما الأصحاء من الجند فيسلكون الطريق الذى جاءوا منه ، وفى يوم ٣ المحرم ٦٤٨هـ / ابريل ١٢٥٠ بدأت رحلة الصليبيين وسار الملك لويس فى مؤخرة الجيش ليشجع جنوده ، وانتهز الجند المماليك هذه الفرصة النادرة فأحاطوا بهم فى البر والبحر(٢) ، ووقع لويس فى المرض ، ولم يقدر على حفظ توازنه فوق فرسه ، وأدرك الصليبيون أن نهايتهم قربت ، عندما شدد المصريون عليهم القتال ، وعندئذ اصطحب جيفرى سارجينس قائد الحرس الملكى لويس التاسع الى كوخ بقرية ميت الخولى عبد الله الواقعة شمال شرمساح .

---

(١) يذكرهم المقريزى (جـ ١ ص ٣٥٣) ٥٢ مركبا ، وما اثبتناه من ابى الفداء (جـ ٣ ص ١٤٠) وكذلك رنسيمان : جـ ٣ ص ٤٦٣ .

(٢) يذكر المقريزى (جـ ١ ق ٢ ص ٣٥٥) ان معظم الحرب كانت فى فارسكور .

وحاول الصليبيون ان يقنعوا الامراء المصريين بتسليم دمياط مقابل مغادرتهم الاراضى المصرية ، ورفض المصريون للمرة الثانية .

ولم يلبث الجيش الصليبى كله ان القى السلاح ، وأمكن للجيش المصرى ان يطوقه ، ويأخذ الجنود كلهم اسرى ، وفى نفس الوقت استسلم الاسطول الصليبى باكمله للاسطول المصرى(١) . ولم يكن فى استطاعة المصريين حراسة هذه الاعداد الكثيرة ، فتخلصوا من الذين تمكن الوباء منهم وأصبحوا على حافة الموت ، كما نقل لويس التاسع مكبلا بالأغلال الى دار ابن لقمان(٢) فى المنصورة ، وأودع قادة الصليبيين معا فى سجن كبير(٣) ، ووضع الطواشى صبيح المعظمى لحراسة لويس التاسع .

فى هذه الاوقات غلبت حماقة وهوجائية توران شاه على شجاعته ، لانه لم يقدر لشجر الدر زوج ابيه ما فعلته حيث حفظت له عرش ابيه ، ولم يقدر لأمراء المماليك جهودهم التى بذلوها ، فأخذ يطالب شجر الدر بأموال ابيه ، ويدأ يضطهد أمراء المماليك ويبعدهم عن مراكزهم ويولى مكانهم من رجال حاشيته واتباعه الذين قدموا معه من حصن كيفا ، بل يقال انه كان يسكر ويصف الشموع أمامه ويضربها بسيفه ويقول : هكذا افعل بالمماليك البحرية(٤) فسمع بذلك أمراؤهم ، فأخذوا يتآمرون ضده ، وهاجموه فى برج من الخشب بعد انتهاء المعركة عند فارسكور ، وضربه الظاهر بيبرس البندقدارى بالسيف على كتفه ففر الى أعلى البرج ، فاشعلوا فيه النار ، فلما وصل لهيبها اليه القى بنفسه من أعلى البرج الى الارض فتتبعوه وقتلوه يوم ٢٩ المحرم ٦٤٨هـ / مايو ١٢٥٠م(٥) . وتركت جثته على جانب البحر

---

(١) Joinville, op. cit., pp. 107-110. ، والعينى : عقد الجمان ، ص ٢٠٩-٢١٣ .

(٢) هو القاضى فخر الدين ابراهيم بن لقمان كاتب الانشاء . المقريزى : جـ ١ ص ٣٥٦ .

(٣) رنسيمان : جـ ٣ ص ٤٦٦ .

(٤) ابن تغرى بردى : جـ ٦ ص ٣٧١ ، والمقريزى : جـ ١ ص ٣٥٩ .

(٥) أبو الفداء : جـ ٣ ص ١٤١ .

ثلاثة أيام ، ولا يتجاسر احد على دفنه ، الى أن تدخل مبعوث الخليفة ، فدفن ، وكانت مدة حكمه ٧١ يوما .

وهكذا ، وبمقتل المعظم توران شاه انتهت الدولة الايوبية من الديار المصرية بعد أن حكم من ملوكها ثمانية ، امتدت فترة حكمهم لمدة احدى وثمانين سنة(١) .

مصر بعد مقتل توران شاه :

كان لابد لأحد الامراء أن يتولى مسئولية الحكم ليتولى المفاوضات التى كان بدأها توران شاه مع الصليبيين لاسترجاع دمياط ، ولخروجهم من مصر واصلاح ما افسدته يد الصليبيين خلال مدة هذه الحملة السابعة ، وبعد مشاورات بين امراء المماليك البحرية (مماليك الصالح نجم الدين ايوب) تقرر أن تتولى شجر الدر زوجة وأم ولده خليل شئون السلطنة فى مصر والشام نظرا للموقف البطولى الذى وقفته بعد موت زوجها والذى يقدره التاريخ لها ، وأصبح مقدم العسكر الامير عز الدين أيبك التركمانى ، وأقسم الامراء يمين الولاء ، ومارست شجر الدر مسئوليتها .

نهاية الحملة الصليبية السابعة :

استقرت الامور فى مصر بعد تولية شجر الدر ، وبدأت المفاوضات وكان الامير حسام الدين محمد بن أبى على يمثل مصر ، واختار لويس التاسع اربعة أمراء على رأسهم وليم أمير الاراضى المنخفضة(٢) . وبعد مناقشات طويلة بين الجانبين اتفق على عقد معاهدة الصلح وكان من اهم شروطها ما يلى :

١ - أن يرد الملك لويس التاسع دمياط الى المسلمين .

---

(١) المقريزى : ج ١ ص ٣٦١ .

(٢) العينى : عقد الجمان ، ص ٣١٧ ، جوزيف : العدوان الصليبى ، ص ٢٣٢ .

٢ - ان يطلق الصليبيون سراح جميع الاسرى المسلمين الذين فى ايديهم ٠

٣ - الا يشترك لويس التاسع فى اى حملة بقصد مهاجمة سواحل مصر والشام ٠

٤ - ان يدفع فدية قدرها ٨٠٠ الف دينار لاطلاق سراحه ، وقد خفضت هذه الفدية الى النصف فيما بعد ٠

٥ - ان يدفع نصف قيمة الفدية قبل اطلاق سرحه ، ويدفع الباقى بعد وصوله الى عكا ٠

٦ - ان يتعهد المسلمون برعاية مرضى الصليبيين بدمياط والمحافظة على معداتهم واثقالهم حتى يتم نقلها ٠

٧ - ان تسرى هذه المعاهدة لمدة عشر سنوات(١) ٠

وقد تم تسليم مدينة دمياط الى المسلمين يوم الجمعة ٣ صفر ٦٤٨هـ / ٦ مايو ١٢٥٠م حيث رفعت اعلام مصر على أسوارها بعد أن ظلت حبيسة فى يد الصليبيين احد عشر شهرا وسبعة ايام ٠ وغادر الملك لويس التاسع وامراؤه وحاشيته وأسرى الصليبيين دمياط بعد يومين قاصدين عكا ، وهم يحملون مرارة الهزيمة وفشل الحملة السابعة التى اعدوا لها ثلاث سنوات واكثر لاحتلال مصر حتى يستردوا بيت المقدس فلم ينجح تخطيطهم ، وانتهى بالفشل الذريع هدفهم وخاب قصدهم ٠ وقد حملت البشرى للبلاد الاسلامية ، وانطلق الشعراء بقصائدهم يسجلون ذلك الحدث التاريخى العظيم ، ويحذرون لويس من التفكير فى العودة ثانية ، ومن هذه القصائد ما قاله الصاحب جمال الدين بن مطروح :

---

(١) راجع المقريزى : جـ ١ ص ٣٦٣ ، وابو الفداء : جـ ٣ ص ١٤٢ ، وابن تغرى بردى : جـ ٦ ص ٣٦٨ - ٣٦٩ ، رنسيمان : نفسه ، ص ٤٦٦-٤٧٢ وكذلك : Joinville pp. 135-138

قـــبـل للفرنســيس اذا جئتــــه
مقـــال نصـح مــن قؤول فصــيح

آجــــرك اللــــه عــلى مـــا جــرى
مــن قتل عبـاد يســوع المســيح

آتيت مصر تبتغى ملكهــــــا
تحســـب أن الزمــر يــا طبـل ريــح

فســـاقك الحــيْن الى أدهـــم
ضــاق به عن ناظريك الفســيح

وكـــــل اصـــــحابك اودعتهم
بحســــن تدبيرك بطــن الضريح

خمســـون الفـــا لا تـــرى منهم
الا قتيـــلا أو أســـيرا جـــريح

وفقـــك اللـــه لأمثالهـــــا
لعـل عيسى منكم يســــــتريح

ان كـــان باباكم بـــذا راضــيا
فرب غش قـــــد اتى من نصيح

وقـــل لهم ان أضــمروا عــودة
لأخـــذ ثـــار أو لفعـل قبيـح

دار ابن لقمـــان عـــلى حالهـــا
والقيـد بـاق والطـواشى صـبيح (١)

---

(١) المقــريزى : نفســه ص ٣٦٣-٣٦٤ ، ابن تغرى بردى : جـ ٦ ص ٣٧٠ .

أولا : المصادر والمراجع العربية والمعربة

● ابن الاثير : عز الدين محمد بن عبد الكريم الشيبانى :

١ – الكامل فى التاريخ (١٢ مجلدا) صادر – بيروت ١٩٦٦ ٠

٢ – التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية (بالموصل) تحقيق عبد القادر طليمات – دار الكتب الحديثة ٠ القاهرة (ب) ٠

● ابن الأكفانى : محمد بن ابراهيم بن ساعد الانصارى :

٣ – نخب الذخائر فى أحوال الجواهر ، المطبعة العصرية ، مصر ١٩٣٩ ٠

● ابن جبير : محمد بن أحمد الكنانى الاندلسى :

٤ – رحلة ابن جبير ، صادر – بيروث ١٩٦٤ ٠

● ابن إياس : ابو البركات محمد بن أحمد :

٥ – بدائع الزهور فى وقائع الدهور (٣ أجزاء) ط٠ بولاق ١٣١٢هـ ٠

● ابن ايبك الدوادارى : ابو بكر عبد الله :

٦ – كنز الدرر وجامع الغرر (او الدر المطلوب فى اخبار بنى ايوب) مخطوط بدار الكتب برقم ٤٦٣٤ تاريخ ٠

● ابن تغرى بردى : ابو المحاسن جمال الدين يوسف :

٧ – النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، دار الكتب المصرية (ب) ٠

● ابن الجوزى : ابو الفرج عبد الرحمن بن على :

٨ – المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ، حيدراباد – الدكن ١٩٣٩ ٠

● ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد :

٩ – المقدمـة ٠

١٠– العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ، بيروت ١٩٧١ ٠

● ابن خلكان : شمس الدين أحمد بن محمد :

١١– وفيات الأعيان وانباء ابناء الزمان ، بيروت ١٩٦٨ ٠

● ابن دقماق : صارم الدين ابراهيم بن محمد بن ايدمر **العلائى :**

١٢– الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين ، مخطوط بدار الكتب برقم ١٥٢٢ تاريخ ٠

١٣– الانتصار لواسطة عقد الانصار ، ط٠ بولاق ١٣١٠هـ ٠

● ابن شداد : عز الدين ابو عبد الله محمد بن على بن ابراهيم :

١٤- الأعلاق الخطيرة فى ذكر امراء الشام والجزيرة ، دمشق ١٩٥٣ .

١٥- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، القاهرة ١٩٦٢ .

● ابن العبرى : جريجور يوس بن أهرون (الملطى) :

١٦- تاريخ مختصر الدول ، بيروت ١٩٥٨ .

● ابن العديم : كمال الدين ابو القاسم عمر بن هبة الله :

١٧- زبدة الحلب فى تاريخ حلب ، تحقيق سامى الدهان - دمشق ١٩٥٤ .

● ابن العماد الحنبلى : أبو الفلاح عبد الحى بن على بن محمد :

١٨- شذرات الذهب فى أخبار من ذهب (٨ أجزاء) ، القاهرة ١٣٥١هـ .

● ابن الفرات الحنفى : ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن على :

١٩- تاريخ الدول والملوك (المعروف بتاريخ ابن الفرات الحنفى) ، مخطوط بمكتبة البرتينا بفينا برقم A. F. 117 - 125 - **راجع دراستنا** التفصيلية عن هذا المخطوط - الانجلو المصرية ١٩٨٣ .

● ابن القلانسى : أبو يعلى حمزه بن أسد بن على بن محمد التميمى :

٢٠- ذيل تاريخ دمشق - تحقيق آمدروز - دمشق ١٩٥١ .

● ابن كثير : عما الدين اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقى :

٢١- البداية والنهاية - المعارف - بيروت ١٩٦٦ .

● ابن واصل : جمال الدين سالم :

٢٢- مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب (٤ مجلدات) - الهيئة المصرية للكتاب - القاهرة ١٩٧٢ .

● ابن الوردى : أبو حفص عمر بن مظفر بن عمر بن محمد بن ابى الفوارس :

٢٣- المختصر فى اخبار البشر ، مصر ١٢٨٥هـ/١٨٦٨م .

● أبو شامه : شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسى :

٢٤- كتاب الروضتين فى اخبار الدولتين ، الهيئة المصرية للكتاب ١٩٦٢ .

٢٥- الذيل على الروضتين - تحقيق عزت العطار - بعنوان : تراجم رجال القرنين السادس والسابع - القاهرة ١٩٤٧ .

● أبو الفداء : الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر ابن شاهنشاه - صاحب حماة - :

٢٦- المختصر فى اخبار البشر - بيروت (ب) .

● أحمد الشامى (دكتور) :

٢٧- العلاقات بين الشرق والغرب (ط. ثانية) - النهضة العربية - القاهرة ١٩٨٥ .

● احمد كمال الدين حلمى (دكتور) :
٢٨ـ السلاجقة فى التاريخ والحضارة ـ الكويت ١٩٧٥ ٠

● ادوارد جيبون :
٢٩ـ اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها (٣ أجزاء) ـ ترجمة : محمد سليم سالم (دكتور) ـ القاهرة ١٩٦٩ ٠

● ارنست باركر :
٣٠ـ الحروب الصليبية ـ ترجمة السيد الباز العرينى (دكتور) ـ القاهرة ١٩٦٠ ٠

● بامخرمه : أبو محمد عبد الله الطيب :
٣١ـ تاريخ ثغر عدن (جزءان) ـ ليدن ١٩٣٦ ٠

● البغدادى : صفى الدين عبد المؤمن عبد الحق :
٣٢ـ مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ـ المعرفة ـ بيروت ١٩٥٥ ٠

● البيرونى : أبو الريحان محمد بن أحمد :
٣٣ـ كتاب الجماهر فى معرفة الجواهر ـ الهند ١٣٣٥٥هـ ٠

● جمال الدين الشيال (دكتور) :
٣٤ـ مصر الاسلامية (جزءان) المعارف ـ القاهرة ١٩٦٤ ٠

● الجواليقى : أبو منصور موهوب بن احمد بن محمد :
٣٥ـ المعرب من الكلام الأعجمى على حروف المعجم ـ تحقيق احمد محمد شاكر ـ القاهرة ١٣٦١هـ ٠

● جوانفيل (جان دى) :
٣٦ـ القديس لويس : حياته وحملاته على مصر والشام ـ ترجمة : حسن حبشى (دكتور) ـ المعارف ـ القاهرة ١٩٦٨ ٠

● جوزيف نسيم يوسف (دكتور) :
٣٧ـ الأسباب الشخصية للحملات الصليبية ـ بحث بمجلة كلية الآداب ـ اسكندرية ١٩٦٣ ٠
٣٨ـ العدوان الصليبى على بلاد الشام ـ مؤسسة الشباب الجامعى ـ اسكندرية ١٩٨٤ ٠

● حافظ حمدى :
٣٩ـ الشرق الاسلامى قبل الغزو المغولى ـ بغداد (ب) ٠

● حسن أحمد محمود (دكتور) :
٤٠ـ العالم الاسلامى فى العصر العباسى ـ القاهرة ١٩٨٢ ٠

● حسن حبشى (دكتور) :
٤١- نور الدين والصليبيون - القاهرة ١٩٤٨ .
٤٢- الحرب الصليبية الاولى - القاهرة ١٩٥٥ .
٤٣- حملة القديس لويس على مصر والشام - القاهرة ١٩٤٩ .

● حسين أمين (دكتور) :
٤٤- تاريخ العراق فى العصر السلجوقى - بغداد ١٩٦٥ .

● الحسينى : صدر الدين على بن الحسين :
٤٥- أخبار الدولة السلجوقية - لاهور ١٩٣٣ .

● الخزرجى : على بن الحسن :
٤٦- العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية (جزءان) - مطابع الهلال - القاهرة ١٩١١ .
٤٧- دائرة المعارف الاسلامية - ترجمة : خورشيد ، عبد الحميد يونس - ط. ثانية - القاهرة ١٩٦٩ .

● الذهبى : شيخ الاسلام شمس الدين محمد بن أحمد :
٤٨- تاريخ دول الاسلام وطبقات المشاهير والأعلام - القاهرة ١٩٤٨ .

● الراوندى : نجم الدين أبو بكر محمد بن على بن سليمان :
٤٩- راحة الصدور وآية السرور (مترجم من الفارسية) - القاهرة ١٩٦٠ .

● رشيد الجميلى :
٥٠- دولة الأتابكة فى الموصل (بعد عماد الدين زنكى) - النهضة العربية - بيروت ١٩٧٠ .

● زكى النقاش (دكتور) :
٥١- العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والافرنج خلال الحروب الصليبية - دار الكتاب اللبنانى - بيروت ١٩٤٦ .

● سبط ابن الجوزى : شمس الدين أبو المظفر يوسف قزاوغلى :
٥٢- مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان - حيدرأباد ١٩٥٨ .

● سعيد عاشور (دكتور) :
٥٣- الحركة الصليبية (مجلدان) - الانجلو - القاهرة ١٩٦٣ .
٥٤- العلاقات بين الشرق والغرب - بيروت ١٩٦٧ .
٥٥- اوربا العصور الوسطى - الانجلو - القاهرة ١٩٦٧ .
٥٦- مصر والشام فى عصر الايوبيين والمماليك - بيروت ١٩٧٢ .

● السيد الباز العرينى (دكتور) :
٥٧ـ الشرق الادنى فى العصور الوسطى ـ بيروت ١٩٦٧ ٠
٥٨ـ الدولة البيزنطية ـ بيروت ١٩٨٢ ٠
٥٩ـ مصر فى عهد الايوبيين ـ بيروت ١٩٨٢ ٠

● شمس الدين سامى :
٦٠ـ قاموس الأعلام (بالتركية) استانبول ١٣٠٦هـ ٠

● عبد الرحيم زلط (دكتور) :
٦١ـ ازدهار الشعر المصرى فى القرن السابع الهجرى ـ رسالة دكتوراة بآداب عين شمس ١٩٧٤ (غير منشورة) ٠

● عبد النعيم محمد حسنين (دكتور) :
٦٢ـ سلاجقة ايرنا والعراق ـ القاهرة ١٩٧٥ ٠

● على مبارك :
٦٣ـ الخطط التوفيقية الجديدة ـ الهيئة المصرية للكتاب ـ ١٩٨٥ ٠

● العماد الأصفهانى : عماد الدين محمد بن حامد :
٦٤ـ الفتح القسى فى الفتح القدسى (تحقيق صبيح) ١٩٦٢ ٠

● عمارة اليمنى : أبو الحسن نجم الدين :
٦٥ـ تاريخ اليمن ـ نشره Kay ـ لندن ١٣٠٩هـ ٠

● عمر كمال توفيق (دكتور) :
٦٦ـ الدولة البيزنطية ـ الجامعية للنشر ـ اسكندرية ٠
٦٧ـ مملكة بيت المقدس الصليبية ـ الجامعية للنشر ـ اسكندرية ١٩٦٠ ٠

● العينى : بدر الدين أبو محمد بن أحمد :
٦٨ـ عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ـ مخطوط برقم ١٥٨٤ تاريخ بدار الكتب ٠

● الفارقى : أحمد بن يوسف بن على بن الأزرق :
٦٥ـ تاريخ ميافارقين ـ دار الكتاب اللبنانى ـ بيروت ١٩٧٤ ٠

● فايد حماد محمد عاشور (دكتور) :
٧٠ـ الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين فى العصر الايوبى ـ دار الاعتصام ـ القاهرة ١٩٨٣ ٠

● فيليب حتى (دكتور) :
٧١ـ تاريخ العرب (مطول) دار الكشاف ـ بيروت ١٩٥١ ٠

٧٢- القرآن الكريم .

● القلقشندى : ابو العباس احمد :

٧٣- صبح الأعشى فى صناعة الانشاء (١٤ جزءا) - القاهرة ١٩١٣ .

● كارل بروكلمان :

٧٤- تاريخ الشعوب الاسلامية - ترجمة : نبيه فارس واخر - ط. سابعة - العلم للملايين ١٩٧٧ .

● كلارى (روبرت) :

٧٥- فتح القسطنطينية على يد الصليبيين - ترجمة حسن حبشى (دكتور) - القاهرة ١٩٦٤ .

● محمد فريد ابو حديد :

٧٦- صلاح الدين الايوبى وعصره - القاهرة ١٩٢٧ .

● محمد كرد على :

٧٧- الاسلام والحضارة العربية - القاهرة ١٩٣٤-٣٦ .

● المقريزى : تقى الدين احمد بن على :

٧٨- اتعاظ الحنفا باخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - تحقيق جمال الدين الشيال (دكتور) - الفكر العربى ١٩٤٨ .

٨٩- اغاثة الأئمة بكشف الغمة - تحقيق (الشيال) - القاهرة .

٨٠- السلوك لمعرفة دول الملوك - الهيئة العامة للكتاب .

٨١- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار - الهيئة العامة للكتاب .

● مؤلف مجهـول :

٨٢- أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس - ترجمة حسن حبش (دكتور) - الفكر العربى ١٩٥٨ .

● نظير حسان سعداوى :

٨٣- التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين الايوبى - القاهرة ١٩٥٧ .

● ياقوت الحمـوى :

٨٤- معجم البلدان (٥ مجلدات) بيروت ١٩٦٧ .

ثانيا : مراجـع اوربيـة

Europaesche Hilfesquellen

※ Arnold; Tomas :

1. The Caliphate, Reprinted. Karachi. 1960.

※ Atiya; Aziz Sourial (Dr.) :

2. The Crusade in the Later Middle - Ages. London, 1938.

※ Baldwin; M. W. :

3. Raymond III of Tripolis and the Fall of Jerusalem. Princeton. 1936.

※ Barker; Ernest :

4. History of the Crusades. London.

※ Blochet, E. :

5. Histoire du Egypte.

※ Bury, J. B. :

6. A History of the Eastern Roman Empire. London. 1912.
7. History of the later Roman Empire. (2 Vols.) London. 1923.

※ Cahen, Claude :

8. La Syrie du Nord à l'Epoque des Croisades. Beyrouth 1967.
9. Der Islam. (Fischer) Munchen 1969.
10. Cambridge Mediaeval History (Bury. B. & Bury, M. A.) vol. 3,4,5. Cambridge 1957.

※ Chalandon, F. :

11. Histoire de la premeir Croisade Paris 1925.
12. Essai sur la Regne d'Alexis Comnene, Paris 1900.

※ Comnene, Anna :

13. The Alexiad « أعمال الكسيوس » Trans. by Elizabeth, A. S. Dawas, London. 1967.

※ Dozy, Reinhart :

14. Supplement aux Dictionnaires Arabes. (2 vols.) Leiden 1881.

✻ Emerton :

15. Mediaeval Europe.

16. Enzyklopaedie des Islams (2 Ausg.) 1969.

17. Encyclopedia of Islam.

✻ Gibb; Hamilton, A. R. :

18. Arabic sources for the life of Saladin.

19. The Damascus Chronic of the Crusades. London 1932.

✻ Gottschalk; Hans :

20. Almalik Al-Kamil von Egypten und seine zeit: Wissbaden 1959.

✻ Gray, G. Z. :

21. The Children Crusades. London.

✻ Grousset, Réne :

22. Histoire des Croisades et du Royaum Franca de Jerusalem. (3 vols.) Paris 1934-1936.

✻ Hagenmeyer :

23. Anonymi Gesta Froncorum. Heidelberg 1890.

24. Die Kreuzzugsbriefe.

25. Peter der Ermit, Leipzig 1879.

✻ Heisenberg, A. :

26. Neue quellen zur Geschichte des lateinischen Kaisertums. Munchen 1923.

✻ James of Vitry :

27. History of Jerusalem. London.

✻ Joinville, Jean de :

28. Histoire de Saint Louis. (ed wailly) Paris 1974.

✻ Kugler :

29. Studien zur geschichte des Zweiten Kreuzzuges. Stuttgart 1866.

30. Geschichte des Kreuzzueges. «in Onken's Series».

✻ Lane - Poole; S. :

31. Saladin and the fall of the Kingdom of Jerusalem. New - York 1898.

✻ Le Strange :

32. Palestine under the Moslems.

* Luchaire, A. :

33. Innocent III et la question d'orient. Paris 1911.

* Lewis, Bernard :

34. The Arabs in History. Oklahama.

* Nicholson; R. H. :

35. Tancred Chicago 1940.

* Oliver, Scholasticus :

36. Historia Damiatana. «Bibiliothek des Litterarischen Vereins in Stuttgart, CCII. Tubingen 1894.

* Oman, Charles (Sir) :

37. A Histoyr of the Art of War in the Middle ages (2 vols.) 2ed. London 1924.

* Ostrogorsky, G. :

38. History of the Byzantine State «Trans. Joan Hussey» OXford 1956.

* Rohricht, R. :

39. Geschichte des ersten kreuzzuges. Innsbruck, 1901.
40. Geschichte des koenigreichs Jerusalem. Innsbruck 1898.
41. Geschichte der keruzzuege in Umrises. Innsbruck, 1989.
42. Der Kinderkreuzzug 1212, in historische Zeitschrift, vol. 36, Munchen, 1876.

هذه المؤلفات من اسلم وأحسن ما كتب عن الحروب الصليبية .

43. Studien zur geschichte des fuenften Kreuzzuges.

* Runciman, Steven :

44. Die Kreuzzuge (3 B.) Munchen 1955.
45. Der erste Kreuzzug. Beck - Munchen 1981.

* Ruville, A. :

46. Die Kreuzzuge. Bonn 1920.

* Setton, K. M. :

47. The Byzantine Empire. Speculum 1950.
48. A History of the Crusades (2 vols.) Pensylvania, 1958.

* Stevenson, W. B. :

49. The Crusaders in the East. Cambridge 1907.

يعنى هذا الكتاب بالوقائع التاريخية والعلاقات بين الصليبيين والمسلمين .

* Thompson, J. W. :

50. Economic and Social History of the Middle-ages (2 vols.) London 1959.

* Vasiliev, A. A. :

51. A. History of the Byzantine Empire (2 vols.) Madison, 1961.

* Von Junker, H. :

52. Persisch - Deutsches Woerterbuch Leipzig 1968.
53. Persian English Dictionary.

* Von Kremer, J. :

54. Der Sturz des Koenigreiches Jerusalems - Wissbaden 1952.

* Von Sybel :

55. Geschichte des ersten Kreuzzuges.

اعتمد فون سيبل على ثلاثة مصادر أوربية معاصرة للحملة الاولى هى :

١ ـ مؤلف مجهول Gesta Fancorum أعمال الفرنجة .

٢ ـ ريموند اجيل Roymond of Agiles (الصنجيلى)

٣ ـ فولشر Folcher

ويرى البعض ان ما كتبه سيبل يعتبر ثورة فى كتابة الحروب الصليبية .

* Wiet, Gaston :

56. L'Egypte Arabe. Paris 1937.

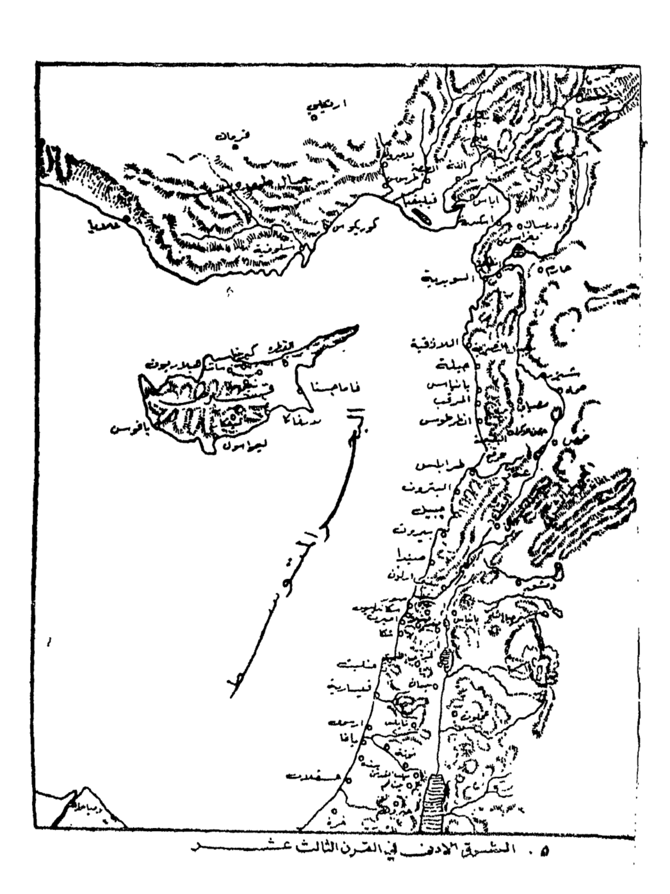
* William of Tyer :

57. History of william of tyre (2 vols.).

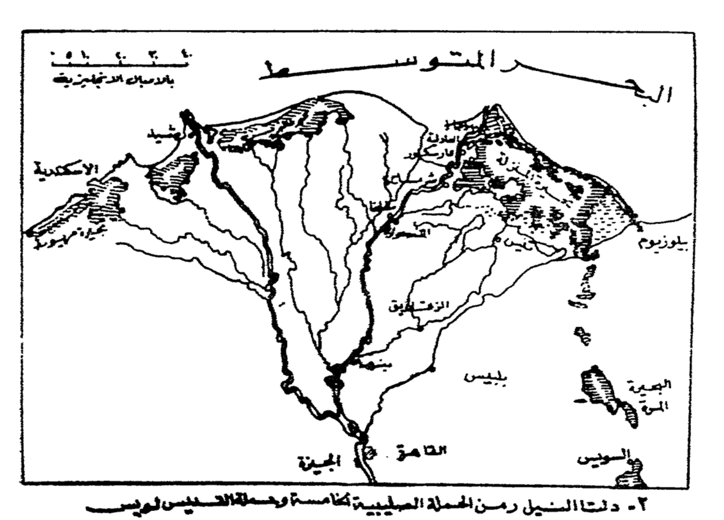
اشتهر وليم الصورى (من فلسطين) بالاتزان والاعتدال فى كتابته التاريخية ، وكان يعرف اليونانية والعربية ، وقد الف هذا الكتاب عن الحروب الصليبية بتكليف من املريك (عمورى) وقد دون كتابه على فترات زمنية امتدت من ١١٧٠ الى ١١٨٣م حيث توفى فجاة .

* Wustenfeld, F. :

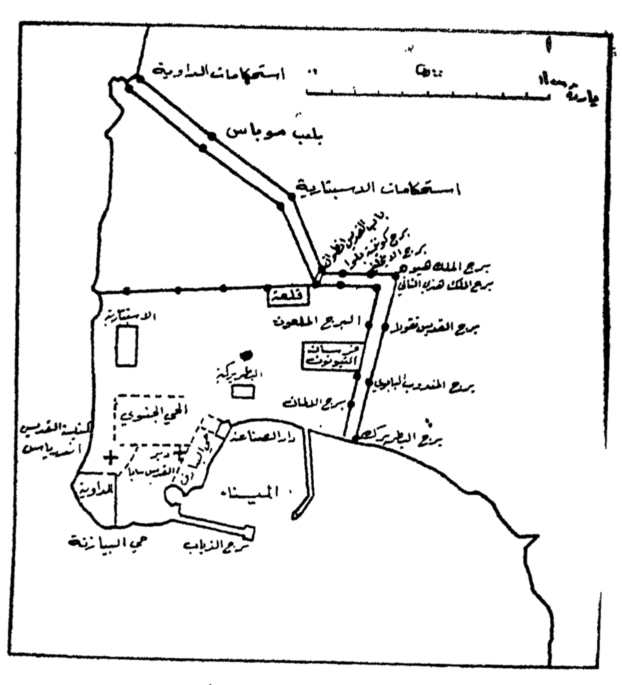
58. Vergleichung's Tabellen der Moham,edanischen und christlichen Zeitrechnung.



٥ . المشرق الأدنى في القرن الثالث عشر



٢- دلتا النيل زمن الحملة الصليبية الخامسة وحملة القديس لويس



استحكامات الداوية
بلمب موباس
استحكامات الدسبتارية
باب القديس لعازر
برج كونتسة بلوا
برج الدوق
برج الملك هيو
برج الملك هنري الثاني
قلعة
البرج الملعون
برج القديس نقولا
فرسان التيوتون
برج المندوب البابوي
برج السلطان
برج البطريرك
الاسبتارية
البطريركية
الحي الجنوي
دار الصناعة
الكنيسة القديس أنسطاسيوس
دير القديس سابا
الداوية
الميناء
حي البيازنة
برج الذباب

عكا سنة ١٢٩١

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الاهداء	٣
المقدمة	٥ — ١٤
الفصل الأول	
احوال الشرق الأدنى السياسية قبل الحملات الصليبية	١٥ — ٥٦
أولا : القوى الاسلامية	١٥ — ٤٤
(أ) الخلافة العباسية فى بغداد	١٥ — ٢٤
ظهور دويلات المشرق الاسلامى ــ تدخل المرأة فى شئون الحكم ــ ظهور البويهيين ــ ثورة أهل البصرة ــ ثورة أهل الموصل ــ الفتن فى بغداد ــ تسلط بنى بويه على الخلافة ــ محاولة تبرئة البويهيين ٠	
(ب) ظهور الأتراك السلاجقة	٢٥ — ٢٨
موطنهم ونسبهم ــ توسعات السلاجقة ــ القضاء على البويهيين ٠	
(جـ) الدولة البيزنطية والأتراك السلاجقة	٢٨ — ٣٣
موقعة مانزيكرت ــ النتائج التى ترتبت عليها ٠	
(د) ظهور دولة الأتابكة	٣٤ — ٣٦
معنى أتابك ــ أسباب ظهورهم ــ أهم الأتابكيات ٠	
(هـ) الخلافة الفاطمية فى مصر	٣٧ — ٤٤
ضعف الخلفاء ــ الفتن والحروب ــ الحمدانيون ــ المستعلية والنزارية ــ الحافظية والطيبية ــ أسباب ضعف الخلافتين الفاطمية والعباسية ٠	

الموضـــــــوع	الصفحة

ثانيا : القوى المسيحية فى الشرق .... ٤٥ - ٥٤

الامبراطورية البيزنطية - مهاجمة الثغور الاسلامية - الاغارة على صقلية - حصار المصيصة - سقوط انطاكية - بداية ضعف الدولة - ثورة نبلاء الاقطاع - انتزاع بعض املاكها فى الخارج - النزاع المذهبى - اتساع نفوذ السلاجقة - طلب المساعدة من البابا جريجورى السابع .

ثالثا : الحملات الصليبية وأسبابها .... ٥٥ - ٥٦

الفصل الثانى

مصر بين نور الدين محمود والصليبيين .. ٥٧ - ٧٤

نور الدين وفكرة ضم مصر - جودفرى دى يوايون واتفاقه مع الخليفة الفاطمى - بلدوين الأول وتنفيذ خطة جودفرى - تكرار المحاولة - موته - عمورى الأول .

الحملة النورية الأولى .... ٦٠ - ٦٢

الحملة النورية الثانية .... ٦٣ - ٦٧

الحملة النورية الثالثة .... ٦٨ - ٧٤

الفصل الثالث

صلاح الدين الأيوبى .... ٧٥ - ١٠٤

نشأته وحياته وصفاته - صلاح الدين وزيرا فى مصر - العقبات التى واجهته مع الصليبيون وتجديد الحلف مع بيزنطة - وصول الجيوش الى دمياط - انسحاب عمورى - صلاح الدين يهاجم بعض مدن الصليبيين - نهاية الخلافة الفاطمية .

غزو بلاد النوبة - فتح بلاد اليمن - المؤامرة الكبرى - ثورة الكنز بالصعيد - الوحشة بين الرجلين - موت نور الدين محمود .

الموضـــــــوع | الصفحة

الفصـل الرابع

صلاح الدين والجبهة الاسلامية ...... ١٠٥ – ١١٨

العلاقات بين امراء الدول الاسلامية – الصالح اسماعيل فى دمشق – سيف الدين غازى يضم بعض البلدان – انتقـال الصالح اسماعيل الى حلب – الاستيلاء على دمشـق – صلاح الدين يحاصر حلب ثم يستولى على حمص – وقعة قرون حماة – حصار حلب والصلح .

الصليبيون يحاصرون حمـاة ثم حارم – هزيمة صـلاح الدين عند تل الصافية – ضعف البيت الاتابكى – اغارة صلاح الدين على الشوبك والكرك – ذهابه الى دمشق – دخوله الرها – الاستيلاء على حلب – اكتمـال تكوين الجبهـة الاسلامية المتحـدة .

الفصـل الخامس

جهاد صلاح الدين ضد الصليبيين .... ١١٩ – ١٤٥

الحالة التى كانت عليها الامارات الصليبية – الاسباب التى ساعدت المسلمين على استنقاذ بيت المقدس – موقعـة حطين – فتح طبريه – أسرى الصليبيين – الاستيلاء على مدن الساحل – فتح بيت المقدس – شروط التسليم ودخول صلاح الدين القدس – حصار صـور – مناقشة النقـد الموجـه الى صلاح الدين .

الفصـل السادس

الحمـلة الصليبية الثالثة وسـقوط عكا ثانيـة ١٤٧ – ١٦٠

حملة فردريك – وفاته – ريتشارد قلب الأسد ، وفيليب أوجست – الصليبيون وسقوط عكا وشروط الصـلح – صلاح الدين يطلب المساعدة من المغرب – موقعـة أرسوف وهزيمة المسلمين – صلح الرملة .

الموضـــــــــوع　　　　　　　　　　　　　　الصفحة

الفصـل السابع

الأيوبيـون بعـد صلاح الدين .... ١٦١ — ١٨٠

انقسام الدولة بين خلفاته — الخلاف بين الافضل والعزيز عثمان — الملك العادل فى دمشق — الملك العادل والصليبيون — دخوله يافا عنوة — الصليبيون يحتلون بيروت — الهدنة بين العـادل والصليبيين — وفاة العزيز عثمان — الافضـل يحاول الاستيلاء على دمشق — الملك العادل وتوحيد البيت الايوبى — سوء الاحوال فى مصر .

الفصـل الثامن

السلطان الملك العـادل وجهاده ضد الصليبيين ١٨١ — ٢٠٤

حشود الصليبيين فى عكا — سياسة العادل اللينة — الحملة الصليبية الرابعة — الحملة تبحر نحو القسطنطينية — سقوط القسطنطينية واقامة امبراطورية لاتينية — أهم نتائج الحملة .

حملة الأطفال — مهاجمة العادل للصليبيين — أهم أعمال العـادل الداخلية — الدعوة الى حمـلة صليبية جديدة ضـد مصر .

الفصـل التاسع

الحمـــلة الصليبية الخامســـة .... ٢٠٥ — ٢١٧

مصر هدف الصليبيين — وصول الحملة الى دميـاط — حصارها — سقوطها — استردادها — أحوال البيت الأيوبى بعد الحملة الخامسة .

الحملة الصليبية السادسة .... ٢١٨ — ٢٢٤

مجىء فردريك الثانى الى الشرق — تسليم القدس اليه — عودته الى بلاده .

الملك الكامل وتوحيد الدولة الأيوبية .... ٢٢٥ — ٢٣٢

الموضـــــــــوع	الصفحة
فترة الهدوء ـ هزيمة الخوارزميين ـ محاولة الصالح نجـم الدين أيوب نزع أبيـه الملك الكامل من حـكم مصر ـ ظهـور الخطـر المغولى ـ الوحشـة بين الكامل والأشرف ـ استيلاء الكامل على دمشق ووفاته ٠	
الفصـل العاشر	
ضـعف الدولة الأيوبيـة وسقوطهـا ٠٠٠٠	٢٣٣ ـ ٢٥٥
الملك العادل الثانى سلطانا على مصر ـ استرداد بيت المقدس من الصليبيين ـ الملك الصـالح نجـم الدين أيوب فى مصر ـ الملك الصالح يستعين بالخوارزمية ـ الصـالح أيوب وتوحيد الدولة الأيوبية ٠	
الحملة الصليبية السابعة على مصر	٢٤٢ ـ ٢٥٥
وصولها الى دمياط ـ معركة المنصورة (فارسكور) ـ توران شاه ونهاية الدولة ٠	
فهرس المصادر والمراجع	٢٥٧ ـ ٢٦٦
الخــرائط	٢٦٧ ـ ٢٦٩
فهرس الموضـوعات	٢٧١ ـ ٢٧٥
تصويب الأخطـاء	٢٧٦

تصويب الأخطاء

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣٣	١	بوزان	بوران
٣٤	هـ ١	Dictionsry	Diotionary
٤٩	٤	يثوفانو	ثيوثانو
٦٨	هـ ٢	ويمنى	اليمنى
١٠٠	١٤	سنذكره	ذكرناه
١٢٠	١٦	السليمة	السلمية
١٢٠	١٧	لدوجة	لدرجة
١٢٢	٥	الغرب	العرب
١٢٣	احر سطر	البحو	البحر
١٢٥	٤	البد	البدء
١٢٦	٥	وصنجيلى	الصنجيلى
١٣٠	١٢	رينالد	ريجنال
١٣٧	١٦	تزيدت	نزايدت
١٤٨	هـ ١	ان	أبن

رقم الايداع ٨٦٩١ لسنه ١٩٩٠

مطابع سجل العرب

كتب للمؤلف

١ ـ فى تاريخ العرب والاسـلام ـ الانجلو المصرية ـ القاهرة ط. ثالثة ١٩٨٥

٢ ـ الدولة الاسـلامية فى العصر العباسى ـ الانجلو المصرية ـ القاهرة ـ ط. ثانية ١٩٨٥

٣ ـ الدولة العربية (الخلفاء الراشدون) ـ النهضة العربية ـ القاهرة ـ ط. ثالثة ١٩٨٦

٤ ـ تاريخ العلاقات بين الشرق والغـرب ـ النهضة العربية ـ القاهرة ـ ط. ثانية ١٩٨٥

٥ ـ العلاقات بين دول الخليج ومـدن الشرق الأقصى ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ١٩٧٦

٦ ـ تاريخ الحضـارة الاسـلامية ـ مطبعة جـلال ـ الزقازيق ـ ط. ثامنة ١٩٨٩

٧ ـ تاريخ دولة المماليك البحـرية (فى مصر والشـام) ـ ط. ثامنة / مزيدة ومنقحة ١٩٩٠

٨ ـ كتاب التاريخ والحضارة الاسلامية (مع آخرين) ـ بتكليف من وزارة التربية والتعليم ١٩٨٥ـ١٩٨٦

٩ ـ دراسة فى مخطوط تاريخ الدول والملوك (المعروف بتاريخ ابن الفرات) ـ الانجلو المصرية ـ ١٩٨٣

١٠ ـ دراسة فى أوراق البردى العربية ـ مطابع سجل العرب ١٩٨٢

١١ ـ التطـور التاريخى لعـقود الزواج فى الاسـلام ـ النهضـة العربية ١٩٨٢